شرح

أصول في التفسير

البشلي

شرح العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله تعالى ت ١٤٢١ هـ

عناية وتعليق

أيمن بن عارف الدمشقي و صبحي محمد رمضان

مكتبة السنة

الطبعة الأولى لمكتبة السنة بالقاهرة

١٤٢٥ هـ = ٢٠٠٤ م

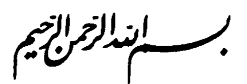
رقم الإيداع : ٢٥٤٤ / ٢٠٠٤	
طبع بدار نوبار للطباعة	



مكتبة السنة

الدار السلفية لنشر العلم

القاهرة : ٨١ شارع البستان - ميدان عابدين ،ناصية شارع الجمهورية،
تليفون : ٣٩٠٠٣١٨ - ٣٩١٣٥٣٢ فاكس : ٣٩١٣٥٣٢ - تلكس: ٢١٧١٩ TLTHRB UN
ص . ب : ١٢٨٩ - الرمز البريدى : ١١٥١١



مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين ، وشفيعنا يومَ الدين ، سيدنا ومولانا محمد ﷺ ، وبعد :

فهذا كتاب « **شرح أصول التفسير** » للعلّامة الشيخ ابن عثيمين ، رحمه الله ، شرح فيه الشيخ كتابه « أصول التفسير » فزاده وضوحًا وشرحًا وذكرًا للأمثلة لتزداد سهولته ونفعه على طلاب العلم .

والشيخ – رحمه الله – وإن كان قد صرح بأنه اعتمد كثيرًا على « مقدمة التفسير » لشيخ الإسلام ابن تيمية[1] ، إلا أنه سيظهر للقارئ أنه زاد على الأصل كثيرًا من أدوات التفسير ، مع حسن التبويب والتنسيق .

وكعادتنا قمنا بنسخ الأشرطة ، ثم مقابلتها معها مرة أخرى ، مع ضبط ما أشكل ، والتخريج والتعليق .

وما كان من زيادة للإيضاح وضعناها بين معكوفين هكذا [ ] ، وما كان بالمعنى فبين قوسين هكذا ( ) .

واللَّهَ نسأل أن يتقبل هذا العمل ، وأن يعفو عما فيه من تقصير وزلل .

المحققان

(١) طبع بشرح الشيخ ابن عثيمين ، رحمه الله ، في مكتبة السنة بتحقيقنا ، ولله الحمد .

ترجمة موجزة لفضيلة الشيخ
محمد بن صالح العثيمين

اسمه ونسبه : هو أبو عبد اللَّه محمد بن صالح بن عثيمين الوهيبي التميمي .

مولده ونشأته العلمية : حفظ القرآن الكريم على يد جده لأمه ، ثم اتجه إلى طلب العلم ، فتعلم بعض مبادئه ، ثم أخذ في القراءة على العلماء مختلف العلوم الشرعية .

مشايخه : الشيخ عبد الرحمن السعدي ، وهو الذي لازمه وتخرج به ، الشيخ عبد الرحمن بن علي بن عودان ، الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، الشيخ عبد العزيز بن باز ، الشيخ علي بن حمد الصالحي ، وغيرهم .

تلاميذه : للشيخ مئات التلاميذ في المملكة العربية السعودية ؛ منهم القاضي والدكتور والإمام وطالب العلم والداعية ، وآلاف التلاميذ خارج المملكة تتلمذوا على أشرطته وكتبه .

صفاته وشخصيته العلمية : كان يتحلى بأخلاق العلماء الفضلاء التي أبرزها الورع والزهد ورحابة الصدر ، وقول الحق ، والعمل لمصلحة المسلمين والنصح لخاصتهم وعامتهم . وكان يتبع أسلوبًا مميزًا في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويقدم مثلًا حيًّا لمنهج السلف الصالح فكرًا وسلوكًا .

وفاته : توفي رحمة الله عليه يوم الأربعاء ١٥ شوال سنة ١٤٢١هـ .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره [ونتوب إليه]، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان وسَلَّم تسليمًا، أما بعدُ:

● **الشرح**: هذا الدرس الذي نبتدؤه هذه الليلة - ليلة السبت - العاشر من شهر صفر عام ستة عشر وأربعمئة وألف، هو في أصول التفسير، ونسأل الله تعالى أنْ ييسر إتمامه على الوجه الذي ينفع.

بدأ المؤلف كتابه بهذه الخطبة، خطبة الحاجة، الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، «نتوب إليه» اجعلوها بين قوسين؛ لأنها لم تأت في الحديث، لكننا قلناها تقليدًا للعلماء السابقين، والحديث: «الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا»، أما الحمد فهو وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم، ويكون الحمد لكمال المحمود ولإنعام المحمود أيضًا، فهو فضل وإفضال، فالآكل إذا أكل يحمد اللَّهَ عز وجل على كماله أو على إحسانه وإنعامه؟ الثاني؛ لقول النبي ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأَكْلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»[1]. واللام في قوله: «لله» للاستحقاق والاختصاص، أما كونها للاستحقاق فإن أحق مَنْ يُحمد هو اللَّه عز وجل، وأما كونها للاختصاص فلأن الحمد مستغرقة لجميع أنواع المحامد؛

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٣٤) عن أنس.

لأن « ال » في الحمد للاستغراق ، ومن الذي يختص بالحمد كله ؟ اللَّه عز وجل ، ولهذا نقول : اللام في « الحمد لله » للاستحقاق والاختصاص . جملة « نحمده » جملة توكيد في المعنى لقوله الحمد لله ، نستعينه : نطلب منه العون ، نستغفره : نطلب منه المغفرة ، أما العون فهو المساعدة ، وأما المغفرة فهو ستر الذنوب مع التجاوز عنها ، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا : نعوذ باللَّه أي نعتصم به من شرور أنفسنا ، وهل للنفس شرور؟ نعم للنفس شرور ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ [يوسف : ٥٣] ، والنفوس التي جاءت في القرآن وُصفتْ بثلاثة أوصاف : بالنفس المطمئنة في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ ﴾ [الفجر : ٣٠] ، وبالأمارة بالسوء في قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ ، وباللوامة في قوله تعالى : ﴿ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾ [القيامة : ٢] ، وأما المطمئنة والأمارة بالسوء فهما متباينان ؛ لأن المطمئنة تأمر بالخير وتنهى عن الشر ، والأمارة بالسوء تأمر بالشر وتنهى عن الخير . واللوامة : الصحيح أنها وصف للنفسين جميعًا ، فالأمارة بالسوء تلومك والمطمئنة تلومك ، الأمارة بالسوء تلومك متى ؟ إذا فعلت الخير ، وإذا تركت السوء لامتك ، المطمئنة تلومك متى ؟ إذا فعلت السوء وتركت الخير ، فالصواب أن اللوامة وصف يكون للنفسين جميعًا للأمارة بالسوء وللمطمئنة . أنفسنا فيها شرور والمعصوم مَنْ عصمه اللَّه ، ولهذا نعتصم بالله من شرور أنفسنا . ومن سيئات أعمالنا ، الأعمال كما تعلمون ثلاثة أقسام : سيئ ، وصالح ، وبينهما ؛ لا سيئ ولا صالح . هل للسيئ آثار سيئة ؟ الجواب : نعم . واستمع إلى قول الله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة : ١٣] ، فعاقبهم اللَّه بهذه العقوبات لأنهم نقضوا الميثاق ، فالسيئات – سيئات الأعمال – لها آثار سيئة ، وما حصل الشر إلا بسيئات الأعمال ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ ، بماذا ؟ ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾ [الروم : ٤١] ، وقال

تعالى : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى : ٣٤] . من يهده الله فلا مضل له ، يعني من يهده الله تقديرًا أو من يهده الله تحقيقًا أو الأمرين ؟ الأمرين ، فمن يُقَدِّر الله هدايته فلا بد أن يهتدي ولو وجد له عوامل تقتضي ضلاله ، ومن هداه الله تحقيقًا واهتدى فإنه لا يستطيع أحد أن يضله لأن الله تعالى قد هداه ، والأمر بيد مَنْ ؟ بيد الله عز وجل ، وهذه الجملة توجب للإنسان أن لا يطلب الهداية إلا من اللّٰه عز وجل مع فعل الأسباب ، الأسباب لا بد منها ، اسأل اللّٰه الهداية واعمل لأسبابها ؛ مِنْ تَعَلُّم الشريعة واستتباعها وما أشبه ذلك . ومن يضلل الله فلا هادي له ، من يضلل في الفعل يعني حقيقة أو من يضلل تقديرًا ؟ الأمران جميعًا . فمن أراد الله ضلالَه فإنه لا يمكن أن يهديه أحد ، ولا أدل على ذلك من فعل الرسول عليه الصلاة والسلام مع عمه أبي طالب ، عمه أبو طالب أحسن إليه - أي إلى الرسول - إحسانًا عظيمًا ، وصبر على مقاطعة قريش من أجل أن يكون مع النبي ﷺ ، وآمن به بلسانه فصَدَّقه ، وقال في لاميته المشهورة :

لقد علموا أن ابننا لا مُكَذَّبٌ ... لدينا ولا يُعْنَى بقول الأباطل[1]

وقال :

ولقد علمتم أن دين محمدٍ ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينا[2]

ومع ذلك لم يهتد مع حرص النبي صلى اللّٰه عليه وآله وسلم على هدايته ، فإنه لم يهتد ، مات على الكفر ، حضره النبي ﷺ وهو في سياق الموت ، فقال : « يا عم ، قل : لا إله إلا الله ، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله » ، ولكنه لم يقل ذلك ، وكان آخر ما قال أنه على ملة عبد المطلب[3] . فمات على الكفر والعياذ بالله -

(١) البداية والنهاية (١٤٢/٤) (طبعة دار هجر) ، والبيت من بحر الطويل .
(٢) البيتان من بحر الوافر .
(٣) متفق عليه : البخاري (١١٠٣) ، ومسلم (٢٤) عن المسيب بن حَزْن .

اللهم أحسن لنا الخاتمة جميعًا .

يقول : ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . أشهد : أي أقر إقرار مشاهد ، والمشاهد للشيء يراه حِسًّا ، فالشهادة هنا متضمنة للإقرار الذي يُعتبر بمنزلة الشهادة لتأكُّد المقر . وقوله : « أن لا إله إلا الله » يعني أنه لا يُوجد إله إلا اللَّه . كذا صحيح ؟ لا ، هذا غير صحيح أن نقول : لا يوجد ؛ لأن هناك آلهة تُعبد من دون اللَّه وتُسمى آلهة ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ﴾ [المؤمنون : ١١٧] ، وقال تعالى : ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [هود : ١٠١] ، ولأننا لو قلنا : لا وختامًا .. أيتها الجوهرة المكنونة وختامًا .. أيتها الجوهرة المكنونة إله موجود إلا الله ، لكان هذا هو القول بوحدة الوجود ؛ لأن الله إله خالق السماوات والأرض ، وهذه الأصنام إله إذن [هم] واحد . بهذا يتعين أن يكون المعنى لا إله حق إلا الله ، وعلى هذا فيكون خبر « لا » النافية محذوفًا ، ولفظ الجلالة الذي بعد « إلا » بدلٌ منه . وهذا أحسن الأعاريب وأسلم الأقوال من (الردّ) والاعتراض .

وحده لا شريك له ، وحده تأكيد للإثبات ، ولا شريك له تأكيد للنفي . هذه الجملة كلمة الإخلاص لو وُزنت بها السماوات والأرض لرجحت بهن[(١)]، وهي التي من كانت آخر كلامه من الدنيا دخل الجنة[(٢)]، فهي كلمة عظيمة لها وزنها وقيمتها تعصم الإنسانَ وماله من القتل كما تعصمه من الكفر ، ولهذا لما لحق

---

(١) أخرجه النسائي في اليوم والليلة (٨٣٤، ١١٤١) ، والطبراني في الدعاء (١٤٨٠) ، وأبو يعلى (١٣٩٣) عن أبي سعيد ، قال الهيثمي في المجمع (٨٢/١٠) : رجاله وثقوا وفيهم ضعف . اهـ . وصححه ابن حبان (٦٢١٨) ، والحاكم (٥٢٨/١) ، وكذا صححه الحافظ ابن حجر في الفتح (٢٠٨/١١) ، لكنه من رواية دراج عن أبي الهيثم ، وفيها ضعف . والله أعلم .

(٢) أخرجه أبو داود (٣١١٦) عن معاذ بن جبل وإسناده حسن ، وصححه الحاكم (٤٥١/١) ، وللحديث شواهد ، انظر حاشية ابن حبان (٢٧٢/٧) .

أسامةُ بنُ زيدٍ المشركَ وأدركه ، قال هذا المشرك : لا إله إلا الله ، ففهم أسامة أنه قالها تعوذًا وخوفًا من القتل فقتله ، ثم بلغ ذلك النبيَّ صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم ، فقال له : « أقتلته بعد أن قال : لا إله إلا الله ؟ » قال : نعم ، لكنه قالها تعوذًا . ومعنى تعوذًا : ليعتصم بها من القتل . فجعل النبي ﷺ يرددها ، حتى قال أسامة : تمنيت أني لم أكن أسلمت بَعْدُ[١] . تمنى أنه ليس بمسلم لأجل إذا أسلم غُفر له ما قد سلف ، ولكن الأمر حصل ، إلا أن النبي صلى اللَّه عليه وآله وسلم لم يُضمِّنْه بدية ولا كفارة لأنه متأول ، والكفارة لا تأتي مع العمد أيضًا .

يقول : وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، نقول في أشهد كما قلنا في الأولى ، ومحمد هو ابن عبد اللَّه بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ، صلوات الله وسلامه عليه ، لا يُوجد من بني إسماعيل نبي سواه . وقوله عبده ورسوله . عبده يعني العابد له المتذلل ، ليس له حق من الربوبية ، ورسوله المرسل من قبل اللَّه عز وجل ، فليس بكاذب وليس له حق في الربوبية ، وفي قوله عبده ورسوله ، عبده فيها رد على مَنْ غلا فيه ، ورسوله : رد على مَنْ قدح فيه . كذا في قوله : عبده رد على من غلا فيه حتى أوصله إلى جانب الربوبية ، ورسوله رد على من قدح فيه وكذبه وقال : ليس برسول ، أو قال : إن رسالته ليست عامة ، فالنصارى الآن – عليهم لعائن الله إلى يوم القيامة وكذلك اليهود – يقولون : محمد رسول وعيسى رسول وموسى رسول ، لكن موسى إلى قومه ، وعيسى إلى قومه ، ومحمد إلى قومه . فلا فرق بيننا وبينكم . أنتم آمنتم برسول أرسل إليكم ونحن نؤمن برسول أرسل إلينا واليهود كذلك . ولكنا نقول : إن محمدًا ﷺ رسول إلى كل مَنْ وُلد من بعد رسالته فإنه يلزمه اتباعه[٢] ، حتى قال الرسول عليه الصلاة والسلام : لو كان أخي

---

(١) متفق عليه : البخاري (٣٣٨٠) ، ومسلم (٩٦) .

(٢) أخرج مسلم (١٥٣) عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « والذي نفس محمد بيده ، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به ، إلا كان من أصحاب النار » .

موسى حيا ما وسعه إلا اتباعي[١] . وقوله محمد عبده ورسوله . لم يقل إلى الناس كافة مع أن هذه الجملة مما علمه النبي ﷺ أمته في التشهد ، ماذا نقول في التشهد ؟ أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، بتعليم الرسول . فيقال كما قال ابن مالك رحمه الله :

وحذف ما يعلم جائز[٢]

ونحن نعلم أن رسالته مطلقة لكل أحد فَحُذفَ المرسل إليه للعلم به .

صلى الله عليه وعلى آله أصحابه ومن تبعهم بإحسان وسلم تسليما .

ما معنى صلى الله عليه ؟ أحسن ما يقال : أثنى عليه في الملأ الأعلى . أي مدحه ووصفه بصفات الكمال في الملأ الأعلى ؛ في الملائكة ، وعلى آله : الآل تارة تذكر وحدها مثل قولنا في التشهد : اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد .

فإذا ذُكرت وحدها كان المراد بها جميع أتباعه على دينه ، كقول الله تعالى في فرعون : ﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] أي أتباع فرعون . وإذا ذكرت الآل والصحب والأتباع كما في هذه العبارة صار المرادُ بالآل قرابتَه المؤمنين به ، أما غير المؤمنين به ، فليسوا من آله ؛ لأن الله قال عن نوح في ولده قال له : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود : ٤٦] وهو ابنه من صلبه . ومع ذلك نفى الله أن يكون من أهله ، كذلك الذين لم يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام من قرابته ليسوا من آله ، وإن كانوا من أهله نسبا لكنهم لا يدخلون في الدعاء لهم . أصحابه : الذين اجتمعوا به مؤمنين به ولو لحظة واحدة وماتوا على ذلك . ومن تبعهم بإحسان : بقية الأمة ، وهذا من – تبعهم بإحسان – مأخوذ من قول الله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٣٨٧) ، وابن أبي شيبة (٩/٤٧) ، وابن أبي عاصم (٥٠) ، والبزار (١٢٤ – كشف) ، والبيهقي في الشعب (١٧٧) ، والبغوي في شرح السنة (١٢٦) عن جابر ، قال الهيثمي في المجمع (١/ ١٧٤) : فيه مجالد بن سعيد ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما .

(٢) الألفية (١٣٦) – طبع مكتبة السنة .

الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ ﴾ [التوبة : ١٠٠] وإنما قُيدت التبعية بالإحسان بأن التبعية قد تكون مطلقة وقد تكون مقيدة بالإحسان ، بحيث يترسم خطاهم قولا وفعلا وتركا . أما من كان متبعا مطلق متابعة ، فهذا لا يكفي ، يعني قصدي لا يكفي أي لا يدخل في هذا الدعاء فلابد من الإحسان ، وسلم تسليما : ثنى بالسلام لأن اللـه تعالى قال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] وأما في التشهد فإننا نبدأ بالسلام قبل الصلاة ، ووجه ذلك أن الرسول ﷺ علم الأمة السلام قبل الصلاة ، ثم بعد ذلك طلبوا منه أن يعلمهم الصلاة عليه كما علمهم السلام فعلمهم[1] . فصار الترتيب هكذا : السلام أولا ثم الصلاة ثانيا .

فإن من المهم في كل فن أن يتعلم المرء من أصوله ما يكون عونًا له على فهمه وتخريجه على تلك الأصول ؛ ليكون علمه مبنيًا على أسس قوية ودعائم راسخة ، وقد قيل : مَنْ حُرم الأصولَ حُرم الوصول .

ومِنْ أَجَلّ فنون العلم ، بل هو أجلُّها وأشرفها علم التفسير ، الذي هو تبيين معاني كلام الله عز وجل ، وقد وضع أهل العلم له أصولاً كما وضعوا لعلم الحديث أصولاً ولعلم الفقه أصولاً .

وقد كنتُ كتبتُ من هذا العلم ما تيسر لطلاب المعاهد العلمية في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، فطلب مني بعضُ الناس أن أفردها في رسالة ليكون ذلك أيسر وأجمع ، فأجبته إلى ذلك ، وأسأل اللهَ تعالى أن ينفع بها .

● **الشرح** : هذه القطعة تتضمن أن من المهم أن يركز الإنسان في معلوماته على الأصول ؛ أصول المسائل ؛ لأن الأصول هيَ التي تجمع له الفروع ومن كان معتنيا بالفروع دون الأصول فإنه يفوته الفروع والأصول ، لأن الفروع كأوراق الشجرة تَتَحَاتُّ وتزول ، وأما الأصول فهو كعروق الشجرة يرسخ الشجرة

(١) أخرجه البخاري (٥١٩٤) ، ومسلم (٧٨٨) عن كعب بن عجرة .

ويُبقيها . ولهذا أنا أحث كل طالب علم على أن يعتني بالأصول : القواعد والضوابط ، وكذلك الكلمات الجامعة التي تشمل مسائل كثيرة ، لأننا نرى بعض الناس الآن من الطلبة وغير الطلبة يعتني بجمع المسائل فقط يجمع مئة مسألة أو مئتين مسألة ، لكن ليس عنده أصل يبني عليه ، فإذا ورد عليه أي مسألة تخالف ما كان حافظا لا يستطيع أن يُخَرِّجها . ولذلك نحن نحث الطالب - طالب العلم - على معرفة الأصول ، وقد قيل : من حرم الأصول حرم الوصول . يعني أنه لا يصل إلى غايته . وهذا حقيقة . ثم قال : إن من أجل فنون العلم بل هو أجلها وأشرفها علم التفسير الذي هو تبيين معاني كلام الله عز وجل ؛ لأن شرف العلم يشرف بموضوعه ، وموضوع علم التفسير كلام الله عز وجل . فالاعتناء به أهم من الاعتناء بشرح الحديث ، وأهم من الاعتناء بشرح متن من متون العلماء ؛ لأنه تفسير لماذا ؟ لكلام الله عز وجل . والعلوم تشرف بحسب موضوعها . قال : وقد كنت كتبت من هذا العلم ما تيسر لطلاب المعاهد العلمية في جامعة محمد بن مسعود الإسلامية فطلب مني بعض الناس أفردها في رسالة ليكون ذلك أيسر وأجمع فأجبته إلى ذلك . وزدت ما شاء الله وحذفت بعض الأشياء والتي لا فائدة منها . فصار هذا الكتاب مختصرا ، وأكثر اعتمادي على مقدمة التفسير لابن تيمية رحمه الله لأن المقدمة نافعة[1] ، لكن كما تعلمون أن شيخ الإسلام رحمه الله كلامه دائما مرسلا ، لأنه بحر متلاطم لا تحجزه الجداول ، فهو رحمه الله يتكلم بكلام مرسل يحتاج إلى أنه يُجمع ويبسط للطالب .

ويتلخص ذلك فيما يأتي :

*** القرآن الكريم :**

١- متى نزل القرآن على النبي ﷺ ، ومَنْ نزل به عليه من الملائكة .

٢- أول ما نزل من القرآن .

(١) وقد قمنا - بحمد الله - بنشره مع تعليقات الشيخ ابن عثيمين ، وطبع بمكتبة السنة .

٣- نزول القرآن على نوعين: سببي وابتدائي.

٤- القرآن مكي ومدني، وبيان الحِكْمة من نزوله مُفرَّقًا وترتيب القرآن.

٥- كتابة القرآن وحفظه في عهد النبي ﷺ.

٦- جمع القرآن في عهد أبي بكر وعثمان رضي اللّه عنهما.

* **التفسير:**

١- معنى التفسير لغة واصطلاحًا، وبيان حكمه والغرض منه.

٢- الواجب على المسلم في تفسير القرآن.

٣- المرجع في التفسير إلى ما يأتي:

أ- كلام الله تعالى بحيث يُفَسَّر القرآن بالقرآن.

ب- سنة الرسول ﷺ، لأنه مبلغ عن اللّه تعالى، وهو أعلم الناس بمراد الله تعالى في كتاب الله.

ج- كلام الصحابة رضي اللّه عنهم، لا سيما ذوو العلم منهم والعناية بالتفسير؛ لأنَّ القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم.

د- كلام كبار التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي اللّه عنهم.

هـ- ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللُّغوية حَسَب السياق، فإنِ اختلف الشرعي واللُّغوي أُخذ بالمعنى الشرعي إلا بدليل يُرجِّح اللغوي.

٤- أنواع الاختلاف الوارد فى التفسير المأثور.

٥- ترجمة القرآن: تعريفها، أنواعها، حكم كل نوع.

* خمس تراجم مختصرة للمشهورين بالتفسير: ثلاث للصحابة، واثنتان للتابعين.

* أقسام القرآن من حيث الإحكام والتشابه.

موقف الراسخين في العلم والزائغين من المتشابه.

التشابه: حقيقي ونسبي.

الحكمة في تنوع القرآن إلى محكم ومتشابه.

*** مُوهم التعارض من القرآن والجواب عنه، وأمثلة من ذلك.**

*** القَسَم: تعريفه - أداته - فائدته.**

*** القصص: تعريفها - الغرض منها - الحكمة من تكرارها واختلافها في الطول والقصر والأسلوب.**

*** الإسرائيليات التي أُقحمت في التفسير وموقف العلماء منها.**

*** الضمير: تعريفه - مرجعه - الإظهار في موضع الإضمار وفائدته - الالتفات وفائدته - ضمير الفصل وفائدته[١].**

● **الشرح:** هذه في الحقيقة كأنها فهرس. ثم اعلموا أن هذه الرسالة أصول في التفسير وليست أصول التفسير كلها، لكنها أصول بالتفسير يحتاج إليها مَنْ أراد أن يفسر كلام الله عز وجل.

* * *

(١) هذه في الحقيقة كأنها فهرس. ثم اعلموا أن هذه الرسالة أصول في التفسير.

القرآن الكريم

القرآن في اللغة : مصدر قرأ بمعنى تلا ، أو بمعنى جمع . تقول : قَرَأ قَرْءًا وقُرْآنًا ، كما تقول : غفر غَفْرًا وغُفْرانًا ، فعلى المعنى الأول (تلا) يكون مصدرًا بمعنى اسم المفعول أي بمعنى متلو . وعلى المعنى الثاني (جَمَعَ) يكون مصدرًا بمعنى اسم الفاعل أي بمعنى جامع ؛ لجمعه الأخبارَ والأحكام[1] .

● **الشرح** : القرآن يحتاج إلى معرفته لغة وشرعا . اللغة : قالوا : إنه مصدر قرأ بمعنى تلا ، أو قرأ بمعنى جمع . وكلاهما صحيح ؛ لأن القرآن إنْ قلت إنه مقروء أي متلو فصحيح ، وإن قلت إنه قارئ أي جامع للأخبار النافعة والأحكام العادلة فهو كذلك . وعندكم حاشية تقول يمكن أن يكون من جمع بمعنى اسم المفعول أي بمعنى مجموع لأنه جمع في المصاحف والصدور . ولهذا يقال إن أبا بكر رضي الله عنه جمع القرآن . فالقرآن إذن مجموع ، فصار قرأ بمعنى اسم المفعول سواء كان من القراءة بمعنى التلاوة أو من القراءة بمعنى الجمع . أما قرأ بمعنى التلاوة فهي اسم مفعول ؛ لأن القرآن ما هو قارئ بل هو مقروء . فالقرآن بمعنى التلاوة لا يكون بمعنى اسم المفعول . القرآن بمعنى القرء أي الجمع يكون بمعنى اسم الفاعل وبمعنى اسم المفعول هذا باعتبار القرآن لغة .

والقرآن في الشرع : كلامُ الله تعالى المُنَزَّل على رسوله وخاتم أنبيائه محمد ﷺ المبدوءُ بسورة الفاتحة المختومُ بسورة الناس . قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ﴾ [الإنسان : ٢٣] ، وقال : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢] .

● **الشرح** : وهذا المعنى قد أجمع عليه المسلمون . لم يشذ إلا الرافضة ، حيث ادعوا أن القرآن فيه نقص وأنه حُذف منه أشياء وزادوا على ما في القرآن الموجود بين المسلمين ، والذي أجمع عليه المسلمون ، أوله الفاتحة وآخره سورة الناس . فما

---

(١) ويمكن أن يكون بمعنى اسم المفعول أيضًا أي بمعنى مجموع لأنه جُمع في المصاحف والصدور .

بين هاتين السورتين كله كلام الله عز وجل ، حتى قال العلماء : مَنْ أنكر منه حرفا واحدًا فإنه يكون كافرا ؛ لأنه مكذب لله ورسوله وإجماع المسلمين ، حرفا واحدا اللهم إلا ما اختلفت فيه القراءات ؛ لأن بعض القراءات قد يكون فيها حذف حرف معنوي لا حرف تركيبي ، الحرف التركيبي كثير مثل ملك ومالك ، حذفت من القراءة الثانية الألف . لكن هناك حذف معنوي قد تحذف الواو وقد يكون بدل الواو فاء حسب القراءات ، لكن هذا قليل . المهم أن القرآن شرعًا هو هذا الذي بين أيدينا والحمد لله ، حفظه الله عز وجل ، حفظه الله من النقص والزيادة والتحريف ، حتى الذي حرفوه معنًى أقام الله تعالى من عباده الصالحين مَنْ رد هذا التحريف ، قلنا : إنه مكذِّب لله ورسوله فهو مكذب لله عز وجل لأن ادعاءه بأنه قد زيد فيه أو نقص تكذيب لمضمون قوله تعالى : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر : ٩] أما للرسول عليه الصلاة والسلام فإن المسلمين أجمعوا على أن محمدا ﷺ بلغ القرآن كاملا ولم يشذ عنه حرف ولا كلمة ولا آية ، وأن هذا القرآن الذي بلغه محمد هو هذا القرآن الذي بين أيدينا ، وأما الإجماع فظاهر .

وقد حَمَى اللَّه تعالى هذا القرآن العظيم من التغيير والزيادة والنقص والتبديل حيث تكفّل عز وجل بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ولذلك مضت القرون الكثيرة ولم يحاول أحد من أعدائه أن يغير فيه أو يزيد أو ينقص أو يبدل إلا هَتَكَ اللَّهُ تعالى سِتره وفَضَح أمره.

● **الشرح :** الحمد لله ، وهذا بخلاف الكتب السابقة ، الكتب السابقة صار فيها التحريف والتغيير والتبديل ، وصار فيها الكتمان ؛ جعلوا التوراة قراطيس يبدونها ويخفون كثيرا . لكن هذا القرآن والحمد لله محفوظ ، حتى لو حاول أحد أن يغير معنى القرآن قيد الله له مَنْ يبين تحريفه ويبين عُواره وعيبه .

وقد وصفه الله تعالى بأوصاف كثيرة تدل على عظمته وبركته وتأثيره

وشموله وأنه حاكم على ما قبله من الكتب.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ ﴾ [الحجر: ٨٧]، **﴿ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾** [ق: ١].

● **الشرح**: آتيناك سبعا من المثاني، ما هذه السبع؟ هي سورة الفاتحة كما ثبت بذلك الحديث عن النبي ﷺ[1]. هي السبع المثاني لأن آياتها سبع، وهي مثاني فيها خبر وفيها دعاء وفيها تاريخ وفيها تقسيم الناس في الهداية يعني هي أم القرآن بمعنى الكلمة، ولا أحسن من الشرح الذي شرحه إياها ابن القيم رحمه الله في أول مدارج السالكين[2]، فإنه قد أتى من معانيها بالعجب العجاب الذي لا تجده في أي كتاب تفسير. والقرآن العظيم وصف الله القرآن بأنه عظيم، ووصفه بأنه مجيد والمجد هو العظمة قال الله تعالي: ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ [ق: ١] وهذا يدل على عظمة هذا القرآن. هل نفهم أن القرآن عظيم أو أنه مجيد أو نفهم شيئا وراء ذلك؟ نفهم شيئا وراء ذلك وهو أن من تمسك به نال العظمة والمجد وصار له السلطة على غيره، والشاهد حاصل من الواقع فالأمة الإسلامية لما كانت متمسكة بهذا القرآن الكريم كان لها السيطرة والهيمنة على كل الأمم وصارت تفتح البلدان بلدا بلدا.

وقال تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، **﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾** [الأنعام: ١٥٥]، **﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾** [الواقعة: ٧٧]، **﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾** [الإسراء: ٩].

● **الشرح**: هذا أيضا آيات تدل على عظمة القرآن، ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ ﴾ فالقرآن مبارك، مبارك في أثره وتأثيره وأجره وثوابه. أما أجره وثوابه فإن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٤٠) عن أبي سعيد بن المعلى.

(٢) المدارج (٨/١).

من قرأ القرآن فله بكل حرف عشرة حسنات[١] ، وأما تأثيره فإن الله بين أنه لو أنزله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله . وأما آثاره فما حصل للأمة الإسلامية من النصر المبين والفتح العزيز الذي يشهد به كل أحد ، ثم ما يحصل به من صلاح القلوب وإقبال العبد على ربه وتليين القلب لذكر الله . قال ابن عبد القوي رحمه الله :

وحافظ على درس القران فإنه   يُلينٌ قلبا قاسيا مثل جَلْمَدِ[٢]

وصدق رحمه الله ، الذي يقرأ القرآن بحضور قلب وتدبر لاشك أنه يتأثر به تأثرا عظيما . وقوله : ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ هذا بيان الحكمة من إنزاله أن تتدبر آياته ، لا أن تقرؤه بدون تدبر ولا تفهم معناه ؛ لأننا لو قرأناه هكذا ما استفدنا منه ، أيّ فائدة لألفاظ ترددها وأنت لا تعرف معناها ولا تتدبرها ؟ لا فائدة ، الحكمة الثانية قال : ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ تدبر الأيات مطلق ليدبروا آياته . والتذكر به خاص بمن ؟ بأولوا الألباب العقلاء لأنه كم من إنسان يعرف معنى القرآن ويتدبر القرآن ويستنتج منه الفوائد العظيمة لكن لا يتذكر ، لا يتذكر إلا أولوا الألباب ، والألباب هي العقول . فذكر الله هذا الكتاب العظيم وصفه بأنه مبارك وبين الحكمة من إنزاله وهي تدبر الآيات ، والثاني التذكر . وفي قوله ليدبروا آياته بدون استثناء دليل على أن معاني آيات الصفات معلوم ؛ لأنها من آياته بل هي أجل آيات القرآن ؛ إذْ أنّ فيها الخبر عن الله عز وجل وأحكامه وأفعاله فهي معلومة لنا ، وبهذا نرد على مَنْ قال إن مذهب السلف هو التفويض ؛ أي تفويض المعنى . فإن هذا قول لا يصدر إلا عن كاذب على السلف أو جاهل بمذهبهم . وإلا فمن علم مذهب السلف تبين له أنهم يقولون بالمعنى ويعرفونه . وقوله : ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ بيان أنه نزل للتذكر والاتعاظ ، وكم من إنسان يقرأ القرآن ولكنه من

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٢) مرفوعًا ، وقال : حسن صحيح غريب من هذا الوجه . اهـ . وأخرجه الدارمي (٣٣٥١) ، وغيره موقوفًا ، وسنده صحيح ، وقد يقال : مثله لا يقال بالرأي فهو في حكم المرفوع .

(٢) البيت من بحر الطويل .

أعداء القرآن لأنه لم يتذكر به ولم ينتفع به .

وقال تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الحشر : ٢١] ، ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤- ١٢٥] ، ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] ، ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٢].

● **الشرح** : سبق لنا من أوصاف القرآن الكريم عدة أوصاف ، وذكرناها مع أدلتها وانتهينا إلى قوله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ وبينا أن تدبر الآيات يشمل كل ما في القرآن من الآيات حتى ما يتعلق بأسماء الله وصفاته فإنه داخل في هذا ، وذكرنا أن في هذا رَدًّا على أهل التفويض الذين قالوا : إن الناس لا يعلمون معاني ما أنزل الله على رسوله ﷺ في القرآن الكريم . وذكرنا أن قول أهل التفويض قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : إنه من شر أقوال أهل البدع والإلحاد . يقول عز وجل في سياق الآيات التي فيها ذكر أوصاف القرآن الكريم : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ﴿ هَذَا كِتَابٌ ﴾ كتاب بمعنى مكتوب ، ففي أي شيء هو مكتوب ؛ هو مكتوب في اللوح المحفوظ ، مكتوب في المصاحف التي في أيدينا ، مكتوب في الصحف التي بأيدي السفرة الكرام البررة . وقوله ﴿ مُبَارَكٌ ﴾ سبق الكلام عليه ﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ هذا بمعنى قوله ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ وذلك لأن الاتباع فرع عن معرفة المعنى . وقوله ﴿ اتَّقُوا ﴾ حذف المفعول ، ففي أي شيء نقدره ؟ إذا قال : اتبعوه واتقوا . أي اتقوا مخالفته التي هي ضد اتباعه ، وهذا يشمل الأخذ بجميع شرائع القرآن الكريم . وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ ﴿ إِنَّهُ ﴾ الضمير يعود على القرآن ، لقرآن كريم والجملة هنا

مؤكدة بمؤكدين بل بثلاثة لأن قبلها قسم ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ فالجملة مؤكدة بثلاثة مؤكِّدات : القسم ، والثاني « إنَّ » ، والثالث اللام . لكن قد يقول قائل منكم : إنها لم تؤكد بالقسم ؛ لأن الله يقول : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ و« لا » : للنفي ، فكيف تقولون إنه إثبات قسم؟ نقول : إن « لا » هنا للتنبيه ، وليست نافية . بل المراد لا ، يعني انتبهوا : أقسم بمواقع النجوم إلخ . « فلا » هنا للتنبيه مثلها في قوله تعالى : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ وبقوله ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ وفي قوله ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ ﴾ وما أشبهها . ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴾ الكريم كثير الخير ، ولهذا يقال للرجل البذول الذي يبذل ماله يقال إنه كريم . ويقال للبهيمة الحسناء التي تُدِرُّ وتلد يقال لها كريمة ، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل وقد بعثه لليمن : إياك وكرائمَ أموالهم[1] . كرائم يعني أحاسنها وأطايبها . القرآن الكريم في ألفاظه وفي معانيه وفي آثاره وفي كل شئ ، هو قرآن كريم كما وصفه الله عز وجل ، من كرمه أنه يلين القلب إذا تابع الإنسانُ تلاوتَه لان قلبُه . ومن كرمه أيضا ما حصل للأمة الإسلامية بسبب التمسك به من الفتوحات العظيمة والانتصارات الهائلة . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ يعني للخَصْلة التي هي أقوم ولم يقل القيمة ، بل قال التي هي أقوم . إذن فكل خلق فاضل فالقرآن يهدي لأعلاه . كل معاملة حسنة فالقرآن يهدي لأحسنها . كل عبادة مستقيمة فالقرآن يهدي لأقومها . وهلم جرا . للتي هي أقوم .

وفيه إشارة إلى أن الدين الإسلامي يبدأ بالأهم فالأهم والأصلح فالأصلح ، ويدفع الأسوء بالسيئ ؛ لأن السيئ بالنسبة للأسوأ أقوم لكونه أخف . فهذه العبارة تشير إلى أن القرآن يهتم بالأهم فالأهم والأحسن فالأحسن والأصلح وهلم جرا . وعليه فإذا تعارض عندك عملان لا تتوقف ، إذا كان أحدهما أنفع من الآخر بماذا

(١) أخرجه البخاري (١٢١٥) ، ومسلم (١٩) عن ابن عباس .

تأخذ ؟ بالأنفع . ولا تنظر إلى الماضي انظر إلى الحاضر والمستقبل ، ما نتيجة هذا الشئ ؟ لأن الله يقول : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ فالنظر للعاقبة أمر مهم . إذن هذا من أوصاف القرآن أنه يهدي للتي هي أقوم . وقال تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ [الحشر : ٢١] لو أنزلنا هذا القرآن على جبل ، والجبل كما تعلمون أصم صلب شديد ﴿ لَرَأَيْتَهُ ﴾ حين نزول القرآن عليه ﴿ خَاشِعًا ﴾ أي ذليلا متصدعا متفتتا من أي شئ ؟ ﴿ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ فـ « مِنْ » هنا للسببية ؛ أي بسبب خشية الله عز وجل . هذا وهو جبل أصم صلب شديد ، فكيف بالقلوب . ولهذا إذا قرأت القرآن ولم تشعر بأن قلبك لان فاعلم أنه أشد قسوة من الحجارة . لماذا ؟ لأن الحجارة تلين وتخشع ، والقلب الذي لا يلين ولا يخشع بالقرآن أشد قسوة من الحجارة . فنسأل الله أن يلين قلوبنا وقلوبكم بذكره . آمين . وقوله ﴿ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾ أي من خوفه ، لكن الخشية خوف مقرون بعلم ؛ لقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ أفادنا الله عز وجل بأن هذا ضرب مثل ، وأن الأمثال يضربها الله تعالى للناس ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ أي لأجل أن يتفكروا ، وما أكثر الأمثال في القرآن الكريم . قيل فائدة أصولية : كلُّ مَثَل فى القرآن فهو إثبات للقياس ؛ لأن المقصود به انتقال الذهن من هذا إلى هذا ، وعليه فأدلة القياس في القرآن كثيرة جدا ؛ لأن الأمثال في القرآن كثيرة ، إذن ما الذي استفدنا من وصف القرآن هنا ؟ استفدنا من ذلك قوة تأثير القرآن ، وأنه لابد أن يؤثر ، لكن لما كان أكثر الناس اليوم يقرؤن القرآن بألسنتهم صار تأثيره لا يتجاوز حناجرهم وإلا لو قرؤه بقلوبهم وألسنتهم لكان له أثر بالغ . يقول الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ﴾ « منهم » أي من المنافقين . من يقول : لا تستمعوا لهذا القرآن ما الفائدة منه . إذا أنزلت سورة قالوا : أيكم زادته هذه إيمانا ؟ لماذا يقولون هذا الاستفهام ؟ إما لكونهم لم ينتفعوا بالآيات فظنوا أن الناس كلهم مثلهم ، وإما أنهم يكابرون ينكرون أن تكون الآيات قد أثرت عليهم

استكبارًا وعنادا وجحودا . قال الله تعالى في الجواب : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ هذا قسم من الناس الذين آمنوا زادتهم إيمانا كيف زادتهم إيمانا ؟ تزيدهم إيمانا بأنه إذا نزلت السورة بخبر صدقوه ، وإذا نزلت السورة بطلب قاموا به تركًا للمنهي عنه وفعلًا للمأمور . وهذا يزيد الإيمان ، كلما ازداد الإنسان تصديقا بآيات الله عز وجل ازداد إيمانا ، وكلما ازداد الإنسان عملا ازداد إيمانه ، ولهذا كان من مذهب أهل السنة والجماعة أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية . إذن المؤمنون إذا نزلت السورة زادتهم إيمانا ، لماذا ؟ للتصديق بها إن كانت من الأخبار ، والعمل بها إن كانت من الطلب فعلا للمأمور وتركا للمحظور . ﴿ وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ يعني يبشر بعضهم بعضا بما نزل وبحكم ما نزل . يبشر بعضهم بعضا لأنه كلما نزلت آية من القرآن فهو دليل على أن الله أراد بالأمة خيرا ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ المرض علة تقتضي خروج البدن عن الاعتدال الطبيعي هذا الأصل هي أيضا في القلب كذلك علة تصيب القلب توجب خروجه عن الاعتدال الطبيعي . وهو أعني مرض القلب في كل موضع بحسبه ، ففي قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : ٣٢] ما المراد بالمرض هنا ؟ مرض الشهوة . وهنا ﴿ أَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ مرض الشك والجحود ؛ لأنه في مقابل قوله : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ والشيء يعرف بمقابله . وهذه من قواعد التفسير التي ستأتينا إن شاء الله : أنه يعرف معنى الآية بذكر المقابل . ومن أبرز مثال على ذلك قوله تعالى : ﴿ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ [النساء : ٧١] لو قلنا ما معنى ثبات ؟ متفرقين أو فرادى . بماذا عرفتم أن هذا معناه ؟ لقوله في مقابله ﴿ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا ﴾ ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي شك وجحود ﴿ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ نعوذ بالله ، رجسا إلى رجسهم : الرجس هنا معنوي أم حسي ؟ معنوي تأكيدي لقول الله تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [الحج : ٣٠] هنا الرجس معنوي ﴿ فَزَادَتْهُمْ

﴿رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ﴾ لماذا زادتهم رجسا إلى رجسهم ؟ لأن النازل إن كان خبرا كذبوه ، وإن كان طلبا خالفوه ، والتكذيب يزيدون به رجسا ، والمخالفة يزيدون بها رجسا . ﴿وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ – نسأل الله العافية – يعني استمر هذا الرجس في قلوبهم إلى أن ماتوا على الكفر . وفي هذا الآية تحذير عظيم لمن رد الشرع لأول مرة أنه خطر عليه أن يستمر معه هذا الرد حتى يموت على الكفر . ولهذا انتبه لهذه المسألة ، بمجرد ما يأتيك الخبر الصادق في حكم أو غيره فاقبله وتهيىء له ، لا تتردد فيه ، إن ترددت فيه فهو خطر عظيم قال الله تعالى : ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ [ق : ٥] فلما كذبوا به صاروا في أمر مريج مختلط لا يدل على شيء . وكذلك أيضا قال الله تبارك وتعالى : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة : ٤٩] إذا قال قائل : كيف تكون السورة لقوم زيادة في الإيمان ولقوم زيادة في الرجس وهي سورة واحدة؟ نقول : لا غرابة أرأيت غذاء الجسد يكون للسليم غذاء وزيادة نمو ، ويكون للمريض علة وزيادة مرض . وأضرب لكم مثلا بالتمر : إذا أكله السليم يزداد فيه نموا وطاقة حرارية ونشاطا ، وإذا أكله المريض بالسكر يزداد مرضا ، مع أنه واحد ! هكذا أيضا القرآن تكون الآية أو السورة لقوم زيادة في الإيمان ولقوم زيادة في الكفر . وجه كون هذا مدح للقرآن : أن القرآن يزيد المؤمن إيمانا ويزيد الكافر كفرا ، وهذا دليل على قوة تأثير القرآن . من المعلوم أن نزول الآيات بعد موت الرسول ﷺ انقطع ، لكن قد ينسى الإنسان الآية ثم يقرؤها أو تُقْرأ عليه فيتذكر وكأنها نزلت الآن . أحيانا نغفل عن معنى الآية ثم إذا فتح الله علينا وعرفناها كأنها نزلت الآن . وانظر إلى ما حدث بعد موت الرسول ﷺ حين اجتمع الناس في المسجد وقام مَنْ نراه أشجع هذه الأمة بعد نبيها وبعد أبي بكر عمر بن الخطاب قام يقول للناس : إن رسول الله لم يمت ، وإنه سيأتي وسيبعث فيقطع أيدي أقوام وأرجلهم . يقول هكذا عمر هل قرأ قول الله تعالى : ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر : ٣٠] قرأه لا شك . لكن من الذهول غفل عنه ، فلما جاء المطمئن أبو بكر

رضي الله عنه وقرأها قال عمر : حتى عُقِرْتُ فما تُقِلّني رجلاي ، وكأن الآية نزلت الآن[1] . لأن الناس من شدة ما أصابهم من الهول غفلوا كأنها نزلت الآن . حينئذ يجد الإنسان لذة في هذه الآية التي فتح الله عليه بها وكأنها نزلت الآن فيزداد إيمانا .

الآن نعطيكم الفائدة :

يا طالبا خذ فائدة «ما» بعد «إذا» زائدة

كلما أتتك «ما» بعد «إذا» فهي زائدة ، ﴿ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ أي إذا غضبوا ، ﴿ حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ ﴾ أي حتى إذا جاؤها ، وهلم جرا .

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام : ١٩] هذا أيضا من تأثير القرآن أنه إنذار لمن بلغه ، كل إنسان قرأ القرآن يعرف معناه فلابد أن يتأثر به حتى ولو كان كافرا . وأنتم تعرفون قريشا حينما كان الرسول يقرأ القرآن يجتمع إليه النساء والصبيان بل وكبراؤهم يستمعون إليه لأنه سحرهم وأثّر فيهم فجعلوا يأتونه خفية يستمعون القرآن من في رسول الله ﷺ . فالقرآن مؤثر ، وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : ٣٧] ، ولهذا قال : ﴿ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ يعني ومن بلغه من الناس ، ﴿ لِأُنْذِرَكُمْ ﴾ أيها المخاطبون ﴿ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ من غيركم . هذا دليل أيضا على قوة تأثير القرآن . وهذه الآية يحسن أن نتكلم على قوله ﴿ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ فقد استدل به بعض العلماء على أن من بلغه القرآن فقد قامت عليه الحجة وإن لم يعرف معنى القرآن ، ولكن هذا القول ضعيف لأن من لا يعرف معناه لا يدري مضمونه ، والله تعالى قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : ٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٥٤) .

يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة : ١١٥] فلابد من بيان لكن إذا قيل لهم : هذا كلام الله الواجب اتباعه فقد قامت عليه الحجة وإن لم يفهم المعنى على سبيل التفصيل . إذ عرف أن هذا كلام الله وحي وأنه يجب اتباعه فقد بلغه ، ولا يقال إنه لا بد من التفصيل ، التفصيل قد يكون صعبا لكن إذا قيل هذا كلام الله الواجب اتباعه فقد قامت عليه الحجة .

وقال تعالى : ﴿ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٢] .

لا تطع الكافرين فيما يريدون منك . وماذا يريد الكافرون من الرسول ؟

استمع : ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ [القلم : ٩] اسكت نسكت عنك ، هذا الذي يودون ، ﴿ وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا ﴾ [النساء : ٨٩] لكن يقول : لا تطعهم (وجاهدهم به) أي بالقرآن (جهادا كبيرا) هل يجاهدهم بالقرآن بآيات القرآن أو بأحكام القرآن أو بهما جميعا ؟ بهما جميعا . جاهدهم بآياته اتل عليهم القرآن ، ضَيِّق عليهم لأنهم ضاقوا ذَرْعا بالرسول عليه الصلاة والسلام لما كان يقرأ ويجتمع إليه الناس ضاقوا به ذرعا حتى قالوا : ﴿ لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [فصلت : ٢٦] هذا الجهاد يضيق عليهم . أيضا جهادهم به أي بأحكامه حكمه اتبع ما جاء في القرآن من قتالهم وجهادهم حتى تكون كلمة الله هي العليا . وقوله : ﴿ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ أي لا تتأنّى وتمد إليهم يد الضعف بل يد القوة لأنهم هم – أعني الكفار – يريدون أن يمدوا إليكم يد القوة فيجب أن تمدوا إليهم أنتم أيضا يد القوة ، ولكن الحكمة تقتضي أن نتعامل مع الزمن فإذا كان بنا قوة جاهدناهم ، وإلا عاهدناهم إلى أن يفتح الله علينا بالقوة والعزة . وقال تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل :٨٩] تبيانا لكل شيء وهدى لمن ؟ لكل الناس ، قال الله تعالى : ﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ فهو هدى لجميع الخلق لكنه هداية الدلالة ، هدى لكل الناس هداية دلالة ، ﴿ وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ هذا خاص بالمسلمين ، رحمة بهم

وكذلك بشرى لهم إذا تمسكوا به ، والشاهد قوله ﴿ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ وقد ذكرنا لكم فيما سبق قصة ما جرى للرجل النصراني مع الشيخ محمد عبده(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٨] ﴿ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ﴾ يعني القرآن ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي متلبسا بالحق ونازلا بالحق ، فنزوله حق وما جاء به حق فالباء للملابسة وكذلك أيضا للتعدية ، فهو نازل نزول حق ونازل بالحق يعني أتى بالحق أخباره صدق وأحكامه عدل ﴿ مُصَدِّقًا ﴾ حال ﴿ لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ وكيفية تصديق القرآن لما بين يديه من الكتاب من وجهين: الوجه الأول أن الكتب السابقة ذكرت منه شيئا فنزل مصداقا لها . والشيء الثاني : أنه يصدقها ويقول : إنها حق وصدق ، ولهذا يجب علينا أن نؤمن بالكتب السابقة . فقوله : ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أي مصدقا ما أخبرت به ومصدقا لها بأنها حق ، وقوله : ﴿ مُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ الهيمنة السيطرة والسلطة ، يعني أن القرآن ناسخ لما سبقه من الكتب ﴿ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ ولهذا رتب عليه « فاحكم » فالفاء هنا للسببية ، والفصيحة أيضا ؛ أي فيما أنه مهيمن احكم بينهم بما أنزل الله . بعدها ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ .

وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] .

وقال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ [المائدة: ٤٨] .

---

(١) لم يذكر الشيخ القصة هنا ، ولعله ذكرها في شرح كتاب آخر ، ولعله يقصد القصة المشهورة التي ملخصها ، أن نصرانيًا طلب من الشيخ محمد عبده أن يذكر له من القرآن كم عدد الأرغفة المنتجة من إردب القمح ؛ لأن في القرآن : ﴿ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ . فاستدعى الشيخ خبازًا وسأله ، ثم أجاب النصراني بجواب الخباز ! فطلب النصراني أن يكون الجواب من القرآن ، فقال الشيخ : هذا من القرآن ؛ لأنه يقول : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، وهذا الخباز من أهل الذكر في هذا المجال .

والقرآن الكريم مصدر الشريعة الإسلامية التي بُعث بها محمد ﷺ إلى الناس كافة، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١- ٢].

وسنة النبي ﷺ مصدر تشريع أيضًا كما قرره القرآن، قال الله تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]

● **الشرح:** لما سبق بيان عظمة القرآن الكريم وما وصفه الله به من الأوصاف ذكر أمرًا مهما وهو أن القرآن الكريم هو مصدر الشريعة الإسلامية وكذلك السنة النبوية. فلا يمكن أن يؤخذ بتشريع أي مصدر كان وأي إنسان كان إلا من الكتاب والسنة، وعلى هذا فلا يجوز أن يشرع لعباد الله شيء من القوانين الوضعية؛ لأن القوانين الوضعية لا تخلو من حالين: إما أن تكون موافقة للشرع فنقول: إن الذي شرعها هو الشرع، ولا كرامة ولا منة للقوانين الوضعية، وإما أن تكون مخالفة للشرع فيجب علينا نبذها وطرحها وأن نعلم أنها باطلة؛ لأن الشريعة حق وما عاداها باطل وأنها لا يمكن أن تصلح الخلق، ولا يمكن أن يصلح الخلق قانون وضعه بشر مخالف لشريعة الله؛ لأن هذا البشر الذي يظن أنه وضع ما يصلح الخلق أولًا: أنه قاصر بنفسه وفي عقله وفي معرفة ما يصلح الخلق.

ثانيا: أنه إذا قدرنا أن الرجل عنده عبقرية وذكاء – أعني واضع القانون – فإنما يعرف ذلك بما حوله فقط أما ما كان بعيدًا عنه من الأماكن فإن الناس يختلفون بما يصلحهم.

ثالثا : إذا قدرنا أن هذا الرجل الذي وضع القانون عبقري وذكي ويعرف المصالح فإنما يعرفها في زمن محدود وهو زمنه الذي يعيش فيه وأما فيما بعد فلا . ولهذا نعتبر من الجهل العظيم بل من الكفر إذا قامت البينة إذا قامت الحجة على واضع هذه القوانين التي وضعها إما يهود وإما نصارى من أزمنة بعيدة ووضعوها بين أيدي الناس يتحاكمون إليها ، نرى أن هذا خطأ عظيم بل هو كفر إذا لم يكن هناك تأويل من الفاعل ، وعلى هذا فنقول بأنه لا مصدر للتشريع والحكم بين الناس إلا بالكتاب والسنة ، وقد ضل من ضل حيث قال : إن الكتاب والسنة إنما يبين المنهج الذي يكون بين الإنسان وبين ربه فقط أو في ما بين الخلق في أحوالهم الشخصية كالمواريث والأنكحة مثلا . نقول : لقد ضللت ضلالا مبينا وكذبت قول الله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ ونقول أيضا : دعواك هذه يكذبها القرآن الذي تؤمن به ، فإن أطول آية في كتاب الله هي آية الدَّين وكل هذه في معاملات الخلق . ثم إن الله عز وجل يبين في آيات كثيرة أشياء غير الذي في آية الدَّين كلها تتعلق بالمعاملات والأنكحة والفرائض وغيرها . فالحاصل أن من ابتغى الهدى من غير كتاب الله أضله الله عز وجل ، وكذلك أيضا السنة النبوية مصدر التشريع أيضا ولكن متى ؟ إذا صحت عن النبي ﷺ ، لأن ما لا يصح ليس بعمدة .

ولهذا نقول : الذي ينظر في القرآن ينظر من وجه واحد فقط ، وهو دلالة القرآن على الحكم . والذي ينظر من السنة يجب عليه نظران :

النظر الأول : ثبوت هذا عن النبي عليه الصلاة والسلام . والنظر الثاني : دلالته على الحكم .

فالمستدل بالسنة يحتاج إلى أمرين النظر في ثبوتها ثم النظر في دلالتها ، فإذا قال قائل : ما هو الدليل على أن السنة تشريع ؟ قلنا : القرآن ، ولنقرأ ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] الفرقان هو القرآن ،

وسُمِّي فرقانا لأنه فرق بين الحق والباطل وبين أولياء الله وأعداء الله ، وبين كل الأمور المختلفة . ولهذا لا يمكن يوجد في الشريعة شيء مختلف إلا والعقل يقتضي اختلافه ، أو متفق إلا والعقل يقتضي اتفاقه . وفي قوله ﴿ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ دليل على عموم رسالة النبي عليه الصلاة والسلام .

﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ هذا أيضا يدل على أن الكتاب الذي يجب أن نسير عليه هو القرآن ، ﴿ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ اللام هنا مفخمة إذا وقفت على الآية التي قبلها وإن وصلت فإنها مرققة لأن ما قبلها مكسور ﴿ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * اللَّهِ ﴾ ، أما إذا قلت (صراط العزيز الحميد) ثم قلت ﴿ اللَّهِ ﴾ فتفخم ، ﴿ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ وإذا كان هو مالك السموات والأرض وجب أن يكون الحكم إليه وإلى ما نزل من كتابه ، ﴿ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ مَن الكافرون ؟ الذين لا يهتدون بهذا القرآن ، ويل لهم من عذاب شديد سواء قالوا : إن محمدًا ﷺ لم ينزل عليه القرآن ، أو قالوا : إنه نزل عليه القرآن لكن ليس للعالمين بل لبعضهم .

وسنة النبي ﷺ تشريع أيضا كما قرره القرآن قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ وجه الدلالة أن الذي يطيع الرسول قد أطاع الله ، ومعلوم أن المراد بطاعة الرسول هنا ما لم يرد به القرآن ، وأما ما ورد به القرآن فالطاعة فيه طاعة لمن ؟ لله . لكن إذا لم يأمر القرآن وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بشيء أو نهى عن شيء فطاعته طاعة لله . وهذه دلالة واضحة على أن ما جاء في السنة تجب طاعته كما جاء في القرآن ، ومن لم يفعل فلم يطع الله .

﴿ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ كقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ من تولى ولم يطع الرسول فإن النبي ﷺ قد بلغه وبرأ منه ، وقال تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ نقول في هذه الآية كما قلنا في

التي قبلها من يَعْصِ الله ورسوله هذا فيما نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام أن من عصاه فقد ضل . أما ما نهى الله عنه فإن مخالفته معصية الله ، فدل ذلك على أن ما جاء عن الرسول حجة كالذي جاء عن الله .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ وهذه الآية وإن كانت في قسمة الفيء إذا كان الله تعالى قال : ﴿ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ فهو شامل لما آتانا من شريعة الله وما نهانا عنه من شريعة الله .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ وهذه تسمى آية المحبة يعني آية الامتحان والاختبار في قوم ادعوا أنهم يحبون الله فقال الله عز وجل : قل – يعني يا محمد – إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ، فهذا هو الميزان .

فمن ادعى محبة الله قيل له : إن كنت صادقا فاتبع الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإن قلت : إني أحب الله ، ولم تتبع الرسول فأنت كاذب .

وقوله : ﴿ يُحْبِبْكُمُ ﴾ لم يقل : فاتبعوني تَصْدُقُوا فيما قلتم . قال : ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ففيه إشارة إلى أن الشأن كل الشأن أن يحبك الله عز وجل . وأما دعوى أن الإنسان يحب الله فهذه دعوى قد يدعيها كل واحد ، فالشأن كله أن الله تعالى يحبك . قال : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ فبين الله عز وجل أن من اتبع الرسول عليه الصلاة والسلام حصلت له هاتان الفائدتان :

الأولى : محبة الله . **والثانية** : مغفرة الذنوب .

وهنا جملة معترضة . يقول : نزل القرآن أول ما نزل على الرسول ﷺ في ليلة القدر في رمضان يعني لم ينزل كله بل أول ابتداء نزوله كان في ليلة القدر في رمضان .

* * *

١- نزول القرآن

نزل القرآن أولَ ما نزل على رسول الله ﷺ في ليلة القدر في رمضان، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١]، ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان: ٣، ٤]، ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

● **الشرح:** نزل القرآن أول ما نزل يعني لم ينزل كله بل أول ابتداء نزوله كان في ليلة القدر في رمضان. أما كونه في ليلة القدر فلقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ * فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ وأما كونه في رمضان فلقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ وبهذا نعرف أن ليلة القدر كانت في رمضان. فأول ما نزل في رمضان، لكن قبل رمضان كان يأتيه الوحي على صورة رؤيا فكان أول ما بدئ به أنه يرى رؤيا إذا رآها في الليل جاءت مثل فلق الصبح[1]. وابتداء هذه الرؤيا من ربيع الأول فبقيت ستة أشهر: ربيع الأول والثاني، وجُمادى الأول والثاني ورجب وشعبان ثم نزل عليه القرآن في رمضان. قال بعض العلماء: وهذا هو السر في قول النبي ﷺ: الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزء من النبوة[2]. لماذا؟ لأن رسالة النبي عليه الصلاة والسلام كانت ثلاثا وعشرين سنة ونصف السنة جزءٌ من ستة وأربعين جزءًا من النبوة. فالله أعلم هل هذا هو مراد الرسول عليه الصلاة والسلام أو غيره.

وكان عُمُر النبي ﷺ أولَ ما نزل عليه أربعين سنة على المشهور عند أهل

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (١٦٠) عن عائشة.

(٢) متفق عليه: البخاري (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٦٣) عن أبي هريرة.

العلم[١]، وقد رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم. وهذه السن هي التي يكون بها بلوغ الرشد وكمال العقل وتمام الإدراك.

● **الشرح**: ولهذا قال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ قالوا: بلغ أربعين سنة. هذا أول ما نزل عليه القرآن وله أربعون سنة، وصفة ذلك معروفة في كتب أهل العلم ولا سيما في صحيح البخاري في أوله.

والذي نزل بالقرآن من الله تعالى إلى النبي ﷺ جبريل أحد الملائكة المقربين الكرام، قال الله تعالى عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

● **الشرح**: ﴿وَإِنَّهُ﴾ الضمير يعود على القرآن ﴿لَتَنْزِيلُ﴾ والجملة هذه مؤكدة بكم مؤكِّد؟ بمؤكدين فقط: إن واللام.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني القرآن، وأضاف التنزيل إلى رب العالمين إشارة إلى أن هذا القرآن لجميع العالمين. ما دام المنزل له هو رب العالمين فإنه يكون لكل العالمين ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ وهو جبريل عليه الصلاة والسلام، والأمين وصف لازم له، وحَسُنَ وصفه هنا لأنه نزل بأعظم أمانة ألا وهي القرآن. فلهذا وصف بأنه أمين. وكما قال الله تبارك وتعالى في سورة التكوير قال: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ وقوله ﴿عَلَى قَلْبِكَ﴾ إنما ذكر محل نزوله وهو القلب إشارة إلى عقل النبي ﷺ له، وأنه نزل على محل العقل وهو القلب واللام في قوله ﴿لِتَكُونَ﴾ اللام لام التعليل ﴿لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ وقوله ﴿بِلِسَانٍ﴾ متعلقة بنزل يعني نزل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أي بلغة عربية نسبة إلى العرب وهم الذين كانوا منهم الرسول عليه الصلاة

---

(١) انظر: البخاري (٣٥٤٧)، والبداية والنهاية (٤/٣)، وفتح الباري (٥٧٠/٦) (١٥١/٨) (٤/٩).

والسلام ﴿ مُبِينٌ ﴾ بَيِّنٌ أو مُبَيِّن ؟ هما جميعا . فهو بين في نفسه مبين لغيره . الشاهد أن هذه الآية تدل على أن القرآن نزل من عند الله وأن الواسطة بين الله وبين الرسول هو جبريل عليه الصلاة والسلام ، وأن القرآن بلسان عربي . فهل يجوز لنا أن نترجمه إلى لغة أخرى ؟ سيأتي إن شاء الله في هذه الرسالة(١) .

هل هناك دليل لهذه الأوصاف ؟

استمع ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ هذا الكرم ، ﴿ ذِي قُوَّةٍ ﴾ القوة ﴿ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ ﴾ القرب من الله عز وجل ﴿ مَكِينٌ ﴾ ذو مكانة ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ هذا الاحترام ، أمانة ﴿ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ وقال تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ شدة قوته ، ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ هو الحُسْن ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ قال العلماء : أي هيئة حسنة .

﴿ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ وقال تعالى : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ هذه الطهارة .

ولهذه الأوصاف العظيمة التي اتصف بها جبريل كان أهلا لأن يكون الحامل لكلام الله عز وجل إلى رسله صلوات الله وسلامه عليهم .

وقد كان لجبريل عليه السلام من الصفات الحميدة العظيمة من الكرم والقوة والقرب من الله تعالى والمكانة والاحترام بين الملائكة والأمانة والحسن والطهارة ما جعله أهلًا لأن يكون رسول الله تعالى بوحيه إلى رسله ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ١٩- ٢١] ، وقال : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ [النجم : ٥- ٧] .

وقال : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ١٠٢] .

وقد بيَّـن الله تعالى لنا أوصاف جبريل الذي نزل بالقرآن من عنده وتدل

(١) سيأتي (ص ١٠٨) .

على عِظَم القرآن وعنايته تعالى به فإنه لا يُرْسَل مَن كان عظيمًا إلا بالأمور العظيمة.

● **الشرح :** كون الله يصف جبريل بهذه الأوصاف العظيمة دليل على عِظم ما أرسل به ؛ لأنه لا يُرسل بالأمور العظيمة إلا ما هو عظيم ، ولهذا يفرق الرجل بين أن يرسل الخادم ليأتي إليه بخبز من البقالة ، وبين أن يرسل خادما آخر إلى رئيس أو وزير ، ويكون الثاني أعظم وأحق من الأول .

* * *

٢- أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل

أول ما نزل من القرآن على وجه الإطلاق قطعًا الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، وهي قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ - ٥].

● **الشرح**: أول ما نزل من القرآن ينبغي لنا أن نعرفه؛ لأن من مهمات معرفة المتأخر والمتقدم أنه لو جرى تعارض لا يمكن الجمع بينه علمنا أن المتقدم منسوخ بالمتأخر، فلابد أن نعرف أول ما نزل.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾، أمر جبريل رسول الله ﷺ أن يقرأ فقال: ما أنا بقارئ! ومعنى قوله «ما أنا بقارئ» أي أني لا أحسن القراءة. وليس المراد به العصيان.

بل أخبره بأنه ليس بقارئ؛ لأن النبي ﷺ كان أميا كما قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] فهو لا يقرأ ولا يكتب.

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ وهذا عام وإن شئت فقل: مطلق ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ فذكر ابتداء خلق الإنسان لأنه من المناسب جدا في هذا المقام الذي هو ابتداء الشرع فذكر الله ابتداء الخلق وابتداء الشرع. ابتداء الخلق خلق الإنسان من علق، وابتداء الشرع أن هذا أول ما نزل من القرآن ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾ الإنسان اسم جنس وهو للعموم، أي خلق كل إنسان من علق. وفي آية أخرى أن الله خلقه من نطفة، وفي آية أخرى من ماء مهين. فكيف عَدَل في هذه الآية عن النطفة والماء المهين إلى العلق؛ لأن العلق إذا انتقلت النطفة إليه فإنه يدل على أن هذا ابتداء خلق الإنسان؛ لأن العلقة عبارة عن دودة حمراء، وهذه أول الدم وأول الجسم، فلهذا ذكر الله سبحانه وتعالى هذا، أما قبل ذلك فهو عرضة للفساد.

﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴾ الواو هنا للاستئناف ، والأكرم اسم تفضيل من الكرم ﴿ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾ قال بعضهم : إن هناك شيئا محذوفا ، والمعنى الذي علم الكتابة بالقلم ، ولكن الذي يظهر أنه لا حاجة للتقدير ، وأن المعنى علم بالقلم كيف نكتب به . وإذا دار الأمر بين الحذف وعدم الحذف حُمل الكلام على عدم الحذف ؛ لأنه الأصل . وذكر القلم لأن هذا القرآن الكريم يحفظ في الصدور ويحفظ بالكتابة . والكتابة طريقها القلم ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ علم الإنسان أي كل إنسان ، ما لم يعلم كما قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : ٧٨]، وقوله : « ما لم يعلم » إذا قال قائل أين العائد إلى الموصول ؟ قلنا : محذوف ، التقدير : ما لم يعلمه .

الشاهد أن هذه الآيات هي أول ما نزل من القرآن ، فإن قال قائل : إذا كانت أول ما نزل من القرآن فلماذا لا تكون هي أول القرآن ؟ قلنا : لأن الفاتحة هي أم القرآن فهي كالعنوان للقرآن الكريم ، وما بعدها كله تفصيل ، ولهذا لا تكاد تجد معنى من القرآن إلا وقد تضمنته سورة الفاتحة إيماء إليه . فلهذا صارت هي الأولى في القرآن .

ثم فتر الوحي مدة ثم نزلت الآيات الخمس الأولى من سورة المدثر وهي قوله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [المدثر : ١ - ٥] .

● **الشرح** : والحكمة من فتور الوحي وعدم تتابعه في أول الأمر ليشتد شوق الرسول عليه الصلاة والسلام إليه ، كما وقع فعلا ، فإنه لما فتر صار النبي ﷺ يخرج يتطلع إلى جبريل عليه الصلاة والسلام ، حتى إنه ليهم أن يتردى من قمم الجبال[1] صلوات الله وسلامه عليه ، من شدة شوقه إلى الوحي . فكان من الحكمة

---

(١) ورد هذا في رواية البخاري (٦٩٨٢) ، وهي من مراسيل الزهري .

أن الله عز وجل أخره فترة من الزمن ، واختلف العلماء فيها . ولكن المهم أن الله تعالى أخره إلى وقت يشتاق النبي ﷺ اشتياقا تاما . ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ أصلها المتدثر لكن قلبت التاء دالا لعلة تصريفية . والمدثر لابس الدثار ؛ لأن الرسول قال دثروني دثروني ، ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ أمره الله تعالى أن يقوم وينذر وألا يركن إلى الكسل والخمول بل يكون نشيطا وينذر الناس . ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ رب هنا مفعول مقدم لكبر ، والفاء قالوا إنها لتزيين اللفظ . وقيل إنها عاطفة والأصل فربك كبر . ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ثيابك هل هي الثياب الحسية أي طهر ثيابك من النجاسة ، أو الثياب المعنوية المشار إليها في قوله تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] ؟ الثاني هذا هو المهم . ولهذا قال : ﴿ وَالرُّجْزَ ﴾ يعني الأوثان ﴿ فَاهْجُرْ ﴾ فأمره الله تعالى بهذه الأمور الأربعة : قم فأنذر اثنان ، وربك فكبر ثلاثة ، وثيابك فطهر أربعة . خامس الخصال والرجز فاهجر . فقام عليه الصلاة والسلام وأنذر . ولهذا قال العلماء رحمهم الله : إن النبي ﷺ صار نبيا بآيات العلق اقرأ باسم ربك ، وصار رسولا بآيات المدثر ، يا أيها المدثر قم فأنذر ، وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قال : نُبئ باقرأ ، وأرسل بالمدثر .

يقول ففي الصحيحين صحيح البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها في بدء الوحي قالت : حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك ، جاءه الحق يعني الشرع أو القرآن ، وقوله في غار حراء هو غار في جبل على يمين الداخل إلى مكة من جهة الشرائع . وهو جبل معروف ويسميه أهل الحجاز جبل النور لأنه أول ما نزل به القرآن والقرآن نور كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ لكن تسميته باسمه الأول المعروف في عهد الصحابة وهو غار حراء أو جبل حراء أحسن .

يقول : حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك . « ال » هنا للعهد الذهني ؛ لأن الملك هنا هو جبريل .

ففي الصحيحين[١] صحيح البخاري ومسلم عن عائشة رضي اللَّه عنها في بدء الوحي قالت: حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك، فقال: اقرأ. فقال النبي ﷺ: «ما أنا بقارئ» يعني لست أعرف القراءة، فذكر الحديث، وفيه: ثم قال: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ إلى قوله: ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾. وفيهما[٢] عن جابر رضي اللَّه عنه: أن النبي ﷺ قال وهو يحدث عن فترة الوحي: بينا أنا أمشي إذ سمعتُ صوتًا من السماء...، فذكر الحديث، وفيه: فأنزل الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ إلى ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾.

وثمت آيات يقال فيها: أول ما نزل. والمراد أول ما نزل باعتبار شيء معين فتكون أولية مقيَّدة مثل حديث جابر رضي اللَّه عنه في الصحيحين[٣] أن أبا سَلَمة بن عبد الرحمن سأله: أي القرآن أُنزل أول؟ قال جابر: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾. قال أبو سلمة: أُنبئت أنه ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾. فقال جابر: لا أخبرك إلا بما قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «جاورت في حراء فلما قضيت جواري هبطت ...»، فذكر الحديث، وفيه: فأتيت خديجة فقلت: «دثروني وصبوا عليّ ماء باردًا»، وأُنزل عليّ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾.

فهذه الأولية التي ذكرها جابر رضي اللَّه عنه باعتبار أول ما نزل بعد فترة الوحي، أو أول ما نزل في شأن الرسالة؛ لأن ما نزل من سورة اقرأ ثبتت به نبوة النبي ﷺ، وما نزل من سورة المدثر ثبتت به الرسالة في قوله: ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾، ولهذا قال أهل العلم: إن النبي ﷺ نُبئ بـ «اقرأ» وأُرسل بـ «الْمُدَّثِّر».

---

(١) البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).

(٢) البخاري (٤)، ومسلم (١٦١).

(٣) البخاري (٤٩٢٢)، ومسلم (١٦١/٢٥٧).

● **الشرح :** سبق لنا بيان أول ما نزل من القرآن الكريم على الإطلاق ، وهنا أولية إضافية بمعنى أنه أول ما نزل باعتبار شيء معين ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ فإن جابرا رضي الله عنه سئل عنها عن أول ما نزل فقال : هذه الآية . وهذا يتناقض مع ما سبق أن أول ما نزل هي خمس الآيات من سورة اقرأ فيقال : الجمع أن هذه أولية نسبية ، وإن شئت فقل : أولية إضافية . يعني باعتبار شيء معين فيقال مثلا في قول جابر : إن هذا أول ما نزل أي باعتبار مانزل بعد فترة الوحي ، يعني أول ما نزل خمس آيات من سورة اقرأ ثم فتر الوحي ثم جاءه خمس آيات من سورة المدثر . أو يقال : إنها أول ما نزل باعتبار الرسالة لأن اقرأ ثبتت بها النبوة ، ويا أيها المدثر ثبتت بها الرسالة . وهذا جمع واضح وهذه تسمى أولية إضافية ، أو أولية نسبية . وسيأتي إن شاء الله مثل ذلك في آخر ما نزل ، فإذا قال قائل : ما الفائدة في معرفة أول ما نزل ؟ قلنا : إن الفائدة معرفة الناسخ من المنسوخ فيما إذا حصل تعارض .

* * *

٣- نزول القرآن ابتدائي وسببي

ينقسم نزول القرآن إلى قسمين:

القسم الأول: ابتدائي، وهو ما لم يتقدم نزولَه سببٌ يقتضيه وهو غالب آيات القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الآيات [التوبة: ٧٥]، فإنها نزلت ابتداء في بيان حال بعض المنافقين. وأما ما اشتهر من أنها نزلت في ثعلبة بن حاطب في قصة طويلة ذكرها كثير من المفسرين وروّجها كثير من الوعاظ؛ فضعيف لا صحة له[١].

● **الشرح**: هذا نزول القرآن ينقسم إلى قسمين ابتدائي وسببي. فالابتدائي ما ليس له سبب لنزوله، وهذا هو أكثر القرآن، ومنه قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ ﴿الم ❋ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ المهم أن أكثر آيات القرآن نزلت بدون سبب ابتداء، وأما الثاني وهو السببي وسيأتي إن شاء الله. ابتدائي قال: «هو ما لم يتقدم نزوله سبب يقتضيه» سبب بالرفع ونزوله بالنصب أو الصواب العكس ما يتقدم نزوله سببًا؟ الأول؛ لأن سبب هو الفاعل وهو غالب آيات القرآن الكريم. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ واخترنا التمثيل بهذه الآية وإن كان غيرها كثيرا لأجل الإشارة إلى القصة التي ذكرت فيها ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ﴾ – أي من المنافقين – «مَنْ» هذه مبتدأ مؤخر، وعاهد الله أي قال: أعاهد الله عز وجل أن الله إذا أغنانا من فضله لأتصدقن وأكونن من الصالحين.

---

(١) أخرجه الطبراني (٨/٢٦٠- ٢٦١)، والبيهقي في الدلائل (٥/٢٨٩)، والشعب (٨/٣٠٥)، وابن أبي حاتم (٤/٧٢/ب- ٧٣/أ)، والطبري (١٠/١٨٩)، وابن مردويه. كلهم من طريق علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة. قال الهيثمي في المجمع (٧/٣٢): فيه علي بن يزيد الألهاني وهو متروك. اهـ. وقال ابن حجر: هذا إسناد ضعيف جدًا. اهـ. وانظر تخريج الكشاف (٦١٧- طبع مكتبة السنة) بتعليقي.

وهذا نذر طاعة مُعَلَّق بشرط . ونذر الطاعة ينقسم إلى قسمين : مطلق ومعلق . فالمطلق مثل أن يقول : لله عليَّ نذر أن أصلي ركعتين . والمعلق مثل أن يقول إن شفا الله مريضي فلله عليَّ نذر أن أتصدق بكذا . أو مثل نذر هؤلاء ﴿ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ وأيهما أوكد في وجوب الوفاء ؟ المعلق ؛ لأن المعلق على اندفاع نقمة أو حصول نعمة يكون نذرًا يتضمن العهد والشكر لله عز وجل ، وقد أعطاك الله تعالى ما عاهدته عليه ، فوجب عليك أن تُوفِيَ له بما عاهدته عليه . وقوله : ﴿ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ هذه مؤكَّدة بثلاثة : اللام والقسم المقدر والنون ، الآيات ﴿ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ عندنا الآيات . وهل هي الآيات أو الآيتين ؟ الآيات . وفي هذه الآية التحذير من مثل هذا النذر ، وإخلافه ، وأن الإنسان إذا نذر لله تعالى شيئا على اندفاع مكروه أو حصول مطلوب فلم يَفِ به فإنه ربما يُعاقب بهذا العقاب العظيم ﴿ أَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ ﴾ يعني إلى الموت والعياذ بالله ﴿ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ يقول : إنها نزلت في ثعلبة بن حاطب في قصة طويلة ، القصة الطويلة أنه جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام يريد التوبة ولكنه لم يحصل له ذلك . والقصة مذكورة في التفسير ولكنها لا صحة لها في ثعلبة بن حاطب . هذه القصة غير صحيحة ، وذلك لأن الرجل مهما أذنب من الذنوب إذا تاب ورجع إلى الله فإن الله يقبل منه . فهذه القصة مخالفة لما عُلم من الضرورة من الدين ؛ وهو قبول توبة الله تعالى من التائبين . ولهذا ينبغي للإنسان إذا سمع مثل هذه القصص التي تخالف القرآن ينبغي أن يحررها ثم يبين ما فيها من البطلان .

القسم الثاني سببي : وهو ما تقدم نزوله سبب يقتضيه . هذا سببي . وهو أيضا في القرآن لكنه أقل بالنسبة للأول . والسبب إما سؤال يجيب الله عنه ، وإما إلخ ،

إما سؤال يجيب الله عنه مثل قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ هل في القرآن مثل هذا الأسلوب يسألونك ؟ نعم كثير . ولكننا اخترنا التمثيل بهذه الآية لما سنذكره إن شاء الله . ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ﴾ السائل هم الصحابة ويحتمل أنه غيرهم لكن الظاهر هم الصحابة وليس المشركين . عن الأهلة جمع هلال وهو القمر يُرى في أول ليلة وثاني ليلة وثالث ليلة . لكن الحكم يتعلق برؤيته أول ليلة . يقولون : هذه الأهلة ما الحكمة منها ؟ فقال الله تعالى : ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ مواقيت للناس أي ناس ؟ كل الناس العرب والعجم منذ خلق الله الأهلة . هذه هي المواقيت التي خلق الله الأهلة من أجلها لتكون مواقيت للناس ، ﴿ وَالْحَجِّ ﴾ نص على الحج لأن مواقيت الحج الأشهر . الصلاة ميقاتها يومي زوال الشمس غروبها وما أشبه ذلك . لكن الحج أشهر ، ولم يذكر شهر رمضان مع أنها مواقيت شهر رمضان ، لأن الحج يحتاج إلى سفر وعناء ، ولأن الحج ليس شهرا واحدًا بل هو أشهر فلهذا قال : والحج . ذكرنا هذا المثال من أجل دفع ما قاله البلاغيون في أسلوب الحكيم . أسلوب الحكيم أن يُجاب السائل بخلاف ما يتوقع إشارة إلى أنه كان ينبغي أن يسأل عنه . يعني إنسان يسألك عن شيء فتجيبه بخلاف ما يتوقع إشارة إلى أنه ينبغي إشارة إلى أنه ينبغي أن تسأل عن هذا لا عن هذا . يقول البلاغيون : إن الصحابة سألوا النبي عليه الصلاة والسلام عن الأهلة لماذا يبدو الهلال صغيرا ثم يكبر ثم يعود فينقص ، ما هو السبب ؟ فصرف الله الجواب عما سألوا إلى بيان فائدة هذه الأهلة وليس إلى بيان السبب الطبيعي لهذه الأهلة . فيقال للبلاغيين : عفا الله عنكم ، من أين أتيتم بهذا ؟ قالوا : لأجل أن نمثل لأسلوب الحكيم[١] . نقول : ابحث عن غير هذا . القرآن لا تمثل به إلا على وجه صحيح ثابت . ولا نظن أن الصحابة يسألون الرسول عليه الصلاة والسلام مثل هذا السؤال مع أن القصة لا أصل لها أصلا[٢] .

(١) انظر الموافقات للشاطبي (٤٦/١) .

(٢) تاريخ دمشق (٢٥/١) ، وسنده ضعيف كما قال السيوطي في الدر (٢٠٣/١) .

الصحابة سألوا عن الحكمة من ذلك فأجيبوا بيانها لماذا تصغر وتكبر فأجيبوا بأن ذلك من أجل أن تكون مواقيت للناس والحج ولهذا نجد الإنسان الذي يتابع القمر تماما يمكن أن يحدد لك الليلة بمجرد أن يرى القمر يقول : الليلة الثالثة الرابعة الخامسة العاشرة . بمجرد أن يرى القمر إذا كان يتتبعه لأنه يسير بتيسير الله عز وجل بنظام بديع وسير عجيب منظم . أسألكم الآن ما هو السبب الطبيعي من أنها تصغر وتكبر ؟ القمر يستفيد نوره من الشمس وكلما بَعُدَ عنها كان أكثر مقابلة لها وكلما كثرت المقابلة ازداد نورًا . لهذا تجدونه في النصف أو الرابع عشر في الشرق والشمس في الغرب فتكون المقابلة تامة فيمتلأ نورًا ، وكلما قرب ضعف نوره . تجدون القمر في أول الهلال يكون ظَهْر قوسه إلى المغرب ، وفي آخر الشهر يكون ظهر قوسه إلى الشرق . لأنه في آخر الشهر يكون أقرب إلى الشمس وفي أول الشهر يكون أقرب إلى الشمس من جهة المغرب ، مثاله قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ في هذه الآية من الفوائد : علم الله عز وجل وسمعه ، وفيها أيضا أن الصحابة رضي الله عنهم لم يتركوا شيئا يحتاجه الناس إذا لم يبين لهم ابتداء إلا سألوا عنه ، وبذلك كمل الدين .

والثاني : أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير هذه من الأسباب واقعة تحتاج إلى بيان أو تحذير مثل قوله : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة : ٦٦] هذه نزلت في حادثة للتحذير منها نزلت في رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس : ما رأينا مثل قراءنا هؤلاء أرغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا أجبن عن اللقاء . يعني رسول الله ﷺ وأصحابه . فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ ونزل القرآن ، فجاء الرجل يعتذر إلى النبي ﷺ فيجيبه : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤن . هذا سبب . المنافقون لا يألون جهدا في القدح في الإسلام والمسلمين ، لكنهم يختفون لجبنهم وعدم صراحتهم وخيانتهم وخداعهم . يقول : ما رأينا مثل قراءنا هؤلاء إلخ .

فقال الله عز وجل : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ يعني نخوض في الحديث ونلعب بالأفكار ولسنا نقصد ذلك على وجه الجد . ما معنى أرغب بطونا ؟ يعني أوسع بطونا وسعة البطن يقتضي كثرة الأكل . المعنى أن هؤلاء ليس لهم هم إلا بطونهم . ولا أكذب ألسنا . الكذب هو الإخبار بخلاف الواقع ، ولا أجبن عند اللقاء والجبن هو الشح بالنفس . والبخل هو الشح بالمال . هذه الأوصاف يا إخوان من أحق الناس أن يتصف بها ؟ المنافقون هم أحق الناس بذلك . ومع هذا وصفوا بها النبي ﷺ الذي يقول لأمته : حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه[1] . نسأل الله أن يعيننا على سلوك هذا التنظيم الطبي ، أكثر الناس يملأ بطنه كلما أفطر وكلما تغدى وكلما تعشى . وإذا قيل له في ذلك ، قال : إن أبا هريرة قال : لا أجد له مساغا[2] . فيحتج بهذه القضية الخاصة والنظام الذي نظمه الرسول يغفل عنه . مع أن النظام الذي نظمه الرسول ﷺ هو الصحة . ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه . وهذا واضح ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : إنه يحرم على الإنسان الأكل والشرب إذا خاف أن يتأذى به أو خاف تُخْمَة . تأذى يعني من ثقل بطنه امتلاءً تتأذى . أو خاف تخمة يعني تغير المعدة برائحة كريهة فإنه يحرم عليه لأن هذا من أسباب المرض ، والأذى يجب على الإنسان أن يدفعه عن نفسه . في هذه الآية دليل على أن المستهزئ بالله وآياته ورسوله كافرا ، حتى وإن كان المستهزئ لم يقله على وجه الجِدّ . بل إن كفر المستهزئ أشد من كفر القائل على الجد ؛ لأن المستهزئ جمع بين الكفر والاستهزاء . لو قال : أنا أمزح ما أردت الكلام . نقول : ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۞ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٠) وحسنه ، والنسائي في الكبرى (٤/١٧٧) ، وابن ماجه (٣٣٤٩) عن المقدام ابن معدي كرب ، وصححه ابن حبان (٥٢٣٦) ، والحاكم (٤/١٢١) ، وحسنه الحافظ في الفتح (٩/ ٥٢٨) . وانظر جامع العلوم والحكم - بتحقيقنا ، طبع دار طيبة - حديث رقم (٤٧) .

(٢) البخاري (٤٧٢١) ، ومسلم (٢٧٩٤) .

إِيمَانِكُمْ﴾ إذا استهزأ الإنسان بشريعة من شرائع الله أو بشعيرة من الشعائر لا بالآيات كلها بل بهذه الآية المعينة : أيكفر ؟ الله يقول : وآياته ، وهذه آية . الجواب عن هذا أن يقال : إما أن المراد بالآيات هنا الجنس فتشمل الواحدة . أو يقال : من آمن ببعض وكفر ببعض فهو كافر بالجميع . ولهذا لا يمكن أن ينقسم الإسلام فيؤمَن ببعضه ويكفر ببعضه . بل من آمن ببعض وكفر ببعض فهو كافر بالجميع ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥] وقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١] فيقال : المستهزئ بآية واحدة أو بشعيرة واحدة مستهزئ بالجميع ، كما أن المكذب لرسول واحد مكذب للجميع لقول الله تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥] ومن المعلوم أنه لم يرسل أحد قبل نوح . ومع ذلك جعل الله تكذيبهم لجميع الرسل لأن من كذب رسولا فقد كذب الجميع .

أو بمن يقصر ثوبا ، فهل يعتبر كافرا ؟ التفصيل : إذا كان قصده بالاستهزاء به أنه استهزأ به لكونه فعل ذلك فهذا استهزأ بما فعل من الشريعة فيكفر . وأما إذا استهزأ به لشخصه فإنه لا يكفر لكنه على خطر أن يلقي الشيطان في قلبه كراهة هذا الشخص لكونه تَلَبَّس بهذه الشريعة . ويتبين الفرق بأنه لو فعل هذا غيره ممن يكون له الاحترام في قلبه لم يستهزأ به . يعني لو أن أحدًا ممن له الاحترام في قلبه قصر ثوبه أو أعفى لحيته ما استهزأ به . فالمهم أن هناك فرقا بين الاستهزاء بالشرع والاستهزاء بمن تَلَبَّس بالشرع ، الأول لا تفصيل فيه أنه كفر . والثاني فيه التفصيل . الواقع أننا نشرح هذا لأنه مهم وإلا كان مثال نمثل به ويمشي .

هذه الآية نزلت لسبب أو لغير سبب ؟ لسبب .

سؤال : من استهزأ بالله أو آياته أو رسوله ، هل تقبل توبته ؟ نعم . الدليل ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ والطائفة التي يعفى عنها هي الطائفة التي تابت وليس هذا من باب دخوله تحت المشيئة . يعني لو قال قائل : إن نعف عن طائفة نعذب طائفة ، يعني إن الأمر تحت المشيئة . نقول : لا ، إن نعف عن طائفة وذلك بالمنة عليها أن تتوب ، مثل قوله : ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة : ١١٨] أي يسر لهم التوبة ، هذه مثلها . ﴿إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ﴾ أي نيسر لهم أسباب العفو ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾. والدليل على أنه ليس المراد أن الأمر تبع المشيئة قوله : ﴿قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ والكفر لا يغفر إلا بتوبة .

هذه سبب نزولها أن رجلًا ظاهر من امرأته فقال لها : أنت عليَّ كظهر أمي . وكانوا في الجاهلية يرون الظهار طلاقا بائنًا . فلم تصبر المرأة . امرأة تزوجها وكبرت وجاءت بأولاد ثم يأتي ويطلقها طلاقا بائنًا بالظهار . فجاءت تشتكي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام تقول : إن زوجها ظاهر منها بعد أن أتت له بعيال وكبرت إلخ ، فأنزل الله هذه الآيات في بيان حكمها . وفي الآيات من الفوائد العقدية والفقهية ما لا يتسع المقام لذكره ، لكن فيها إحاطة سمع الله تعالى بكل شيء ، تقول عائشة : الحمد لله الذي وسع سَمعُه الأصوات ، لقد كنت في الحجرة - يعني في طرف الحجرة - وإن بعض حديثها ليخفى عليَّ ، والله جل وعلا سمعه من فوق سبع سموات[(١)] . وقد قال الله تعالى : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [الزخرف : ٨٠] بل أن الله تعالى يعلم ما توسوس به نفس الإنسان أي ما تحدثه به نفسه فيعرف ما تحدث به النفس ، ويعلم السر ويعلم الجهر ، ويسمع السر ويسمع الجهر .

القسم الثاني : سببي ، وهو ما تقدم نزوله سبب يقتضيه ، والسبب :

(١) أخرجه البخاري تعليقًا في كتاب التوحيد باب (٩) عن عائشة ، ووصله أحمد (٤٦/٦) ، والنسائي (٦/ ١٦٨) ، وابن ماجه (١٨٨) . وانظر بقية تخريجه في حاشية المسند (٢٢٨/٤٠ - الرسالة) .

أ- إما سؤال يجيب الله عنه مثل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩] .

ب- أو حادثة وقعت تحتاج إلى بيان وتحذير مثل : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ الآيتين نزلتا في رجل من المنافقين قال في غزوة تبوك في مجلس : ما رأينا مثل قرّائنا هؤلاء أرغب بطونًا ، ولا أكذب ألسنًا ، ولا أجبن عند اللقاء - يعني رسول الله ﷺ وأصحابه - فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، ونزل القرآن ، فجاء الرجل يعتذر إلى النبي ﷺ ، فيجيبه : ﴿ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة : ٦٥](١) .

ج- أو فعل واقع يحتاج إلى معرفة حكمه مثل : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] الآيات .

فوائد معرفة أسباب النزول :

معرفة أسباب النزول مهمة جدًا ؛ لأنها تؤدي إلى فوائد كثيرة ، منها :

١- بيان أن القرآن نزل من الله تعالى ، وذلك لأنَّ النبي ﷺ يُسأل عن الشيء فيتوقف عن الجواب أحيانًا حتى ينزل عليه الوحي ، أو يخفى عليه الأمر الواقع فينزل الوحي مبينًا له .

● **الشرح :** هذا من أهم ما يكون . معرفة سبب النزول تبين أن القرآن نزل من عند الله ، ووجه ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام يُسئل عن الشيء فيتوقف ثم ينزل الوحي . ولو كان القرآن من عند غير الله لكان الرسول يجيب مباشرة ، ما يتوقف . فلما كان يتوقف حتى تتنزل الآية مبينة حكم هذا السبب دل ذلك على أن القرآن نزل من عند الله تعالى . يقول إما أن الرسول عليه الصلاة والسلام يتوقف

---

(١) أخرجه الطبري (١٠/١٧٢) من طريق زيد بن أسلم عن ابن عمر ، وفيه انقطاع . وأخرجه (١٠/١٧٢) عن زيد بن أسلم مرسلًا ، و(١٠/١٧٣) عن محمد بن كعب وغيره ، وهو مرسل كذلك .

عن الجواب أحيانا ، أو يخفى عليه الأمر الواقع فينزل الوحي مبينا له .

مثال الأول : قوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] **. ففي صحيح البخاري**[1] **عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه : أن رجلًا من اليهود قال : يا أبا القاسم ، ما الروح ؟ فسكت - وفي لفظ : فأمسك - النبي ﷺ فلم يَرُدَّ عليهم شيئًا ، فعلمتُ أنه يُوحى إليه ، فقمت مقامي ، فلما نزل الوحي قال : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ الآية .**

● **الشرح :** ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ اليهود سألوا النبي ﷺ عن الروح ، وكذلك ورد أن قريشا سألوه عن الروح . والمراد بالروح هنا النفس التي في الإنسان ، ما هذه الروح ؟ إن كانت في البدن صار حيًّا متكلما سميعا بصيرا ماشيًا قاعدا ، وإذا خرجت من البدن صار جثة هامدة . ماهذه الروح ؟ وحقيقة أنها تبهر العقول . فقال الله عز وجل : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ يعني من أمر الله التي لا يمكن أن يُطلع عليها إلا عن طريق الوحي . ثم قال : ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وهذا كالتبكيت لهم كأنه قال : ما بقي عليكم من العلم إلا أن تعرفوا الروح ؟ ! وما أوتيتم من العلم إلا قليلا . يعني لو ما بقي عليكم إلا الروح ممكن أن تسألوا عنها ، لكن أكثر العلم فاتكم . ما أوتيتم من العلم إلا قليلا . وصدق الله عز وجل ، علمنا قليل محدود لا (بالشرع) ولا بالواقع ولا بما في السموات ولا بما في الأرض محدود ، وكيف نذهب نسأل عن الروح .

[**زيادة في الشرح**] : يسألونك عن الروح يعني الناس فيشمل اليهود ويشمل قريشا ؛ لأن قريشا أيضا سألوا النبي ﷺ عن الروح ، والمراد بالروح على القول الصحيح روح الإنسان فقال الله تعالى : ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ يعني من أمور ، فأمر هنا (جنس) . ﴿ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ جمعه أوامر أو أمور ؟ جمعه أمور .

---

(١) البخاري (٤٧٢١) ، ومسلم (٢٧٩٤) .

يعني من شأن الله عز وجل ﴿ وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعني هل لم يفتكم من العلم إلا أن تعرفوا الروح ؟ ما أكثر الأشياء التي لا تعرفونها .

هذا الأول ، ما هو ؟ أن النبي ﷺ يسئل عن الشيء فيتوقف حتى ينزل عليه الوحي .

ومثال الثاني : قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون : ٨]. ففي صحيح البخاري[1] أن زيد بن أرقم رضي الله عنه سمع عبد الله بن أُبي رأس المنافقين يقول ذلك ، يريد أنه الأعز ورسول الله ﷺ وأصحابه الأذل ، فأخبر زيدٌ عَمَّه بذلك ، فأخبر به النبي ﷺ ، فدعا النبيُّ ﷺ زيدًا فأخبره بما سمع ، ثم أرسل إلى عبد الله بن أُبَيّ وأصحابه فحلفوا ما قالوا ، فصدّقهم رسول الله ﷺ فأنزل الله تصديق زيدٍ في هذه الآية ، فاستبان الأمر لرسول الله ﷺ .

● **الشرح :** هذه الآية كما لا يخفى في سورة المنافقين ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ وهنا القائل عبد الله بن أبي لكنه زعيمهم ، فنسب القول إليهم جميعا ، ﴿ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ يريدون بالأعز أنفسهم ، وبالأذل رسول الله ﷺ وأصحابه . فأخبر زيد عمه بذلك ، فأخبر به النبي ﷺ ، فدعا النبي ﷺ زيدًا فأخبره بما سمع إلخ . في هذا الحديث ينبغي أن يُتخذ أصلا للتثبت فيما نُقل ، وإلا فمن المعلوم أن عم زيد بن أرقم من الصحابة وهم عدول ، لكن أراد النبي ﷺ أن يستثبت من الأمر . وهكذا ينبغي للإنسان فيما يُنقل إليه أن يتثبت فيه ، ثم أرسل النبي ﷺ إلى عبد الله ابن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا . وهكذا شأن المنافقين يحلفون على الكذب وهم يعلمون ؛ لأن شعارهم الكذب والمخادعة والنفاق ، فأنزل الله تصديق زيد في هذه الآية فاستبان الأمر لرسول الله ﷺ . وتأملوا الآية قال الله تعالى في الرد عليهم :

---

(١) البخاري (٤٩٠٠) ، ومسلم (٢٧٧٢) .

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولم يقل رسول الله هو الأعز ، بل قال : ﴿ لِلَّهِ الْعِزَّةُ ﴾ وتقديم الخبر يدل على الحصر ، ولو قال : فالله هو الأعز ، لأوهم ذلك أن يكون للمنافقين عزة ، وليس الأمر كذلك .

٢- بيان عناية اللّه تعالى برسول الله ﷺ في الدفاع عنه .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ [الفرقان : ٣٢] .

● **الشرح :** قال الذين كفروا : ﴿ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ كما نزلت الكتب السابقة ، التوراة نزلت جملة واحدة وكذلك الإنجيل . فرد الله عليهم بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي أنزلناه كذلك ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ ولهذا ينبغي للإنسان أن يقف على قوله : ﴿ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ ؛ لأن ﴿ نُثَبِّتُ ﴾ جملة مستأنفة تعليل للجملة المحذوفة ، والتقدير : أنزلناه كذلك لنثبت به فؤادك . لأنه لو نزل عليه القرآن جملة واحدة لم يحصل التثبيت كما يحصل فيما إذا كان يأتيه أرسالا . وهذا أمر مشاهد ، لو أن إنسانا وعظك بموعظة بليغة عظيمة جدا وتأثرت منها ولكن لم يعظك بعد ذلك ، لم يكن كما لو وعظك موعظة خفيفة ثم أعادها عليك مرة ثانية وثالثة ، فإن هذا التكرار يكون كسقي الشجرة الماء ، يكرر عليها . ولهذا يبين الله أن من الحكمة أن يثبت به قلب النبي ﷺ .

وكذلك آيات الإفك فإنها دفاع عن فِراش النبي ﷺ وتطهيرًا له عما دَنَّسَه به الأفاكون .

● **الشرح :** آيات الإفك لاشك أن لها سببا في نزولها ، وذلك بما جرى على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين تخلفت عن الجيش في إحدى الغزوات ووجدها صفوان بن المعطل رضي الله عنه وجدها نائمة ثم أناخ بعيره ولم يتكلم لها بأي كلمة احتراما لفراش النبي ﷺ . لكن وضع قدمه على ذراع البعير ثم ركبت أم المؤمنين عائشة ، ثم ذهب بها يقودها ولم يجعلها بين يديه ، بل كانت

من خلفه . فلما وصل إلى القوم فرح المنافقون بهذا ورأوا ذلك فرصة في الطعن على رسول الله ﷺ بتدنيس فراشه ، وحاشاه من ذلك ، وحصل في ذلك ما حصل والقصة معروفة في كتب التاريخ والسير وكتب الصحاح والمسانيد[١] .

الحكمة من ذلك هو الدفاع عن النبي ﷺ ولكن هذا لم ينفع المنافقين ولم ينفع الرافضة الذين ما زالوا إلى الآن يطعنون في عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وإن كانوا لا يتفوهون بالإفك لكنهم يطعنون بها في تصرفاتها التي يزعمون أنها طعن فيها . مع أنه إنما صدر عن اجتهاد منها ، والمجتهد إن أصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر[٢] .

٣- بيان عناية اللّٰه تعالى بعباده في تفريج كرباتهم وإزالة غمومهم.

مثال ذلك آية التيمم ، ففي صحيح البخاري[٣] أنه ضاع عِقْدٌ لعائشة رضي اللّٰه عنها وهي مع النبي ﷺ في بعض أسفاره ، فأقام النبي ﷺ لطلبه وأقام الناس على غير ماء ، فَشَكَوْا ذلك إلى أبي بكر - فذكر الحديث ، وفيه : فأنزل اللّٰه آية التيمم ، فتيمموا ، فقال أُسيد بن حُضير : ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر . والحديث في البخاري مطولًا..

● **الشرح :** هذا أيضا إذا عرفنا سبب نزول آية التيمم عرفنا عناية الله تعالى بعباده وتفريج كرباتهم وإزالة همومهم ؛ لأن سبب نزول آية التيمم هو أنه ضاع عقد لعائشة رضي الله عنها والعقد هو عبارة عن ما تلبسه المرأة في عنقها كما قال الشاعر : [الطويل]

وفي عنق الحسناء يُستحسن العِقْد

ضاع وبقي الناس على غير ماء ، فأغمهم ذلك الأمر وأهمهم ، فأنزل الله آية

---

(١) أخرجها البخاري (٣٢٧٥) ، ومسلم (٢٧٧٠) .

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٥٥) ، ومسلم (١٧١٦) عن عمرو بن العاص .

(٣) البخاري (٣٣٤) ، ومسلم (٣٦٧) .

التيمم فتيمموا بدلا عن الماء . فقال أسيد بن حضير : ما هي أول بركتكم يا آل أبي بكر . ما هي البركة هنا ؛ أن ضياع عقدها صار سببا لتفريج كربات الناس ونزول آية التيمم . وفي هذا التعبير دليل على أنه يجوز أن تقول لشخص : هذه من بركتك ، وما أشبه ذلك ، إذا كان سببا لخير ، فإن من الناس من يكون مباركا ويحصل على يديه من الخير والبركات ما لا يحصل على غيره . ومن الناس من لا يكون كذلك ، فإذا قلت لإنسان مثلا : هذه من بركاتك أنك حضرت وأحضرت فلانا ، أو هذه من بركاتك أنك أصلحت بين القوم أو ما أشبه هذا فإن ذلك لا بأس به .

أما إذا كان من بركات ميت ولم يكن هذا الشيء وقع في زمنه ، فهذا لا يجوز . لكن لو وقع في زمنه فلا بأس . ولهذا نحن نقول الآن : إن نزول آية التيمم من بركات عائشة وهي من آل أبي بكر . إذن فهمنا الآن أنك إذا قلت : هذه من بركة فلان وهو ميت ، أنه إن كان شيء حصل من بعد موته فهو حرام ولا يجوز بل قد يصل إلى حد الشرك الأكبر ، وإن كان في شيء حصل في حياته وكان سببا له فهذا لا بأس به .

كما لو أن شخصا أشار على إنسان فاجر أن يبني مكتبة لطلبة العلم ، واستمرت هذه المكتبة يطالع فيها طلاب العلم وينتفعون بها ومات الرجل ، فنقول : هذه من بركة فلان . ولا بأس بذلك ؛ لأنه حقا هو الذي كان سببا لوجودها .

٤- فَهم الآية على الوجه الصحيح .

مثال ذلك : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ [البقرة : ١٥٨] أي يسعى بينهما ، فإن ظاهر قوله : ﴿ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ ﴾ أن غاية أمر السعي بينهما أن يكون من قِسْم المباح . وفي صحيح البخاري[١] عن عاصم بن سليمان أنه قال :

(١) البخاري (٤٤٩٦) ، ومسلم (١٢٧٨) لكن بغير هذا السياق .

سألت أنس بن مالك رضي الله عنه عن الصفا والمروة، قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ إلى قوله: ﴿ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾. وبهذا عُرف أن نفي الجُناح ليس المراد به بيانَ أَصْلِ حكم السعي، وإنما المراد نفي تحرّجهم بإمساكهم عنه حيث كانوا يَرَوْن أنهما من أمر الجاهلية. أما أصل حكم السعي فقد تبين بقوله: ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾.

● **الشرح**: هذه الآية إذا قرأها الإنسان أول ما يقرأها ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ فإنه يظن أنه السعي ليس بأمر مشروع، غاية ما فيه أنه مباح، لكن إذا عرفنا سبب النزول عرفنا أن المراد بنفي الجناح نفي التحرج الذي كان يصيبهم عند السعي بينهما. كان السعي من أمر الجاهلية فتحرج منه المسلمون، وقالوا: عبادة جاهلية فلا نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ فتبين أن المراد بنفي الجناح ليس بيان حكم أصل السعي، وإنما المراد به نفي التحرج الذي وقع في نفوسهم.

أما حكم السعي فإنه يفهم من قوله ﴿ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ فإذا كان من شعائر الله فإن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب، فيكون أمرًا مطلوبا.

فهذه أربع فوائد لمعرفة أسباب النزول.

عموم اللفظ وخصوص السبب:

إذا نزلت الآية لسبب خاص ولفظُها عام كان حكمها شاملًا لسببها ولكل ما يتناوله لفظها؛ لأن القرآن نزل تشريعًا عامًا لجميع الأمة، فكانت العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص سببه.

● **الشرح**: نعم عموم اللفظ وخصوص السبب. إذا ورد نص من الكتاب أو

السنة على وجه العموم وكان السبب خاصًّا فهل يختص الحكم بهذا السبب أو يعمه وغيره؟ الجواب: هو الثاني. أي أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

ولكن ليعلم أن خصوص السبب إذا كان وَصْفًا أو معنى من أجله ورد العام فإنه يختص بهذا المعنى أو الوصف. مثال ذلك: قال النبي ﷺ: ليس من البر الصيام في السفر[1]. لو أخذنا هذا اللفظ على عمومه لكان الصوم في السفر مخالفًا للبر سواء شق أم لم يشق، لكن سبب هذا الحديث أن النبي ﷺ رأى زحاما ورجلا قد ظُلل عليه والناس حوله ينظرون ماذا يحصل له، فقال: ما هذا؟ قالوا: صائم. قال: ليس من البر الصيام في السفر. فهذا العموم يتنزل على من كانت حاله مثل حال هذا الرجل، بدليل أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يصوم في السفر. وعليه خصوص السبب إما أن يكون خصوصا عينيا أو خصوصا وَصْفيا. فإن كان عينيا فإنه لا يُخَصَّص به العموم قطعا، وإن كان وصفيا فإنه يُخصص به العموم؛ لأن حقيقة الوصف أنه عام، إذا قلنا: ليس من البر صيام من شق عليه الصوم. هذا عام أم خاص؟ عام لكنه خاص بحال معينة، وهي حال من يشق عليه الصوم، فانتبهوا لهذه النقطة لأنها مهمة إذْ قد يقول قائل: أنتم قعدتم قاعدة أن العبرة بعموم اللفظ وهذا اللفظ عام «ليس من البر الصيام في السفر» مطلقا؟ فيقال: إن النبي ﷺ ذكره على حال مخصوصة، وهي حال من شق عليه الصوم.

مثال ذلك: آيات اللعان، وهي قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [النور: ٦ - ٩]. **ففي صحيح البخاري[2] من حديث ابن عباس رضي الله عنهما: أن هلال**

(١) البخاري (٤٧٤٧).

(٢) البخاري (١٩٤٦)، ومسلم (١١١٥) عن جابر.

ابن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشَريك بن سَحْماء، فقال النبي ﷺ: «البينة أو حَدٌّ في ظهرك». فقال هلال: والذي بعثك بالحق، إني لصادق، فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزل جبريل وأُنزل عليه: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ فقرأ حتى بلغ: ﴿إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ الحديث.

فهذه الآيات نزلت بسبب قذف هلال بن أمية لامرأته، لكن حكمها شامل له ولغيره، بدليل ما رواه البخاري[1] من حديث سهل بن سعد رضي اللّه عنه: أن عويمرًا العَجْلاني جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، رجل وجد مع امرأته رجلًا أيقتله فتقتلونه أم كيف يصنع؟ فقال النبي ﷺ: «قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحبتك». فأمرهما رسول الله ﷺ بالملاعنة بما سمى اللّه في كتابه فلاعنها. الحديث.

فجعل النبي ﷺ حكم هذه الآيات شاملًا لهلال بن أمية وغيره.

● **الشرح:** قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ يعني بالزنا. يقول الرجل: إن امرأته زنت. فيقال: أقم البينة. فإن أقام البينة أُقيم عليها الحد رجما أو جلدا؟ إن كان قد جامعها فهو رجم وإن لم يجامعها فجلد، إذا أقام البينة فقد عُلم الحكم، إذا لم يقم البينة فإن أقرت ثبت الحكم بإقرارها وحُدّت، وإن أنكرت جرى اللعان. ومن هذه النقطة يختلف قذف المرأة الزوجة وقذف غيرها، لأن قذف غيرها إذا وصل إلى هذه النقطة جُلد القاذف ثمانين جلدة، ولو كان من أعدل الناس، ولو كان المتهم أهلا للزنا، إلا أننا نشترط في هذا أن يكون المتهم عفيفا، فإن كان غير عفيف فإن القاذف يُعَزَّر ولا يحد[2]. في هذه النقطة يختلف الزوج وغيره نقول للزوج: لم تقم البينة ولم تقر المرأة، فعليك اللعان. كيف اللعان؟ اللعان أن يأتي بهما القاضي ويقول للزوج: لاعن، تقول: أشهد بالله أن

(١) البخاري (٤٧٤٥)، ومسلم (١٤٩٢).

(٢) المحرر (٢/٩٧)، مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٨/٣٨٢).

زوجتي هذه قد زنت . أربع مرات . ويقول في الخامسة : وأن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم يقال لها : لاعني أنتِ ، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، وفي الخامسة بأن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . هذا هو اللعان . وإذا تم وجب التفريق بين الرجل والمرأة وحرمت عليه تحريما مؤبدًا . إذن ما سبب نزول آية اللعان ؟ أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي ﷺ بشريك بن سحماء ، فجعل النبي ﷺ حكم الآية عاما بدليل أنه أجراها مع عُويمر العَجْلاني . وفي قوله : « رجل وجد مع امرأته رجلا فيقتله أتقتلونه أم كيف يصنع » نقول : لو قتل الزوج هذا الرجل وهو على امرأته فإنه لا يقتل لكن قوله : « فتقتلونه » يعني إذا لم يقم بينة أما إذا أقام بينة فإنه لا يُقتل . يعني إنسان لما دخل البيت – والعياذ بالله – وجد رجلا على زوجته يفعل بها ، فأخذ السيف فقد الرجل نصفين . هنا قتل الرجل ، هل يُقتل هذا الزوج أو لا ؟ نقول : لا يُقتل إذا ثبت ذلك ببينة ، فإن لم يثبت فهل يقتل ؟ الجواب : نعم يقتل . وعلى هذا ينزل الحديث . فإن سعد بن عبادة لما نزل قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ قال : يا رسول الله كيف يكون هذا ، أجد لُكَع ابن لكع على زوجتي وأذهب لأجيء بأربعة شهداء ، ما يصير . فقال النبي ﷺ : أتعجبون من غَيْرَة سعد ، والله إني لأغير من سعد ، والله أغير مني[1] .

فأقره النبي عليه الصلاة والسلام وبَيَّنَ أن هذا غَيْرة . فإذا كانت غيرة سعد تقتضي أن نضربهم بالسيف غير مُصَفَّح – يعني ليس مع صفحته بل مع حده ، فكذلك أنا .

وقد وقعت هذه المسألة في عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فادعى أولياء المقتول على القاتل ، فدافع القاتل على نفسه وقال : يا أمير المؤمنين إن

(١) البخاري (٥٦٢٤) عن المغيرة .

كان أحدٌ بين فخذي امرأته فقد قتلته . فثبت ذلك ، فأخذ عمر سيفه – أي سيف الرجل – وهزه وقال : إن عادوا فعُدْ[١] .

ولكن إذا لم يكن بينة فهل يُقتل هذا الزوج الذي ادعى أن الرجل يزني بامرأته وقتله حين زنا بها ؟ قلنا : نعم يُقتل . وقال شيخ الإسلام رحمه الله : لا يقتل ؛ لأن الغالب أن مثل هذه الحال لا تمكن إقامة البينة عليها إذْ أن الزاني والعياذ بالله لن يزني بامرأة الرجل عَلَنًا ، وإنما يزني بها في اختفاء فتتعذر إقامة البينة . قال شيخ الإسلام رحمه الله : يجب النظر إلى حال الرجل ، إن كان من أهل الخير والصلاح وصاحبه المقتول من أهل الشر والفساد فيقبل قوله ، وإلا فلا يقبل[٢] . وهذا القول هو الراجح ؛ لأن الحكم بالقرائن قد ثبت في الشرائع السابقة ، وفي شريعتنا أيضا .

* * *

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور كما في المغني (٨/٢١٦) ، والكافي (٤/٢٤٦) ، وانظر مجموع الفتاوى (٣٤/ ١٦٩) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣٤/١٦٨) .

٤- المكي والمدني

نزل القرآن على النبي ﷺ مُفرَّقًا في خلال ثلاث وعشرين سنة، قَضَى رسول الله ﷺ أكثرها بمكة. قال الله تعالى: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، ولذلك قَسَّم العلماء رحمهم الله تعالى القرآن إلى قسمين: مكي، ومدني:

فالمكي: ما نزل على النبي ﷺ قبل هجرته إلى المدينة.

والمدني: ما نزل على النبي ﷺ بعد هجرته إلى المدينة.

وعلى هذا فقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] من القسم المدني، وإن كانت قد نزلت على النبي ﷺ في حجة الوداع بعرفة. ففي صحيح البخاري[١] عن عمر رضي اللّه عنه أنه قال: قد عرفنا ذلك اليومَ والمكانَ الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، نزلت وهو قائم بعرفة يوم جمعة.

● **الشرح:** القرآن الكريم ينقسم إلى مكي ومدني، هذا هو الذي عليه الجمهور. ولم يعبأ هؤلاء القائلون بالمكان المعين؛ لأن ذلك يشق، فإن هناك آيات كثيرة نزلت على النبي ﷺ في أسفاره، فلو قلنا: إن الآية تكون بحسب المكان الذي نزلت فيه على الرسول عليه الصلاة والسلام مِنْ بَرٍّ أو مدينة لشَقَّ ذلك، ولكن العلماء قالوا: نقسمه إلى قسمين: مكي ومدني. فما كان قبل الهجرة فهو مكي، وما كان بعدها فهو مدني. وهذا التفصيل هو الصحيح وهو الراجح، وبناء على ذلك نقول: إن قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ من أقسام المدني مع أ ـه نزل بعرفة، وعرفة تابعة لمكة. وهذا القول هو الراجح.

ويتميز القسم المكي عن المدني مِن حيثُ الأسلوب والموضوع.

---

(١) البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧/٥).

أ- أما من حيث الأسلوب فهو :

١- الغالب في المكي قوة الأسلوب ، وشدة الخطاب ؛ لأن غالب المخاطبين مُعْرِضون مستكبرون ، ولا يليق بهم إلا ذلك . اقرأ سورتي (المدثر والقمر) .

أما المدني فالغالب في أسلوبه اللين ، وسهولة الخطاب ؛ لأن غالب المخاطبين مقبلون منقادون . اقرأ سورة المائدة .

٢- الغالب في المكي قِصَر الآيات وقوة المحاجَّة ؛ لأن غالب المخاطبين معاندون مشاقُّون فخوطبوا بما تقتضيه حالهم . اقرأ سورة « الطور » .

أما المدني : فالغالب فيه طول الآيات وذكر الأحكام مرسلة بدون مُحاجَّة ؛ لأن حالهم تقتضي ذلك . اقرأ آية الدَّين في « سورة البقرة » . .

● **الشرح :** المكي والمدني يتميز بعضهما عن بعض في هذا لمعنيين ؛ الأول : الغالب في المكي قوة الأسلوب وشدة التعبير وقوة المحاجة ؛ لأنه يخاطب من ؟ يخاطب قوما مستكبرين ، يحتاجون إلى شدة في الخطاب ، وغلظة في المقال ، ومحاجة ، لأن هذا هو اللائق بحالهم ولذلك تجد البلاغة في الحقيقة أن يأتي الكلام مطابقا لمقتضى الحال . ومقتضى الحال بالنسبة للمكي أن يكون قويا شديدا فيه المحاجة والمناظرة إلخ .

المدني الغالب في أسلوبه اللين وسهولة الخطاب . لكن أحالنا المؤلف إلى سورتي المدثر والقمر . المدثر ما الذي فيها من شدة الأسلوب ؟ ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ * فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ * عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ * ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر : ٢٥] ما العقوبة ؟ ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ * عَلَيْهَا

تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾ [المدثر : ٣٠] هذا كلام عظيم جدا قوي في التهديد والإنذار ، أما القمر فكذلك أيضا إذا تأملتها وجدتها في غاية القوة قوة الأسلوب ، فانظر إلى قصة نوح ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴾ وفي عاد ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ ﴾ وامش مع هذه القصص والعقوبات العظيمة إلى قول الله تبارك وتعالى في آخر الأمم في قوم فرعون ، ماذا قال : ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَائِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ * أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ ﴾ والجواب على قولهم هذا ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ ثم ذكر أن المجرمين يسحبون في النار على وجوههم ويقال لهم : ذوقوا مس سقر ، لأنه يخاطب قوم عتاة مستكبرين من يحتاجون إلى مثل هذا الأسلوب الغليظ . هذا بالنسبة للأسلوب .

الغالب في المكي قصر الآيات وقوة المحاجة ؛ لأن غالب المخاطبين معاندون مشاقون فخوطبوا بما تقتضيه حالهم .

أما المدني فبالعكس ، فالغالب فيه طول الآيات وذكر الأحكام مرسلة بدون محاجة ؛ لأن حالهم مقتضي ذلك ، اقرأ آية الدين في سورة البقرة تجد أنها طويلة سهلة الأسلوب ليس فيها محاجة ولا مناظرة ، وكذلك في سورة المائدة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ﴾ .

ب- وأما من حيث الموضوع فهو :

١- الغالب في المكي تقرير التوحيد والعقيدة السليمة ، خصوصًا ما يتعلق بتوحيد الألوهية والإيمان بالبعث ؛ لأن غالب المخاطبين ينكرون ذلك .

أما المدني فالغالب فيه تفصيل العبادات والمعاملات ؛ لأن المخاطبين قد تقرر في نفوسهم التوحيد والعقيدة السليمة فهم في حاجة لتفصيل العبادات

والمعاملات.

● **الشرح** : هذا من حيث الموضوع : الغالب في المكي هو تقرير التوحيد ، توحيد الله عز وجل والعقيدة ، لا سيما فيما يتعلق بتوحيد الألوهية والإيمان باليوم الآخر لأن أكثرهم ينكر هذا ، يقولون في الرسول عليه الصلاة والسلام أو يقولون في حقه ﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴾ ، ويقولون في البعث ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ فهم ينكرون هذا وهذا فلذلك جاءت آيات السور المكية مقررة لهذا المعنى ؛ لأن الحال تقتضي ذلك .

أما المدني فبالعكس ، فيه تفصيل العبادات والمعاملات وآداب الجلوس وآداب دخول البيوت وما أشبه ذلك ؛ لأن الناس قد استقر في قلوبهم التوحيد والعقيدة السليمة ولم يبق عليهم إلا التفصيل في العبادات والمعاملات .

٢- الإفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه ، والمنافقين وأحوالهم في القسم المدني لاقتضاء الحال ذلك ، حيث شُرع الجهاد وظهر النفاق ، بخلاف القسم المكي .

● **الشرح** : نعم الإفاضة في ذكر الجهاد وأحكامه ولم تكن الإفاضة [في المكي] ومعنى الإفاضة يعني الكثرة والتطويل في ذكر الجهاد وأحكامه ، والناس في مكة لا يحتاجون إلى هذا لأنهم لم يؤمروا بالجهاد ولا يستطيعون الجهاد أيضا ، لكن في المدينة أومروا بالجهاد وكانوا يستطيعون الجهاد . فلهذا تجد الآيات مفيضة ومكثرة في الكلام على الجهاد حثًا عليه وترغيبا فيه وبيانا لأحكامه ، بخلاف السور المكية . كذلك المنافقون ، لا تكاد تجد في الآيات المكية ذكرًا للمنافقين ، ولكن يوجد مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴾ هذا في سورة العنكبوت وهي مكية ، لكن الإفاضة في ذكر المنافقين والتحدث عنهم هذا لا يوجد إلا في السور المدنية ، لماذا ؟ لأن النفاق لم يبرز إلا في المدينة . متى برز ؟ برز بعد غزوة بدر حين انتصر المسلمون ورأى هؤلاء المنافقون أنهم

مخذولون ، فصاروا يظهرون أنهم مؤمنون وهم منافقون ﴿ إِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] .

فوائد معرفة المدني والمكي:

معرفة المكي والمدني نوع من أنواع علوم القرآن المهمة ، وذلك لأن فيها فوائد ، منها :

● **الشرح :** وهذا هو الخلاصة والنتيجة لهذا البحث – الفوائد – يعني إذا أتعبنا أفكارنا وأضعنا أوقاتنا فهل لذلك من فائدة ؟ الجواب : نعم .

١- ظهور بلاغة القرآن في أعلى مراتبها حيث يخاطب كل قوم بما تقتضيه حالهم من قوة وشدة أو لين وسهولة.

● **الشرح :** وهذا من أفيد الفوائد : أن نعرف أن القرآن أبلغ ما يكون في الكلام ؛ لأنه يخاطب كل قوم بما تقتضيه حالهم ، ويتفرع على هذه الفائدة أننا نحن كذلك نسلك مسلك القرآن ، فنخاطب كل قوم بما تقتضيه حالهم . لأنا نعلم أن هذا هو البلاغة ، وهذا هو الأفضل ، فلا يستوي الجاهل جهلا بسيطا الذي يأتي بأدنى سبب والعالم المعاند . الثاني يعامل بشدة والأول يعامل برخاء ولين .

٢- ظهور حكمة التشريع في أسمى غاياته ، حيث يتدرج شيئًا فشيئًا بحسب الأهم على ما تقتضيه حال المخاطبين واستعدادهم للقبول والتنفيذ.

● **الشرح :** هذا أيضا من الفوائد : أن نعرف حكمة التشريع ، من المعلوم أنه لو جاء الشرع دفعة واحدة والناس بعيدون عن الشرع فإنه يصعب لكن نجد أنه يأتي شيئا فشيئا ، فمثلا في الآيات المكية لم يفرض الصيام ولم تفرض الزكاة على وجه التفصيل ولم يفرض الحج . وفي الآيات المدنية فُرض هذا وبُيِّن ، فهذا أيضا من الفوائد . ويترتب على هذه الفائدة أيضا ظهور حكمة التشريع .

٣- تربية الدعاة إلى الله تعالى وتوجيههم إلى أن يتبعوا ما سلكه القرآن في الأسلوب والموضوع من حيث المخاطبين ، بحيث يُبدأ بالأهم فالأهم ،

وتستعمل الشدة في موضعها والسهولة في موضعها.

● **الشرح:** وهذا المعنى أشرنا إليه قبل قليل ؛ أنه ينبغي أن يتخذ من هذا المنهج القرآني منهجا في الدعوة إلى الله ، بحيث نتدرج مع الإنسان شيئا فشيئا ، نبدأ بماذا ؟ بالأهم فالأهم . فإذا رأيناه مفرطا في الصلاة ومفرطا في الصيام فبأيهما نبدأ ؟ بالصلاة لأنها أهم ، إذا رأيناه يفرط في صلاة الفريضة ويتقن صلاة النافلة كما يوجد في كثير من الناس الآن ، تجده في صلاة النافلة يطمئن ويكثر من التسبيح والدعاء وفي الفريضة لا يطمئن . فإننا ننصحه ، ونبدأ بالفريضة لأنها أهم . فمن حيث الأسلوب والموضوع ينبغي للإنسان أن يراعي ذلك حتى يكون موافقا لما جاء في القرآن الكريم من التربية .

٤- تمييز الناسخ من المنسوخ فيما لو وردت آيتان مكية ومدنية يتحقق فيهما شروط النسخ، فإن المدنية ناسخة للمكية لتأخر المدنية عنها.

● **الشرح:** هذا أيضا واضح إذا عرفنا المكي وهو ما نزل قبل الهجرة والمدني وهو ما نزل بعدها ، ووجدنا (آيتين متعارضتين) لا يمكن الجمع بينهما فماذا نصنع ؟ نعمل بالنسخ ، ونقول : الآيات المدنية ناسخة للآيات المكية .

الحكمة من نزول القرآن مُفَرَّقًا :

من تقسيم القرآن إلى مكي ومدني يتبين أنه نزل على النبي ﷺ مُفرَّقًا، ولنزوله على هذا الوجه حِكَم كثيرة منها:

١- تثبيت قلب النبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَٰلِكَ﴾ يعني كذلك نزلناه مُفرقًا ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا * وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٢- ٣٣].

● **الشرح:** هذا من الحكم في نزول القرآن مفرقا . أولا : تثبيت قلب النبي عليه الصلاة والسلام . كيف ذلك ؟ لو نزل جملة واحدة حصلت الموعظة في أول

نزولها لاشك ، لكن قد ينسى الإنسان قد يغفل ، فإذا نزل مرة ثانية ازداد ثباتا . ولهذا نجد الإنسان عند المصائب الكبيرة ينسى ما نزل من القرآن ، ولا يخفاكم ما وقع حين تُوفي الرسول ﷺ من إنكار عمر لوفاته وتهديده من يقول إنه توفي ، حتى جاء أبو بكر وقرأ الآيات التي تدل على أنه سيموت فكأنها نزلت في ذلك اليوم(١) . لأنه لشدة المصيبة ذهلوا عما جاء في القرآن من أن النبي ﷺ بشر يموت كما يموت الناس ، ثم استدل المؤلف لهذا بقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ﴾ يعني كما نزلت في الكتب السابقة ، قال الله تعالى مجيبا بهذا الإيراد : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي أنزلناه كذلك مفرقا ﴿ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ هذه فائدة عظيمة ﴿ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ أي ولأجل أن يكون مرتلا .

والترتيل معناه أنه يُقرأ شيئا فشيئا . وثالثا : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴾ لأن الشُّبَه ترد على النبي ﷺ لا في آن واحد ، بل في أوقات مختلفة . فإذا وردت الشبه عليه نزل القرآن في الحال . وهذه من الفوائد الكبيرة أيضا .

٢- أن يسهل على الناس حفظه وفهمه والعمل به حيث يُقرأ عليهم شيئًا فشيئًا لقوله تعالى : ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] .

● **الشرح :** هذا أيضا من الفوائد أنه إذا نزل مفرقا سهل حفظه والعمل به ، لكن لو نزل جملة واحدة يصعب حفظه ، وكذلك العمل به ، لأنه يلزم من نزوله جملة واحدة أن تثبت جميع أحكام الشريعة جملة واحدة ، وهذا فيه صعوبة . فينزل مفرقا لأجل أن يتروض الناس على العمل به فيتلقونه شيئا فشيئا .

وهذا ربما يفيد من يحفظ القرآن . يعني من يريد أن يحفظ القرآن عن ظهر قلب نقول : الأفضل ألا تقرأه جملة واحدة ، بل تفرقه . مثلا تقرأ خمسة أسطر

---

(١) تقدم (ص ٢٤) .

حتى تحفظها ، ثم خمسة أخرى ، ثم خمسة أخرى . فإذا أتممت جملا صالحة للإعادة أعدتها كلها .

٣- تنشيط الهمم لقبول ما نزل من القرآن وتنفيذه ، حيث يتشوق الناس بلَهَف وشَوْق إلى نزول الآية ، لا سيما عند اشتداد الحاجة إليها ، كما في آيات الإفك واللعان .

● **الشرح :** هذه أيضا تنشيط الهمم لقبول ما نزل ؛ لأنه إذا تأخر النزول صار الناس يتشوفون وينتظرون نزول الآية بفارغ الصبر ، لا سيما عند اشتداد الحاجة كما في آية اللعان والإفك ، وكذلك آية الظهار وغيرها مما هو معروف . ولاشك أن هذه فائدة عظيمة لأنه إذا نزل القرآن والناس في شدة اشتياق إليه صار هذا أدعى لقبوله والعمل به والراحة فيه .

٤- التدرج في التشريع حتى يصل إلى درجة الكمال ، كما في آيات الخمر الذي نشأ الناس عليه وألفوه وكان من الصعب عليهم أن يُجابَهُوا بالمنع منه منعًا باتًا ، فنزل في شأنه أولًا قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ﴾ [البقرة : ٢١٩] ، فكان في هذه الآية تهيئةٌ للنفوس لقبول تحريمه ، حيث إن العقل يقتضي أن لا يُمَارِس شيئًا إثمه أكبر من نفعه .

ثم نزل ثانيًا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : ٤٣] ، فكان في هذه الآية تمرين على تركه في بعض الأوقات وهي أوقات الصلوات ، ثم نزل ثالثًا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى

رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [المائدة : ٩٠ - ٩٢] ، فكان في هذه الآيات المنع من الخمر منعًا باتا في جميع الأوقات بعد أن هُيئت النفوس ، ثم مُرنت على المنع منه في بعض الأوقات .

● **الشرح :** هذا أيضا من فوائد نزول القرآن مفرقا : التدرج في التشريع . وأظهر مثال على ذلك الخمر ، ومن ذلك أيضا الصلوات ، ومن ذلك الصيام . فالصلوات أول ما فُرضت الصلاة كم ؟ ركعتين ، ثم زيد في صلاة الحضر(١) ، ومن المعلوم أن الركعتين أخف من الأربع .

كذلك أيضا في الصيام أول ما نزل فرضه أن الإنسان مخير إن شاء صام وإن شاء أطعم ، والصيام أفضل . ثم بعد ذلك تعين الصيام ؛ لأنه إذا قيل للإنسان : إن شئت صم وإن شئت فأفطر والصوم أفضل ، تهيئت نفسه للصيام وصار إيجابه بعد أن تهيئت النفس من أبلغ الحكمة . المثال الذي معنا الآن هو الخمر . فأولا لأهمية الموضوع نبحث ما هو الخمر ؟ الخمر كل ما غطى العقل على وجه اللذة والطرب . ولهذا قيل : الخمر من الخمار الذي تغطي به المرأة وجهها ورأسها . فهو - أي الخمر - يغطي العقل على وجه اللذة والطرب ، لأن تغطية العقل قد تكون لذلك وقد تكون لغير هذا ، ربما يدوخ الإنسان من شيء شربه أو شمه أو ما أشبه ذلك ، فهل هذا سَكَر ؟ لا ، لأنه لا يطرب ولا يتلذذ ، بخلاف الخمر .

الميسر هو القمار ، وهو المغالبة على عِوَض وما أشبهها من المعاملات .

وضابطها كل معاملة يكون الإنسان فيها إما غانما وإما غارما فهي ميسر ، وسميت ميسرًا ليُسْر الربح فيها ؛ لأن الإنسان في القمار - نسأل الله العافية - ربما يربح في ليلة واحدة ملايين الملايين .

يقول : التدرج فيه . أولًا أنزل الله فيه هذه الآية ؛ وهي قوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ

---

(١) متفق عليه : البخاري (٣٢٦) ، ومسلم (٦٨٥) عن عائشة .

نَفْعِهِمَا ﴾ إثم كبير هذا في الكيفية ، منافع للناس في الكمية . لأن المنافع جمع منفعة وهي صيغة منتهى الجموع ، فتكون منافع كثيرة . لكن الإثم أكبر من النفع . إثمهما أكبر من نفعهما . يعني أشد من النفع . وانظر إلى قوله منافع وقوله نفع . حيث جمع في الأول وأفرد في الثاني ؛ لأن الثاني مصدر والمصدر يكون مفردًا دائما ، ولهذا قال ابن مالك :

ونعتوا بمصدر كثيرا فالتزموا الإفراد والتذكيرا[1]

وأيضا هذه المنافع كلها لو اجتمعت فهي نفع واحد ، وإن ظن الظان أنها منافع كثيرة فهي نفع واحد ؛ لأن نفعه يعود على مسائل دنيوية فقط .

هذه الآية إذا قرأها العاقل هل يُقدم على شرب الخمر ؟ لا ، لماذا ؟ لأن العاقل لا يقدم على شيء إثمه أكبر من نفعه ، فتتهيء النفوس الآن للمنع .

يقول :

ثم نزل ثانيا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ كم أوقات الصلاة ؟ خمسة . أوقات متعينة لابد أن تصلي في هذه الأوقات ، فإذا قيل : لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى . امتنع الناس عن شرب المسكر لكم وقت ؟ خمسة أوقات ؛ لأنهم إذا سكروا جاء وقت الصلاة ينهى عن الصلاة فسوف يمتنعون . إذن نهوا أن يقربوا الصلاة وهم سكارى في أوقات خمسة ، وهذا لاشك أنه تمرين للنفوس على الترك . ثم نزل ثالثا قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ ...﴾ إلخ فَصَدَّر الله هذه الآية بهذا النداء للتنبيه على أهمية ما سيذكر بَعْدُ ، ثم وجه النداء إلى من ؟ إلى الذين آمنوا ، الذين يقتضي إيمانهم الامتثال والطاعة لأمر الله عز وجل . ولهذا يذكر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : إذا سمعت الله يقول ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فأرعها سمعك ، فإما خير تُؤمر به ، وإما شر تُنهى عنه[2] . ثم ذكر عز وجل العلة

(١) الألفية (٥١٣) – طبع مكتبة السنة .

(٢) سنن سعيد بن منصور (٥٠) (٨٤٨) .

قبل الحكم ؛ لأن ذِكْر العلة قبل الحكم يجعل النفس تقبل الحكم عن اقتناع وعقل . فقال : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ يترتب عليها ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ ثم ذكر الثمرة في اجتنابه فقال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ . . إلخ ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ ﴾ . قلنا : الخمر ما غطى العقل على وجه اللذة والطرب ، الميسر هو القمار وهي كل معاملة يكون فيها الإنسان إما غانما وإما غارما ، الأنصاب : هي الأوثان جمع نَصَب كأسباب جمع سبب[(١)] .

﴿ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ رجس بمعنى نَجِس . والنجس ينقسم إلى قسمين : نجس نجاسة حسية ، كما في حديث أبي طلحة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمره أن ينادي إن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر الأهلية فإنها رجس[(٢)] . هذا نجاسة حسية أو معنوية ؟ حسية . وكما في حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قضى حاجته فآتاه عبد الله بن مسعود بحجرين وروثة . فأخذ الحجرين وألقى الروثة وقال : إنها رجس . أو قال : رجس[(٣)] . هذه نجاسة حسية . أما النجاسة المعنوية فمثل قول الله تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ هذه نجاسة حسية أو معنوية ؟ معنوية ؛ لأن الأوثان حجر . أو ما أشبه ذلك من الأشياء طاهرة . ومثل قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ أي نجاسة معنوية : هذه الآية ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ ﴾ معنوي أو حسي ؟ معنويٌّ وليس بحسي . وجهه أن كلمة رجس خبر عن كل ما سبق : الخمر والميسر والأنصاب والأزلام . فلا يصلح أن نقول : هي بالنسبة لواحد منها رجس حسي ، وبالنسبة للآخر رجس معنوي ، إلا بدليل . ثم إن الرجس هنا لم يُطلق بل قُيِّد ، فقيل فيه : ﴿ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ فهو رجس عملي ،

---

(١) في الصحاح : النَّصْب - أي بفتح فسكون : ما نُصب فعُبد من دون الله تعالى ، كالنُّصب بالضم فسكون ، وقد يحرك ، وزاد في نسخة منه : مثل عُسْر وعُسُر . تاج العروس (١/٤٣٥/٢) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٢٤) ، ومسلم (١٩٤٠) عن أنس. ورواية مسلم هي المصرحة بأن المنادي أبو طلحة.

(٣) أخرجه ابن ماجه (٣١٤) وغيره ، وأصله في البخاري (١٥٦) بلفظ : « ركس » .

وليس رجسا حسيا . وبهذا التقرير تبين أن من استدل بهذه الآية على نجاسة الخمر نجاسة حسية فقد أبعد النُّجْعة وخالف ظاهر الكلام . وقوله : ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ اجتنبوا ماذا ؟ أي كل ما ذُكر ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ ذَكَرَ اللهُ عز وجل أن اثنين من هذه الأربعة توجب العداوة والبغضاء وهي الخمر والميسر . وسكت عن الأنصاب التي هي الأوثان وعن الأزلام التي كانوا يستقسمون بها ، سكت عنها لأنها لا توجب العداوة والبغضاء إذ أن الأنصاب وهي الأصنام يتضرر بها مَنْ عبدها ولا توجب النزاع بين الناس ، وليس هناك عقد حتى يقال إنها توجب العداوة بين المتعاقدين .

وكذلك الأزلام الأزلام هي عبارة عن أقداح جمع قِدْح وهو ما يكون في السهم ، يستقسم بها العرب إذا هَمَّ الإنسان بأمر وتردد فيه استقسم بالأزلام ؛ ووضعها في كيس أحد الأقداح افعل ، والثاني لا تفعل ، والثالث ليس فيه شيء . إن خرج « افعل » فعل وخرج وقال : هذا خير . وإن خرج « لا تفعل » أحجم وترك وقال : هذا شر ، وإن خرج الذي ليس فيه افعل ولا تفعل أعاد الاستقسام مرة أخرى . أبدل الله الأمة الإسلامية عن هذا الاستقسام بصلاة الاستخارة التي هي عبادة ولجوء إلى الله عز وجل فيصلي الإنسان ركعتين ثم يدعو بدعاء الاستخارة

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ لأن من ابتلي بالسكر والعياذ بالله غفل عن ذكر الله ، وصار لا يصحو من فعل إلا تلبس بالآخر لأنه يربطه ﴿ وَعَنِ الصَّلَاةِ ﴾ وعطفها هنا من باب عطف الخاص على العام . وإنما خصها بالذكر لأهميتها ، وإلا فإنها لاشك أنها من ذكر الله عز وجل .

﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ بمعنى فبعد هذا البيان هل تنتهون أو لا ؟ فهو استفهام بمعنى الأمر أي فانتهوا ، لكنه أتى بصيغ الاستفهام لتوبيخ من لا ينتهي عن ذلك مع

سماعه لأضراره .

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا ﴾ واحذروا ماذا ؟ مخالفتهما ﴿ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ وأنه لا حساب عليه مِن قِبلكم ، لأنه بَلَّغ . عليه الصلاة والسلام .

في هذه الآية فوائد كثيرة يهمنا منها ما يوجد الآن من الأطياب في الأسواق التي يوجد فيها مادة الإثيل المسكر . هل تدخل في هذه الآية أو لا تدخل ؟ نقول : تدخل ؛ لأن النبي ﷺ وصف الخمر بأنه ما أسكر ، فقال : « كل مسكر خمر »[1] ، وهذه الأطياب بعضها يسكر . فهل قوله ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ أمر باجتناب السَّكَر من هذه الأطياب أو أنه أمر مطلق ؟ الاحتياط أن نجعله أمرًا مطلقًا ، وأن نجتنب هذه الأطياب التي تُسْكِر . سواء كان ذلك بالبيع أو الشراء أو التطيب بها أو غير ذلك ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ ، ويحتمل أن يقال إن قوله ﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ أي اجتنبوا شربه بدليل قوله ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ﴾ وهذا لا يكون بالبيع والشراء وما أشبه ذلك . ولهذا نرى أن الورع في اجتناب هذه الأطياب ولا سيما التي يركز الناس فيها على الإسكار أو على السَّكَر بها يجتنبها لا يتطيب بها لكن إذا دعت الحاجة إلى استعمالها لتعقيم الجروح أو ما أشبه ذلك فلا بأس .

ترتيب القرآن :

ترتيب القرآن : تلاوته تاليًا بعضُه بعضًا حسبما هو مكتوب في المصاحف ومحفوظ في الصدور .

وهو ثلاثة أنواع :

النوع الأول : ترتيب الكلمات بحيث تكون كل كلمة في موضعها من الآية ، وهذا ثابت بالنص والإجماع ، ولا نعلم مخالفًا في وجوبه وتحريم مخالفته . فلا يجوز أن يقرأ « لله

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٠٣) عن ابن عمر .

الحمد رب العالمين » بدلًا من ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] .

النوع الثاني : ترتيب الآيات ، بحيث تكون كل آية في موضعها من السورة ، وهذا ثابت بالنص والإجماع ، وهو واجب على القول الراجح وتحرم مخالفته ، ولا يجوز أن يقرأ : « مالك يوم الدين الرحمن الرحيم » بدلًا من : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٢ - ٣] . ففي صحيح البخاري[1] : أن عبد الله بن الزبير قال لعثمان بن عفان رضي الله عنهم في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ﴾ [البقرة : ٢٤٠] : قد نسختها الآية الأخرى - يعني قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة : ٢٣٤] ، وهذه قبلها في التلاوة ، قال : فلم تكتبها ؟ فقال عثمان رضي الله عنه : يا ابن أخي ، لا أُغير شيئًا منه من مكانه . وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والترمذي[2] من حديث عثمان رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان ينزل عليه السور ذوات العدد ، فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض مَنْ كان يكتب فيقول : ضعوا هذه الآيات في هذه السورة التي يُذكر فيها كذا وكذا .

النوع الثالث : ترتيب السور بحيث تكون كل سورة في موضعها من المصحف ، وهذا ثابت بالاجتهاد فلا يكون واجبًا . وفي صحيح مسلم[3] عن حُذيفة بن اليمان رضي الله عنه : أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة ، فقرأ النبي ﷺ البقرة ، ثم النساء ، ثم آل عمران . وروى البخاري تعليقًا[4] عن الأحنف : أنه قرأ في الأولى بالكهف ، وفي الثانية بيوسف أو يونس ، وذكر أنه صلى مع عمر

(١) البخاري (٤٥٣٠) .

(٢) المسند (١/٥٧، ٧٣) ، وأبو داود (٧٨٦، ٧٨٧) ، والترمذي (٣٠٨٦) ، والنسائي في الكبرى (٨٠٠٧) ، وصححه ابن حبان (٤٣) ، والحاكم (٢/٢٢١، ٣٣٠) .

(٣) مسلم (٧٧٢) .

(٤) البخاري (٢/٢٥٥) .

ابن الخطاب الصبح بهما.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: تجوز قراءة هذه قبل هذه، وكذا في الكتابة، ولهذا تنوّعت مصاحف الصحابة رضي الله عنهم في كتابتها، لكن لما اتفقوا على المصحف في زمن عثمان رضي الله عنه صار هذا مما سَنَّه الخلفاء الراشدون، وقد دل الحديث[1] على أن لهم سنة يجب اتباعها. اهـ.

● **الشرح:** ترتيب القرآن. هناك أربعة أنواع من الترتيب: أولا ترتيب الحروف في الكلمة. والثاني ترتيب الكلمات بعضها مع بعض. والثالث ترتيب الآيات بعضها مع بعض. والرابع ترتيب السور بعضها مع بعض. هذه أربعة أنواع. لكننا لم نذكر النوع الأول لأنه لا أحد يتجرأ عليه، فالنوع الأول لاشك في تحريمه وهو مخالفة الترتيب في الحروف في الكلمة الواحدة، فإنَّ ذلك بالنص والإجماع غير جائز لأنه تحريف للكلم عن مواضعه، والثاني ترتيب الكلمات بعضها مع بعض فهذا على القول الراجح توقيفي لا يجوز تقديم كلمة في آية على كلمة أخرى؛ لأن النبي ﷺ تلاه كذلك، ونزل عليه كذلك، فلا يجوز أن يغير فيه. والثالث ترتيب الآيات فقد اختلف العلماء هل هو بالاجتهاد أو بالنص، والصحيح أنه ثابت بالنص؛ لأن النبي ﷺ كان إذا نزلت عليه الآية قال: «ضعوا آية كذا في مكان كذا وكذا»[2]. وللحديث الذي رواه البخاري عن عبد الله بن الزبير أنه سأل عثمان عن آيتين في كتاب الله إحداهما نَسخت الأخرى والناسخة متقدمة في الترتيب وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ فهذه الآية تدل على أن الإنسان إذا مات فإنه يجب عليه أن يوصي وصية تكون لزوجته عاما كاملا تبقى في بيته،

(١) يقصد حديث العرباض المشهور، وقد أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣، ٤٤) وغيرهم. وانظر جامع العلوم والحكم بتحقيقنا (ح٢٨)، والفتاوى لابن تيمية (١٣/٤١٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٧٨٦)، والترمذي (٣٠٨٦) وحسنه، والنسائي في الكبرى (٨٠٠٧)، وصححه ابن حبان (٤٣)، والحاكم (٢/٢٢١، ٣٣٠).

فإن خرجت فلا جناح عليها كما قال تعالى : ﴿ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ ﴾ هذه الآية منسوخة بقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ وهذه الآية الثانية قبلها في الكتاب ، فسأل عثمان رضي الله عنه : لماذا ؟ فقال : يا ابن أخي لا أغير شيئا عن مكانه أو من مكانه . وهذا يدل على أن ترتيب الآيات توقيفي وليس باجتهادي ، وإذا كان توقيفيا أي موقوفا على النص فإنه لا يجوز أن يقدم بعض الآيات على بعض . بقينا بالنوع الرابع على حسب ما ذكرنا وهو الثالث في الكتاب : ترتيب السور فيقول : هذا ثابت بالاجتهاد فلا يكون واجبا ، فلك أن تقرأ آل عمران قبل البقرة ، وأن تقرأ النساء قبل آل عمران ، وأن تقرأ قل أعوذ برب الناس قبل سورة الفلق ، وهلم جرا ؛ لأن ذلك ثابت بالاجتهاد . هذا ما قررناه في هذا الكتاب ، لكن يظهر لي أن منه ما هو ثابت بالاجتهاد وهو الأكثر ومنه ما هو ثابت بالنص ، مثل الجمعة والمنافقين فقد كان النبي ﷺ يقرأ في الركعة الأولى من صلاة الجمعة بالجمعة وفي الثانية بالمنافقين[1] ، ومثل سبح وهل آتاك حديث الغاشية فإن النبي ﷺ كان يقرأ بهما في صلاة الجمعة وفي العيدين مرتبتين[2] . فقد يقول قائل : إن ترتيب السور منه ما هو ثابت بالنص ومنه ما هو ثابت بالاجتهاد ، وهذا هو الأكثر . واستدل القائلون بأنه بالاجتهاد بحديث حذيفة[3] أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة فقرأ النبي ﷺ البقرة ثم النساء ثم آل عمران . فبدأ بالنساء قبل آل عمران مع أنها في الترتيب في المصحف بعدها . وكذلك أيضا ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قرأ في الأول بالكهف وفي الثانية بيوسف أو يونس ؛ الكهف ويوسف أيهما الأولى ؟ يوسف ، يونس كذلك . وهذا يدل على أن الترتيب بين السور ليس بتوقيفي . وهذا هو الأصح أنه ليس بتوقيف ، اللهم إلا أن يدعي مُدَّعٍ

(١) أخرجه مسلم (٨٧٩) عن ابن عباس .
(٢) أخرجه مسلم (٨٧٨) عن النعمان بن بشير .
(٣) أخرجه مسلم (٧٧٢) .

أن ما قرأه النبي ﷺ من السور مرتبا فإنه يكون مرتبا بالتوقيف . بقي أن يقال بعد اتفاق الصحابة على هذا الترتيب العثماني هل نقول : إن هذا مما سنه الخلفاء الراشدون وأجمعت عليه الأمة بعد العصر الأول فيلزم اتباعه ؟ قد يقال هذا . وقد يقال إن هذا إجماع خالفه الخلاف قبله . وكذلك اختلاف مصاحف الصحابة رضي الله عنهم فإنها كانت مختلفة الترتيب ، إلا إنه فيما يتعلق بقراءتها أمام العوام فإنه لا ينبغي للإنسان أن يخالف الترتيب الذي في المصحف ، واستثنى بعض العلماء من ذلك مجال التعليم وقالوا : إنه في مجال التعليم لا حرج أن نبدأ بالمتأخر قبل المتقدم ؛ ولذلك كان المسلمون يعلمون الصبيان بادئين بماذا ؟ بسورة الناس ، ثم يصعدون فهذا لا بأس به .

* * *

٥- كتابة القرآن وجمعه

لكتابة القرآن وجمعه ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى : في عهد النبي ﷺ ، وكان الاعتماد في هذه المرحلة على الحفظ أكثر من الاعتماد على الكتابة ؛ لقوة الذاكرة وسرعة الحفظ وقلة الكاتبين ووسائل الكتابة ، ولذلك لم يجمع في مصحف ، بل كان من سمع آية حفظها أو كتبها فيما تيسر له من عُسُب النخل ورقاع الجلود ولخاف الحجارة وكِسَر الأكتاف ، وكان القراء عددًا كبيرًا ، ففي صحيح البخاري[1] عن أنس بن مالك رضي اللّه عنه : أن النبي ﷺ بعث سبعين رجلًا يقال لهم القُرَّاء فعرض لهم حَيَّانِ من بني سُليم رِعْل وذَكْوان عند بئر مَعُونة فقتلوهم . وفي الصحابة غيرهم كثير كالخلفاء الأربعة ، وعبد اللّه بن مسعود ، وسالم مولى أبي حُذيفة ، وأُبيّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبي الدرداء رضي اللّه عنهم .

● **الشرح :** هذه المرحلة الأولى كتابة القرآن وهذه المرحلة تعتمد على الحفظ أكثر من الكتابة للأسباب التي ذكرناها في هذا . أولا قوة الذاكرة فإن الذاكرة في الصحابة قوية جدًا لا يكاد الواحد منهم ينسى ما حفظه ، الثاني سرعة الحفظ : فإن حفظهم سريع ، ولهذا تجد الواحد منهم يروي حديثا عن النبي ﷺ يبلغ الصفحة أو الصفحتين مع أنه لم يسمعه إلا مرة واحدة ، ومنها أيضا قلة الكاتبين ووسائل الكتابة ، الكُتَّاب كانوا قليلين ، ووسائل الكتابة أيضا قليلة ، لا يوجد ورق لا يوجد حبر ، لا يوجد أقلام . فلذلك صاروا يعتمدون على الحفظ لأن الحاجة أمّ الاختراع فإذا احتاج الناس إلى الحفظ صارت حافظتهم قوية لأنهم يعتمدون عليها ، ولهذا تجدون الآن الذين يعتمدون في الحساب على الآلة الحاسبة تجدهم يقل تصورهم للأشياء ومعرفتهم بها ، ولما ظهر الكمبيوتر في الفرائض أشرنا على الذين أخرجوه بأن لا يخرجوه على وجه عام شامل لأن هذا يميت أذهان الطلبة مرة واحدة دع

(١) البخاري (٤٠٩٠) .

الطلبة يفكرون ويقدرون ويحلون المسائل بأنفسهم دون الاعتماد على الآلة الحاسبة . فلما قَلَّتْ الوسائل في عهد النبي عليه الصلاة والسلام – وسائل الكتابة – احتاج الناس إلى الحفظ فحفظوا .

بعض الكلمات تحتاج إلى شرح : يقول : فيما تيسر له من عُسُب النخل ، عسيب النخل فيه أوراق يكتب فيها . في أيضا يُلحى العسيب الذي هو منبت الأوراق يُلْحَى ويكتب فيه .

أيضا رقاع الجلود – اللحي هو الكشط . كذلك أيضا رقاع الجلود ، رقعة الجلد يأخذها مدبوغة فيكتب فيها ، كذلك أيضا لخاف الحجارة لخاف الحجارة هي عبارة عن حجارة ملساء تشبه العظم يكتبون فيها ، الرابع كسر الأكتاف . أي أكتاف ؟ أكتاف الحيوان البعير الشاة البقرة . فهذه هي أوراقهم في ذلك الوقت .

المرحلة الثانية : في عهد أبي بكر رضي اللّه عنه في السنة الثانية عشرة من الهجرة ، وسببه أنه قُتل في وقعة اليمامة عدد كبير من القراء منهم سالم مولى أبي حذيفة أحد مَنْ أمر النبيُّ ﷺ بأخذ القرآن منهم ، فأمر أبو بكر رضي اللّه عنه بجمعه لئلا يضيع .

ففي صحيح البخاري[1] : أن عمر بن الخطاب أشار على أبي بكر رضي اللّه عنهما بجمع القرآن بعد وقعة اليمامة ، فتوقف ، فلم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله صدر أبي بكر لذلك ، فأرسل إلى زيد بن ثابت ، فأتاه ، عنده عمر ، فقال له أبو بكر : إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ ، فَتَتَبَّع القرآن فاجمعه . قال : فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللِّخَاف وصدور الرجال ، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياتَه ، ثم عند حفصة بنت عمر رضي اللّه عنها. رواه البخاري مطولًا .

(١) البخاري (٤٩٨٦) .

وقد وافق المسلمون أبا بكر على ذلك وعدُّوه مِن حسناته، حتى قال علي رضي اللَّه عنه: أعظم الناس في المصاحف أَجْرًا أبو بكر، رحمة اللَّه على أبي بكر هو أول من جمع كتاب اللَّه[1].

● **الشرح:** إن هذه المرحلة الثانية على يد أبي بكر الصديق بمشورة عمر الفاروق. لما قتل يوم اليمامة عدد كبير من القراء خاف الخليفة الراشد أبو بكر أن يضيع القرآن فأشار عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يجمعه ويكتبه، فتوقف. لماذا؟ توقف تورعا؛ لأن هذا لم يكن على عهد الرسول ﷺ. فخاف أن يكون إذا جمعه تصرف في كتاب الله بما لم يفعله الرسول عليه الصلاة والسلام. لكن عمر مازال به حتى شرح الله صدر أبا بكر لذلك فجمعه. فدَعَوْا هذا الشاب زيد بن ثابت رضي الله عنه وجمعه من العسب واللخاف كما سبق وصارت المصاحف عند أبي بكر حتى توفاه لله، ثم عند عمر، ثم عند حفصة ابنته فهي أم المؤمنين وابنة أمير المؤمنين وهي ذات ذكاء وفطنة، ولذلك لما وقّف أرضه في خيبر - أعني عمر - جعل الناظر عليه ابنته حفصة، ولم يجعل الناظر عبد الله ولا غيره من أبنائه، بل جعل الناظر حفصة لأنها ذات ديانة وأمانة وعقل وحسن تصرف، فبقيت عند حفصة حتى تولى عثمان رضي الله عنه.

المرحلة الثالثة: في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي اللَّه عنه في السنة الخامسة والعشرين، وسببه اختلاف الناس في القراءة بحسب اختلاف الصحف التي في أيدي الصحابة رضي اللَّه عنهم، فخشيت الفتنة. فأمر عثمان رضي اللَّه عنه أن تجمع هذه الصحف في مصحف واحد لئلا يختلف الناس فيتنازعوا في كتاب الله تعالى ويتفرقوا، ففي صحيح البخاري[2]: أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان من فتح أرمينية وأذربيجان وقد أفزعه اختلافهم في

---

(١) أخرجه ابن أبي داود في المصاحف (ص٥)، وحسَّن الحافظ ابن حجر إسناده في الفتح (٩/١٢).

(٢) البخاري (٤٩٨٧).

القراءة، فقال: يا أمير المؤمنين، أدركْ هذه الأمّة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف نَنسخُها في المصاحف ثم نردها إليك، ففعلت، فأمر زيد بن ثابت، وعبد اللّه بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف، وكان زيد بن ثابت أنصاريًا والثلاثة قرشيين، وقال عثمان للرهط الثلاثة القرشيين: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء في القرآن فاكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أُفُق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحرق. وقد فعل عثمان رضي اللّه عنه هذا بعد أن استشار الصحابة رضي اللّه عنهم لما روى ابن أبي داود[1] عن علي رضي اللّه عنه أنه قال: واللّه ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملإ مِنّا، قال: أرى أن نجمع الناس على مصحف واحد فلا تكونُ فرقة ولا اختلاف، قلنا: فَنِعْمَ ما رأيت. وقال مصعب بن سعد: أدركت الناس متوافرين حين حرق عثمان المصاحف فأعجبهم ذلك، أو قال: لم ينكر ذلك منهم أحد[2]. وهو من حسنات أمير المؤمنين عثمان رضي اللّه عنه التي وافقه المسلمون عليها وكانت مُكَمِلة لجمع خليفة رسول الله ﷺ أبي بكر رضي اللّه عنه. والفرق بين جمعه وجمع أبي بكر رضي اللّه عنهما أن الغرض من جمعه في عهد أبي بكر رضي اللّه عنه تقييد القرآن كله مجموعًا في مصحف حتى لا يضيع منه شيء دون أن يحمل الناسَ على الاجتماع على مصحف واحد. وذلك أنه لم يظهر أثر لاختلاف قراءاتهم يدعو إلى حملهم على الاجتماع على مصحف واحد.

---

(١) المصاحف (٢٢).

(٢) المصاحف (ص١٢).

وأما الغرض مِن جمعه في عهد عثمان رضي اللّه عنه فهو تقييد القرآن كله مجموعًا في مصحف واحد، يُحمل الناس على الاجتماع عليه؛ لظهور الأثر المُخيف باختلاف القراءات.

وقد ظهر نتائج هذا الجمع، حيث حصلت به المصلحة العظمى للمسلمين من اجتماع الأمة واتفاق الكلمة وحلول الألفة، واندفعت به مفسدة كبرى من تفرق الأمة واختلاف الكلمة وفشو البغضاء والعداوة. وقد بقي على ما كان عليه حتى الآن متفقًا عليه بين المسلمين، متواترًا بينهم، يتلقاه الصغير عن الكبير، لم تعبث به أيدي المفسدين، ولم تطمسه أهواء الزائغين، فلله الحمد رب السماوات ورب الأرض رب العالمين.

● **الشرح:** هذه الجَمْعة الثالثة التى أجمع المسلمون عليها وبقيت إلى يومنا هذا والحمد لله محفوظة بحفظ الله. وهو أن القراء في عهد أبي بكر وفي عهد عمر وفي أول خلافة عثمان كلٌّ يقرأ بما سمع من النبي عليه الصلاة والسلام، فاختلفوا؛ لأن القرآن نزل على سبعة أحرف. فخاف المسلمون من هذا الاختلاف أن يؤدي إلى اختلاف القلوب، اختلاف الآراء، وأن يؤدي إلى القتال، فرأوا أن يجمع على حرف واحد. فأمر عثمان بن عفان هؤلاء زيد بن ثابت ومن معه أن يجمعوه على حرف واحد، وإذا اختلفوا فليجمعوه على حرف مَنْ؟ قريش، يعني على لغتها؛ لأن القرآن نزل بلغتهم، ففعلوا، وبقي هكذا ولله الحمد مجموعا على ما جمعه أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وفي هذا دليل على أن تغيير ما كان في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام لوسائل حفظه لا بأس به، يعني لو قال قائل: لماذا لم يتركوا القرآن على سبعة أحرف وكل يقرأ بحرف ووَسَّعوا على الأئمة ولم يحصروها في واحد؟ قلنا: مِنْ أجل اجتماع الكلمة وعدم التفرقة، وهذا أعظم من مراعاة التوسعة على بعضهم. وبذلك نعرف أن ما ينكروه بعض الناس اليوم من هذه الخطوط التي تسوى بها الصفوف ومن الخطوط التي يستدل بها على القبلة في المسجد الحرام وما أشبه ذلك نعلم أن هذا بعيد عن الفقه في

الدين ؛ لأن هذه الوسائل في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام لم تتوفر ، مسجد الرسول مفروش بالحصباء فكيف يمكن أن يوجد خطا . قالوا : لماذا لم يجعلوه خيطا ؟ الخيط أيضا فيه مضرة ما هي ؟ أن يعثر الناس به . كل ما مشى عليه أو حوله مسك به ، ثم مراعاة هذا الخيط أيضا فيه صعوبة وهكذا أيضا ما وضع في المسجد الحرام الآن من الخطوط الزرقاء التي يُستدل بها على الاتجاه الصحيح للكعبة ، في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام لم يحتاجوا إلى ذلك كان المسجد الحرام صغيرا جدا ولا يُنسب إلى هذا ، وكان الناس أيضا أشد دينا وأقوى ورعا من الناس اليوم . الناس اليوم يأتي الإنسان ويكبّر على الجهة حتى وإن كانت الكعبة على يمينه أو يساره لا يتحرون لدينهم . لكن في عهد الرسول ﷺ يتحرون . وقد قال العلماء رحمهم الله : إن الإنسان يدخل إذا قدم مكة معتمرا أو حاجا يدخل من باب بني شيبة ، يعني الباب الذي يسمى باب بني شيبة ، وباب بني شيبة أتدرون أين موضعه ؟ الصحن صحن المطاف[1] أنا أدركته قريبا من مقام إبراهيم يعني بينه وبين مقام إبراهيم مثل ما بيني الآن والعمود هذا الذي عن يساري . هذا يدل على أن المسجد كان صغيرا جدا . ومثل هذا لا يحصل فيه الاختلاف .

لكن الآن اتسع المسجد اتساعا باهرا ، وضعف الورع في كثير من الناس ، فكان وضع هذه الخطوط من أحسن ما يكون . فالوسائل يجب أن يعرف الإنسان أنها ليست غايات ، فنحن مثلا لم نتعبد الله تعالى بهذه الخطوط الصُّفْر في المسجد ، أو وضع الخطوط الزرقاء التي تدل على اتجاه القبلة الصحيح في المسجد الحرام لم يتعبد بها لذاتها ولكننا اتخذناها وسيلة ، كما جمع الصحابة رضي الله عنهم القرآن على حرف واحد مع أنه في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام في أحرف سبعة . وكذلك أُلِّفَتْ الكتب وبُوِّبَتْ المعاني والموضوعات .

---

(١) وينبغي التنبه إلى أنه عند توسعة الحرم جعلوا المقابل لباب بني شيبة هو « باب السلام » ! وباب بني شيبة قبله مباشرة ، ولذلك نحن ندخل الآن من باب « السلام » بعد هذا التعديل .

لو قال لك قائل : مكبر الصوت الآن بدعة لا يجوز لأنه ليس في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام . ماذا تقول ؟ تقول : وسيلة . والدليل على أن رفع الصوت مقصود - لكن في عهد الرسول لا توجد وسائل - أنه في غزوة حنين أمر العباس ابن عبد المطلب أن ينادي في الناس ؛ لأنه كان جهوري الصوت ، اختاره لأنه كان جهوري الصوت يقول : يا أهل السمرة يا أصحاب سورة البقرة هلموا ارجعوا[1] . لأن الناس فروا ولم يبق من اثني عشر ألفا مع الرسول إلا نحو ثمانين رجلا ، كلهم هربوا حتى أنزل الله تعالى السكينة عليهم ورجعوا ، الحاصل أن الوسائل ليست غايات .

ثم تقول مثلا في مسألة خطوط الصفوف : في عهد الصحابة إذا قال الرسول : استووا ، استووا ، حتى إن الرجل يلصق كعبه بكعب أخيه ومنكبه بمنكبه[2] . لكن الآن إذا قلت استووا . ينظر المأمومون إليك أنت . كأنك تقول : استووا في النظر إليّ . هذا خطأ ، إذا قيل استووا معناه أنك تنظر إلى صاحبك وجارك هل أنت مساوٍ له أو لا ؟ وهذه قاعدة ينبغي لنا أن نفهمها حتى لا نقع في الخطأ وحتى لا نجعل كل شيء بدعة فنفرق بين الغايات وبين الوسائل . لكن إذا كانت الوسيلة محرمة فمن المعلوم أننا لا نتخذها ولا يجوز . مثال ذلك لو قال قائل : وسائل الدعوة كثيرة الدعوة إلى الله عز وجل وإلى الخير وسائلها كثيرة ، لكن عندي أناس لا يتجهون إليّ إلا إذا ضربت الموسيقى والعود والكمنجة والكمان وأحضرت آلات اللهو التي يطربون لها حينئذ يلتفون حولي . فهل أفعل ذلك ؟ لا وكلا ؛ لأن الوسائل المحرمة لا تجوز ولا يمكن أن تكون الوسيلة المحرمة

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٥) .

(٢) علقه البخاري في الأذان باب إلزاق المنكب بالمنكب عن النعمان بن بشير ، ووصله الحافظ في تغليق التعليق (٣٠٢/٢) من طريق الدارقطني ونسبه إلى أبي داود (٦٦٢) ، وابن خزيمة (٨٢/١) ، وحسن إسناده وقال : أصل الحديث دون الزيادة في آخره من حديث النعمان في صحيح مسلم (٤٣٦) ، والحديث صححه ابن حبان (٢١٧٦) .

نتيجتها خيرًا أبدا . أما الوسائل المباحة فإنها إذا أدت إلى الغرض المقصود شرعًا فالأصل أنها مطلوبة . وهذه قاعدة ينبغي لنا أن نفهمها ، انظر إلى الصحابة رضي الله عنهم حصروا الناس على مصحف واحد وعلى حرف واحد وهو لغة قريش ، بينما كان الناس بالأول كل يقرأ على لغته بدون أن يكون هناك حصر . لكن لما كانت يخشى من هذا الخلاف أجمع الصحابة على ذلك .

يؤخذ من فعل عثمان رضي الله عنه وغيره من الخلفاء أن الشيء وإن كان مشروعا إذا كان يخشى منه الفتنة فإن الأولى تركه ، بل قد يجب تركه إذا كانت الفتنة كبيرة . وهذه مسألة قَلَّ مَنْ يتفطن لها . بعض الناس يقول : سأفعل السنة ولو حصل ما حصل ولو بسفك الدماء . وهذا غلط عظيم ؛ لأن أصل الشريعة مبني على جلب المصالح وتحصيلها ودرء المفاسد وتقليلها ، فإذا كان يترتب على إبقاء القرآن كما هو عليه في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام وعهد أبي بكر وعمر يترتب اختلاف المسلمين وتنازعهم في كتاب الله فهذه مفسدة عظيمة . ندع الأول وإن كان فيه التيسير على الناس حيث إنه على سبعة أحرف فإننا ندع الأول ونأخذ بالثاني . وهذه قاعدة أود منكم يا طلبة العلم أن تكون لكم على بال وأن لا تهملوها وتغفلوا هذه القاعدة العظيمة ؛ ترك النبي عليه الصلاة والسلام بناء الكعبة على قواعد إبراهيم خوفا من الفتنة[1] . وكذلك أيضا عثمان رضي الله عنه ترك إبقاء القراءات على ما هي عليه في عهد الرسول وأبي بكر وعمر . كله اتقاء الفتنة لأن جمع كلمة المسلمين أمر مهم .

* * *

(١) متفق عليه : البخاري (١٢٧٢) ، ومسلم (١٣٣٣) عن عائشة .

التفسير

التفسير لغة: مِن الفَسْر وهو الكَشْف عن المُغَطَّى.

وفي الاصطلاح: بيان معاني القرآن الكريم.

وتعلّم التفسير واجب؛ لقوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩]، ولقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤].

وجه الدلالة من الآية الأولى أن اللّه تعالى بيَّن أن الحِكْمة من إنزال هذا القرآن المبارك أن يتدبر الناس آياته ويتعظوا بما فيها. والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها، فإذا لم يكن ذلك فاتت الحكمة من إنزال القرآن وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها.

ولأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه.

ووجه الدَّلالة من الآية الثانية أن الله تعالى وَبَّخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم وعدم وصول الخير إليها.

● **الشرح**: التفسير لغة من الفسر وهو الكشف عن المغطى ومنه فسر قشرة الثمرة عن الثمرة حتى يتبين ما بداخل القشر، في الاصطلاح بيان معاني القرآن الكريم. وبيان معاني غيره يسمى تفسيرا في الواقع ويصح أن نسميه تفسيرا، لكن في العرف يسمون ما سوى القرآن يسمونه شَرْحًا. ولهذا قل أن تجد من يقول شرح الآية الكريمة بل يقول تفسير. ولا يقول تفسير الحديث بل يقول شرح.

وهذه مسألة عرفية. وإلا فمعنى تفسير وشرح واحد.

بيان معاني القرآن الكريم. وتعلم التفسير واجب، يأثم الإنسان بتركه. لكن هل هو واجب عيني أو واجب كفائي؟ نقول: أما ما لا يسوغ جهله فهو واجب عيني، يجب على كل إنسان أن يعرف ما أُمر به في القرآن الكريم. مثلا ﴿ أَقِيمُوا

الصَّلَاةَ ﴾ يجب أن يعرف كيف إقامة الصلاة ﴿ آتُوا الزَّكَاةَ ﴾ يجب أن يعرف إذا كان عنده مال ﴿ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ يجب أن يعرف كيف يحج إذا كان مستطيعا ، وهلم جرا ؛ وما زاد عن ذلك فإنه فرض كفاية ، ولا يمكن للمسلمين أن يدعوا كتاب ربهم بدون فهم لمعانيه . إذن واجب يشمل الواجب العيني والواجب الكفائي لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩] .

وصف الله هذا القرآن بأنه مبارك ، مبارك من كل ناحية ، من جهة تلاوته والتعبد به ، ومن جهة صلاح القلب وصلاح العمل ، وكان خلق النبي ﷺ القرآن[1] ، وهو أكمل الناس خلقا عليه الصلاة والسلام .

﴿ لِيَدَّبَّرُوا ﴾ اللام هنا للتعليل وهو بيان الحكمة من إنزاله ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ يتعظوا ، أولوا الألباب يعني أولوا العقول ؛ لأن العقل هو اللُّبّ ، ورجل بلا عقل ليس برجل في الواقع ، ولقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [محمد: ٢٤] ، والهمزة هنا للاستفهام الذي يراد به التوبيخ .

﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد: ٢٤] ، أم هنا هل هي متصلة أم منقطعة ؟ الضابط : إذا كانت أم بمعنى بل والهمزة فهي منقطعة ، وإذا كانت بمعنى « أو » فهي متصلة ، فإذا قلت : أجاء زيد أم عمرو ؟ فهي متصلة وفي هذه الآية ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ أي : بل على قلوب أقفالها . والجواب الثاني أم الأول ؟ الثاني . هم قلوبهم مقفلة عن تدبر القرآن ، وجه الدلالة من الآية الأولى أن الله تعالى بين أن الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك أن يتدبر الناس آياته ويتعظوا بما فيها ، هذه الحكمة . وليست الحكمة أن يتبركوا به ، أو أن يتلوه تلاوة مجردة . هذه لاشك أنها منفعة ومصلحة ورحمة بالخلق ، لكن المهم أن يتدبروه ، ما معناه ، ماذا أراد الله به ، ثم يتعظوا ، أرأيت لو أن إنسانًا أعطاك كتابًا في الطب

---

(١) أخرجه مسلم (٧٤٦) .

مثلا قال : خذ هذا الكتاب . هل يمكن أن تنتفع بما فيه من الإرشادات الطبية إلا بعد أن تتدبره وتفهمه ؟ لا يمكن ، إذن القرآن الكريم لا يمكن أن ينتفع به الإنسان تمام الانتفاع إلا بالتدبر بتدبر ماذا أراد ربنا بهذا ، ثم بعد ذلك يتعظ . يقول : إن الله بين الحكمة من إنزال هذا القرآن المبارك أن يتدبر الناس آياته ويتعظوا بما فيها ، والتدبر هو التأمل في الألفاظ للوصول إلى معانيها ، هذا التدبر . أنك تتأمل . وسُمِّيَ تدبرا لأن الإنسان يجول من هنا ومن هنا حتى يصل إلى المعنى المراد ، فهو تدبر ، تَجَوُّل في معاني اللفظ حتى يصل إلى المراد فإذا لم يكن ذلك يعني التدبر فاتت الحكمة من إنزال القرآن وصار مجرد ألفاظ لا تأثير لها ، وهذا واضح أن الله لم يكن لينزل قرآنا يقول للناس اقرؤا ألفاظه دون أن تفهموا معانيه أبدا .

ولأنه لا يمكن الاتعاظ بما في القرآن بدون فهم معانيه ، هل يمكن أن تتعظ بالقرآن وتعمل بما أراد الله منك إلا أن تفهم معانيه ؟ لا يمكن . لذلك تبين وجه الدلالة على وجوب التدبر من قوله تعالى : ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾ ، ووجه الدلالة من الآية الثانية أن الله وَبَّخ أولئك الذين لا يتدبرون القرآن لأن الهمزة للاستفهام المراد به التوبيخ ، وأشار إلى أن ذلك من الإقفال على قلوبهم وعدم وصول الخير إليها .

وكان سلف الأمة على تلك الطريقة الواجبة ، يتعلمون القرآن ألفاظه ومعانيه ؛ لأنهم بذلك يتمكنون من العمل بالقرآن على مراد اللّه به ، فإن العمل بما لا يُعرف معناه غير ممكن .

وقال أبو عبد الرحمن السُلَمي : حدثنا الذين كانوا يُقْرِؤُنَنَا القرآن كعثمان بن عفان وعبد اللّه بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا[1] .

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٢٧١) ، ومعرفة القراء الكبار (١/٥٦) ، وهو - بدون ذكر أسماء - عند الطبري في مقدمة تفسيره (١/٣٦) . والأثر بلفظه منقول من مجموع الفتاوى كما سيأتي .

● **الشرح :** هذا الأثر على ما فيه من خلاف في صحته . نقول : أنه يدل على أن عادة السلف أنه إذا تعلموا عشر آيات تعلموا معناها ثم عملوا بها ، وهكذا ينبغي لنا نحن أن نتعلم المعنى ثم نعمل حتى يكون القرآن نزل مباركا يتدبر الناس آياته ويتذكرون به .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1]: والعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم.

● **الشرح :** هذا مثال من شيخ الإسلام ابن تيمية يقول : والعادة أن الإنسان إذا قرأ كتابًا في فن من الفنون هل يقرأه قراءة مجردة لفظية ؟ لا . ولو فعل لم ينتفع به ، بل لابد أن يستشرحه أي يطلب مَنْ يشرحه له ، فيطلب من المعلم أن يعلمه المعنى ، ويطلب من التلميذ الذي فوقه أن يعلمه وهلم جرا .

ويجب على أهل العلم أن يبينوه للناس عن طريق الكتابة أو المُشَافهة لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران : ١٨٧] ، وتبيين الكتاب للناس شامل لتبيين ألفاظه ومعانيه ، فيكون تفسير القرآن مما أخذ اللهُ العهد على أهل العلم ببيانه .

● **الشرح :** فإذا قال قائل : هل يجب على أهل العلم أن يبينوا للناس معنى القرآن سواء سألوا أم لا ؟ نقول : يجب إذا سأله الناس بلسان الحال أو بلسان المقال . فمثلا إذا سمع الإنسان أن الناس يفسرون بعض الآيات على غير ما أراد الله فالواجب عليه أن يبين المعنى الذي أراد الله ؛ لأن العوام أحيانا يفسرون الآيات بغير ما أراد الله ، بل أحيانا يصنعون آيات من عندهم تجده مثلا يقول : صدق الله العظيم وجعلنا لكل شيء سببا . وليس في القرآن هكذا . لكن هم يعلمون أن الأشياء بأسبابها ويمكن مَرَّ عليهم في أذهانهم في تلك الساعة ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٣٣٢) ، ومقدمة التفسير لابن تيمية (ص١٤) بتحقيقنا .

شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف : ٨٤] فحولوها إلى أن قالوا : وجعلنا لكل شيء سببا ، فالمهم إذا رأى الإنسان أنه لابد أن يبين معنى القرآن بلسان الحال أو بلسان المقال وجب عليه البيان .

وينبغي أن يُجعل للعامة مجلس لتفسير القرآن ، وكان شيخنا عبد الرحمن بن سعدي رحمه الله يفعل ذلك ، كان بين العشاءين يفسر القرآن من أوله إلى آخره ، لكنها قراءة عامة يكون في المحراب ويقرأ عليه أحد الطلاب ويشرح الآيات فيبين ويحضر العامة فيفهمون ، وهذا طيب لو جعل طالب العلم مثلا في مسجده الخاص لو جعل له درسا في تفسير القرآن لانتفع ونفع .

والغرض مِن تعلُّم التفسير هو الوصول إلى الغايات الحميدة والثمرات الجليلة ، وهي التصديق بأخباره والانتفاع بها وتطبيق أحكامه على الوجه الذي أراده الله ، ليُعبَدَ اللهُ بها على بصيرة .

● **الشرح :** وهذا غرض سامي يتحقق به قول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] وخلاصة هذا الباب أن تفسير القرآن هو بيان معناه وأن تعليم التفسير واجب وأن الوجوب عيني وكفائي ، وأن عادة السلف في القرآن أنهم إذا تعلموا عشر آيات أو نحوها تعلموا معانيها وعملوا بها . وأنه ينبغي لخلف الأمة أن يتبعوا أثر سلفهم ؛ لأنه هو الخير .

* * *

الواجب على المسلم في تفسير القرآن

● **الشرح :** يعني متى قلنا إن تفسير القرآن واجب فكيف الطريق إلى ذلك ؟ وهذا أيضا بحث مهم جدا ، هل نفسر القرآن بآرائنا ؟ لا . « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »(1) . فما هو الواجب ؟ [يأتي] .

الواجب على المسلم في تفسير القرآن أن يُشعِرَ نفسه حين يُفَسر القرآن بأنه مترجِم عن الله تعالى ، شاهد عليه بما أراد من كلامه. ...

● **الشرح :** وهذه مسؤولية عظيمة ، أنت أيها المفسر لكلام الله أنت بمنزلة المترجم ، وهو نقل الكلام من لغة إلى أخرى ؛ لأنك تقول للناس : أراد اللَّه كذا وكذا . فاحذر أن تكذب أن تقول : أراد اللَّه كذا ، وهو لم يرده ، فتكون كاذبًا على اللَّه عز وجل . أيضًا يكون شاهدًا عليه بما أراد من كلامه ؛ لأنك إذا فسرت كلام الله فقد شهدت على ربك بأنه أراد كذا وكذا .

مثال ذلك : ذهب بعض المتأخرين إلى أن قوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ [النمل : ٨٨] أن المراد بها الدنيا وأن هذا إشارة إلى أن الأرض تدور . نقول : أنت الآن مترجم . هل الترجمة مطابقة للمترجم ؟

الجواب : يجب أن تكون مطابقة ، ثانيًا أنت الآن تشهد على اللَّه بأنه أراد هذا الذي ذكرت ، أراد أن الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب في الدنيا وأنه كناية عن دوران الأرض ، تشهد على اللَّه بهذا ، وسوف يسأل الإنسان عن هذه الشهادة . كذلك لما ظهرت الأقمار الصناعية فيما سبق وظهر الوصول للفضاء الخارجي تحذلق بعض الناس وقال : هذا موجود في القرآن ، الناس يخرجون إلى الغلاف الخارجي . قلنا : وأين الدليل ؟ قالوا : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٥١) وحسنه ، والنسائي في الكبرى (٨٠٨٥) عن ابن عباس ، وأخرجه أبو داود في سننه برواية ابن العبد كما في التحفة (٤/٤٢٤) ، والحديث صححه ابن القطان كما في النكت الظراف (٤/٤٢٣) .

اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا ﴾ [الرحمن : ٣٣] ، وهؤلاء الذين خرجوا عن الغلاف الجوي نفذوا من أقطار السموات والأرض ، فالآية تدل على أنه سيكون أناس يخرجون على هذه السفن الفضائية وينفذون من أقطار السماوات والأرض ، مَن قال هذا ؟ تشهد أن اللَّه أراد ذلك . سيقول : إذا كان مفسرًا حقيقة سيقول : أشهد أن اللَّه أراد ذلك ، وهذا لا شك أنه تحريف . تقول : بدأ الله بالسماوات قبل الأرض فهل نفذ هؤلاء من أقطار السماوات ؟ لا ، حتى هم يقولون : ما نفذوا من أقطار السماوات ، ولا قربنا من الشمس ، لو قربنا من الشمس لذبنا ، فعلى كل حال أقول : إن المفسر يجب أن يشعر هذا الشعور ، الأول : أنه مترجم عن الله ، والثاني أنه شاهد على الله بأنه أراد كذا ، وبهذا نعرف عظم التفسير وعظم القول به .

إذن لابد من الشعور عند تفسير القرآن بهذين الأمرين : أنه مترجم عن الله ، وشاهد على اللَّه بما أراد من كلامه .

فيكون مُعظمًا لهذه الشهادة ، خائفًا من أن يقول على الله بلا علم فيقع فيما حرم اللَّه فَيُخْزَى بذلك يوم القيامة ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر : ٦٠] .

● **الشرح :** والذي يفسر القرآن بغير ما أراد الله كاذب على الله بلا شك ، قد يكون ممن قال فيهم : ﴿ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴾ . فإن قال قائل : وهل يجوز لي أن أفسره بما تقتضيه اللغة لأنه بلسان عربي ؟ قلنا : إذا كنت تعلم ذلك فلا بأس ، أما إذا كنت لا تعلم فاتركه لغيرك ممن يعلم ، ثمَ إذا أردنا أن نرجع إلى التفسير تفسير الآية فممن نأخذ التفسير ؟

المرجع في تفسير القرآن

يرجع أولًا في تفسير القرآن إلى ما يأتي:

أولًا: كلام اللّه تعالى فيفسَّر القرآن بالقرآن؛ لأن اللّه تعالى هو الذي أنزله وهو أعلم بما أراد به.

● **الشرح:** يقول: نرجع أولًا إلى كلام الله عز وجل، فيفسر القرآن بالقرآن، وهذا هو أعلى مراتب التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن؛ لأن اللّه تعالى هو الذي أنزله وهو أعلم بما أراد به. ولذلك أمثلة.

ولذلك أمثلة، منها:

١- قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]، **فقد فسر أولياء الله بقوله في الآية التي تليها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾** [يونس: ٦٣].

● **الشرح:** فمن أولياء اللّه؟ فسرها اللّه بقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، فقد فسر أولياء اللّه بقوله في الآية التي تليها: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.

إذن لا أحسن من هذا التفسير، لو أراد أحد أن يفسر أولياء الله بغير ذلك لرددناه عليه؛ لأن الذي أنزل القرآن قال: هم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، وقد أخذ شيخ الإسلام رحمه الله من هذه عبارة دقيقة، فقال: من كان مؤمنًا تقيًا كان للّه وليًا[1]. وهذا من القرآن لا شك، لكن العبارة كأنها قاعدة من كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا، مأخوذ من الآية.

المثال الثاني قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ﴾، فقد فسر «الطارق» بقوله في الآية الثانية: ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾. لو سألنا: والسماء والطارق، ما هو

(١) الفتاوى (٣١٦/٢٥) و(٥٧٠/٢٨).

الطارق ؟ الطارق المسافر يطرق ليلًا ؟ الجواب : لا شك معناه أن الطارق الذي يطرق ليلًا ، لكنه هنا لا . فسرها بقوله : ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾ .

٢- قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴾ [الطارق : ٢] ، **فقد فسر الطارق بقوله في الآية الثانية ﴿ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴾** [الطارق : ٣] .

٣- قوله تعالى ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴾ [النازعات : ٣٠] ، **فقد فسر دحاها بقوله في الآيتين بعدها: ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾** [النازعات : ٣١ - ٣٢] .

● **الشرح :** إذن فإننا إذا وجدنا تفسير القرآن بالقرآن فإننا لا نعدل به شيئًا ، لماذا ؟ لأن اللَّه هو الذي فسره وهو الذي أنزله وهو أعلم بما أراد .

ثانيًا : كلام رسول الله ﷺ فيفسر القرآن بالسنة ؛ لأن رسول الله ﷺ مبلغ عن اللَّه تعالى ، فهو أعلم الناس بمراد اللَّه تعالى بكلامه .

● **الشرح :** يعني نرجع في تفسير القرآن إلى كلام الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأنه لا شك أن الرسول عليه الصلاة والسلام أعلم الخلق بكتاب الله ، ولا منازعة في ذلك .

ولذلك أمثلة ، منها :

١- قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] .

● **الشرح :** ما هي الزيادة ؟ الزيادة الشيء الزائد ، لكن ما هذا الزائد ؟

فقد فسر النبي ﷺ الزيادة بالنظر إلى وجه اللَّه تعالى فيما رواه ابن جَرير وابن أبي حاتم صريحًا من حديث أبي موسى[(١)] وأُبيّ بن كعب[(٢)] ، ورواه ابن

---

(١) أخرجه ابن جرير (١١/١٠٥) وغيره موقوفًا ومرفوعًا ، وكلاهما إسناده ضعيف جدًّا . وانظر تخريج صفة الجنة لابن كثير (٢٥٥، ٢٥٦) بتحقيقي .

(٢) أخرجه ابن جرير (١١/١٠٧) وإسناده ضعيف . وانظر تخريج صفة الجنة (٢٥٧) .

جرير من حديث كَعْب بن عُجْرة[(١)]، وفي صحيح مسلم[(٢)] عن صُهيب بن سِنَان عن النبي ﷺ في حديث قال فيه: فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل، ثم تلا هذه الآية ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾.

● **الشرح**: وعلى هذا فيكون ما في صحيح مسلم مؤيدًا لما رواه ابن جرير وغيره. فالزيادة إذن هي النظر إلى وجه الله. من فسرها؟ الرسول ﷺ.

٢- قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فقد فسَّر النبي ﷺ القوة بالرَّمْي. رواه مسلم وغيره[(٣)] من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

● **الشرح**: المثال الثاني قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ القوة هذه مجملة فسرها النبي ﷺ بالرمي. رواه مسلم وغيره من حديث عقبة بن عامر، فقال: ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي. ولهذا كان الرمي أبلغ من الملاقاة باليد؛ لأن الرامي يكون في الغالب سالمًا؛ إذْ هو يرسل السهم على عدوه، فالقوة هي الرمي، ومن ثم أجاز الشرع المسابقة في الرمي بعوض[(٤)]، لما في ذلك من تعلم الرمي والاستعانة به على الجهاد في سبيل الله. إذن

(١) أخرجه ابن جرير (١٠٧/١١) وإسناده ضعيف. وانظر تخريج صفة الجنة (٢٥٨).

(٢) مسلم (١٨١) وأحمد (٣٣٣/٤) و(١٥/٦- ١٦).

(٣) مسلم (١٩١٧)، وأحمد (١٥٦/٤)، وأبو داود (٢٥١٤)، والترمذي (٣٠٨٣)، وابن ماجه (٢٨١٣).

(٤) ورد ذلك في حديث أبي هريرة ولفظه: «من أدخل فرسًا بين فرسين، فإن كان يؤمن أن يُسبق فلا خير فيه، وإن كان لا يؤمن أن يسبق، فلا بأس به». أخرجه أبو داود (٢٥٧٩)، وابن ماجه (٢٨٧٦) وغيرهما وهو ضعيف. والصواب أنه من قول سعيد بن المسيب كما في الموطأ (٤٦٨/٢)، وانظر التلخيص الحبير (١٦٣/٤). وانظر أيضًا هذه المسألة في «القواعد والأصول الجامعة» للشيخ السعدي بشرح ابن عثيمين بتحقيقنا (ص١٢١).

نفسر القرآن أولًا بكلام الله، ثم بسنة النبي ﷺ.

ثالثًا: كلام الصحابة رضي اللّه عنهم، لا سيما ذوو العلم منهم والعنايةِ بالتفسير؛ لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم، ولأنهم بعد الأنبياء أصدق الناس في طلب الحق وأسلمهم من الأهواء وأطهرهم من المخالفات التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب.

● **الشرح**: الصحابة، لكننا أضفنا إليها كلمة لا سيما ذوو العلم والعناية بالتفسير؛ لأن الصحابة رضي الله عنهم كما تعلمون منهم قليلو العلم ومنهم متوسط ومنهم من فضل أقرانه، ومنهم من اعتنى بالفقه، ومنهم من اعتنى بالتفسير، يختلفون، لكنَّ ذوي العلم المعتنين بالتفسير هم أعلم الناس بتفسير كلام الله عز وجل. فيرجع إليهم؛ لأن القرآن نزل بلغتهم وفي عصرهم، ولأنهم بعد الأنبياء أصدق الناس في طلب الحق؛ لأن مَنْ بعدهم قد يكون يبحث عما يؤيد قوله لا ما يؤيد الحق. وهذا كثير في أهل الأهواء وأهل البدع، تجدهم يتبعون المتشابه ليضلوا الناس بغير علم، ولأنهم أطهرهم من المخالفات التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب وأسلمهم من الأهواء، فذكر ثلاث علل: العلة الأولى: أن الصحابة أصدق الناس بعد الأنبياء في طلب الحق، وهذا بلا منازعة، ونشهد الله تعالى على ذلك، أن أصدق الناس في طلب الحق هم الصحابة، ثانيًا أسلمهم من الأهواء، فإنه بعد الصحابة انتشرت الأمة وافترقت وكثرت الأهواء، أما في عهد الصحابة فهذا قليل إن لم نقل معدوم. الثالث أطهرهم من المخالفات التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب، مخالفات مَن؟ مخالفات أمر اللّه عز وجل؛ لأن مخالفات أمر الله ومعصيته تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب، وكم حُرم الإنسان من الوصول إلى الصواب بمعصية فعلها، كم حرم من النصر بمعصية فعلها، المعاصي تحول بين الإنسان وبين التوفيق أعاذنا الله وإياكم من شرورها. نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. واستمع إلى قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ منطوق الآية أن من اهتدى بما

أنزل الله زاده الله هدى . مفهومها من لم يهتد لم يزده الله ، بل ينقصه . واستمع **إلى** ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ **لا** تلين للحق ، ﴿ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة : ١٣] ، فأطهر الناس من المخالفات التي تحول بين المرء وبين التوفيق للصواب مَنْ ؟ الصحابة . إذن لا شك أنهم أعلم الخلق بتفسير كلام الله بعد النبي ﷺ لا سيما فيما يتعلق بالأحكام ، أما ما يتعلق بالعلوم الفلكية والأرضية فقد يكون من بعدهم عندهم علم كثير ؛ لأنهم أُتوا من وسائل الوصول إلى هذه المعلومات ما لم يؤت الصحابة رضي اللَّه عنهم ، لكن ما يتعلق بفقه الدين.والعقيدة لا شك أن الصحابة هم أعلم الخلق .

ولذلك أمثلة كثيرة جدًا ؛ منها :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ [النساء : ٤٣] ، فقد صح عن ابن عباس رضي اللَّه عنهما أنه فَسَّر الملامسة بالجماع[١] .

● **الشرح** : هذه الآية لما ذكر اللَّه تعالى وجوب الطهارة بالماء قال : ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى ﴾ يعني فلا تستطيعون الطهارة بالماء ، ﴿ أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾ فليس عندكم ماء ، ﴿ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ ﴾ « أو » هنا بمعنى الواو ، يعني وجاء أحد منكم من الغائط ﴿ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ . فإن قال قائل : وهل « أو » تأتي بمعنى الواو ؟ قلنا : نعم تأتي بمعنى الواو ، واقرأ الحديث حديث ابن مسعود رضي اللَّه عنه : « أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدًا مِنْ خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك »[٢] .

---

(١) أخرجه الطبري (١٠١/٥– ١٠٢) ، وعبد الرزاق (١٣٤/١) ، وابن أبي شيبة (١٦٦/١– ١٦٧) ، والبيهقي (١٢٥/١، ٤٢٤/٧، ٤٢٥) ، وسعيد بن منصور في تفسيره (٦٤٠، ٦٤١) وغيرهم .

(٢) أخرجه أحمد (٣٩١/١، ٤٥٢) ، وأبو يعلى (٥٢٩٧) ، والطبراني في الكبير (١٠٣٥٢) ، وابن حبان (٩٧٢) ، والحاكم (٥٠٩/١) ، وصححه الألباني في الصحيحة (١٩٨) .

قوله : « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك » « أو » هنا بمعنى الواو ولابد ؛ لأن أنزلته ليست قسيمًا لما سمى به نفسه ، بل هو ما سمى به نفسه . وعلى هذا فتكون « أو » بمعنى الواو ، سميت به نفسك وأنزلته في كتابك ، أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك .

إذن قوله : ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ معناها الواو يعنى : وجاء أحد من الغائط . وهذا إشارة إلى مُوجب الوضوء ، ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أو هذه للتقسيم فتكون إشارة إلى موجب الغسل . ومن أجل هذا الفهم الدقيق قال ابن عباس : ﴿لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ جامعتموهن . وليس المراد اللمس باليد ؛ لأنه لو كان المراد اللمس باليد لصارت الآية مُكَرِّرة لمُوجبين ومُغْفِلَة لمُوجِبٍ آخر وهذا خلاف البلاغة .

[زيادة إيضاح] أقول : ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ قلنا : أو بمعنى الواو ، و﴿جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾ إشارة إلى موجب الوضوء ﴿أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ « أو » للتقسيم ﴿لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ إشارة إلى موجب الغسل وهو الجماع ، لو قلنا : ﴿لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ أي لامستموهن بأيديكم وأنه يدل على أن لمس المرأة يوجب الوضوء لنقصنا دلالة الآية حيث كانت على هذا التقدير ذكرتْ مُوجبًا واحدًا ؛ وهو موجب الوضوء مع التكرار ، وأغفلت موجبًا آخر لا بد منه وهو موجب الغسل مع أن الآية ذكرت الطهارة من النوعين من الوضوء ومن الغسل حيث قال : ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ وذكر التطهر بنوعين أيضًا : وهو التطهر بالماء والتراب . إذن الآية الكريمة انظر سبحان الله بلاغة عظيمة ذكرت نوعين مما يتطهر به ، ونوعين مما يتطهر منه ، ونوعين في كيفية الطهارة ، نوعين في كيفية الطهارة : الوضوء والغسل ، نوعين فيما يتطهر به : الماء والتراب ، نوعين فيما يتطهر منه : موجب الحدث الأصغر وموجب الحدث الأكبر ، وبهذا يتبين كمال فقه ابن عباس رضي الله عنه أن المراد بلامستم أي جامعتم فهنا لو أحد من الناس قال : لامستم يعني باليد يفسرها قوله تعالى في نفس الآية قراءة سَبْعية (أَوْ لمستم

النِّسَاءَ) . قلنا : كلام الله يفسر بعضه بعضًا فلامستم ولمستم معناهما واحد ، لكن لما كان الجماع قد يحصل به تلذذ من جانب واحد ومن الجانبين ، وأيهما أغلب ، من الجانبين ولهذا جاءت المفاعلة ﴿ لَامَسْتُمُ ﴾ وقد يكون من جانب واحد قد تكون المرأة لا تريد الجماع لسبب من الأسباب فيتلذذ الرجل ولا تتلذذ المرأة ، وحينئذ يصدق قوله : (أَوْ لَمَسْتُمُ) وعلى هذا فتكون الآية معناها الجماع على كل تقدير ، فلا نعدل إلى غيره . والعجيب أن العلماء في هذه المسألة اختلفوا في تفسير الملامسة من المتوضئ انقسموا في ذلك إلى ثلاثة أقسام : قسم قالوا بمجرد ما يلمسها ينتقض وضوءه ، حتى لو أن الرجل قدم من سفر وهو متوضئ فلاقته ابنته وقالت : مرحبًا بأبي ، فصافحها قلنا : يجب عليك أن تتوضأ . وسبحان الله . وآخر يقول : لا يجب الوضوء مطلقًا من مس المرأة ولو لشهوة . والثالث يقول : إن مسها لشهوة وجب الوضوء وإلا فلا . والصحيح أنه لا يجب ولو لشهوة لكن إن حدث منه حدث بمذي أو نحوه وجب عليه ما يقتضيه ذلك الحدث . أما مجرد التشهي فإنه لا يوجب الوضوء ، ولهذا قال بعضهم في هذا وفي باب القبلة للصائم قال : لا أبالي أَقَبَّلْتُ امرأتي أو شممت ريحانًا . ما هو الجامع بينهما ؟ التلذذ . الإنسان إذا شم ريحانا يتلذذ وينشط هل نقول : يجب عليك الوضوء؟ لا ، فكذلك إذا مس المرأة وتلذذ بذلك فإنه لا يجب عليه الوضوء ولا يفسد به الصوم . وهذا هو الصحيح في هذه المسألة .

رابعًا : كلام التابعين الذين اعتنوا بأخذ التفسير عن الصحابة رضي الله عنهم . ....

● **الشرح :** الرابع كلام التابعين ، لكن ليس كل التابعين .

لأن التابعين خير الناس بعد الصحابة . ...

● **الشرح :** قوله : « خير الناس بعد الصحابة » يحتاج إلى دليل فما هو الدليل : قول الرسول قال : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »

فهم خير الناس بعد الصحابة رضي الله عنهم والمراد الجنس ؛ لأن التابعين رضي الله عنهم جنسهم بعد الصحابة ، لكن قد يوجد في التابعين من هو خير من بعض الصحابة في العلم والدين لا في الصحبة ، لأن الصحبة لا يمكن أن يساويهم أحد بها .

وأسلم من الأهواء ممن بعدهم ...

● **الشرح :** أسلم الناس في الأهواء ممن بعدهم ، لا ممن قبلهم ، وهذا أيضًا لا شك فيه . ولهذا تجد كلام بعض التابعين يكاد يكون كلام الصحابة ، حتى إنك أحيانًا لا تميز بين أثر التابعي وأثر الصحابي .

ولم تكن اللغة العربية تغيرت كثيرًا في عصرهم، فكانوا أقرب إلى الصواب في فهم القرآن ممن بعدهم..

● **الشرح :** هذا أيضًا مُمَيِّز وموجب للرجوع إلى تفسيرهم ، أن اللغة العربية لم تكن تغيرت كثيرًا . وحدث التغير لما فتح المسلمون البلاد وامتزجوا بأهلها أخذوا منهم كلمات كما أن أهل البلاد الأخرى أخذوا كلمات ، وليس كلمات أخذوا اللغة بجملتها ، صاحب القاموس ، أعجمي أم عربي ؟ أعجمي ، صاحب القاموس يفسر لكم اللغة وأنتم عرب وهو أعجمي ؛ نعم أعجمي ، لكن اعتنوا عناية تامة باللغة العربية ، سيبويه إمام أهل النحو أعجمي ، وما أكثر الأعاجم الذين حققوا من اللغة العربية ما لم يحققه علماء العرب . لكن تأخر الزمان وبدأنا نحن العرب على تغير لساننا وفساد لغتنا صرنا الآن نشتاق إلى أخذ لغة غيرنا ، والرجل إذا تكلم باللغة الأجنبية رأى أنه قد شمخ على قومه وارتفع عليهم وفخر عليهم بذلك ، والحقيقة أنه لم يفخر بما هو خير ، ولكنه كمن قال الله فيهم : ﴿ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ نجد الآن في أسواقنا مع الأسف أنه يكتب على اللافتات على المتاجر باللغة الإنجليزية وليس باللغة العربية ، كأنك تتجول في أسواق لندن . يعني بلاد عربية لا توجد لافتة فيها عربية . سبحان الله يعني الناس نسأل الله العافية طُمس

على قلوبهم ، وكان عمر يضرب الناس إذا تكلموا برطانة الأعاجم[(١)] . ومن أعظم فخر الأمم أن يتكلم الناس بلغتهم . يعني الأمة التي تتكلم باللغة العربية أو غير عربية تفخر أن الناس يتكلمون بلغتهم ، لأنها تشعر بأنهم تابعون لها ، وأنهم أذناب لها . ولهذا لو أن هؤلاء الذين كتبوا اللافتات على متاجرهم كتبوا تهنئة لرئيس وزراء بريطانيا أننا كنا نفخر بلغتكم فنكتبها على متاجرنا في قُعْرِ أرضنا . هذه مشكلة جهل عظيم ، حتى رأينا من يعلم أبناءه الصغار أن يتكلموا باللغة الأعجمية ، بدل أن يقول السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ماذا يقول ؟ باي باي . نسأل الله السلامة . وباي باي ما معناها : أبوي أبوي يعني ؟ معناها مع السلامة ؟ كذلك أيضًا التليفون عامة الناس إذا رفع السماعة ماذا يقول ؟ ألو . لا إله إلا الله ، أين السلام الذي هو من السنة ؟ إذا رفعت السماعة فقل : السلام عليكم . وهي أفضل بكثير من ألو . يعني ألو تعريبها أظن أهلا . فأيهما أولى السلام عليكم أو أهلا ؟ السلام عليكم . بعض الناس عكس القضية صار إذا رفع السماعة قال : السلام عليكم ، فيسلم مع أنه هو الذي مورود عليه . وهل السلام من الوارد أو من المورود عليه ؟ مِن الوارد . ومَنْ الوارد في التليفون ؟ المتصل . إذن هو الذي يسلم . ولماذا لا تنكرون عليّ حينما قلت : التليفون ؟ الظاهر لأنه معرب ، والمعرب موجود حتى في القرآن الكريم . يعني الناس كلهم لو قلت : « الهاتف » عند العامة ما يعرف الهاتف . لا يعرف الهاتف إلا المطر إذا كان يهتف وينزل . لكن مع ذلك الهاتف خير من التليفون ، ولو أن الإنسان تكلم وقال : التليفون ، فلا أرى بذلك بأسًا لأنها كلمة واحدة معربة وليست جملا مركبة . والأمر الذي يُخشى منه أن تكون كلمات مركبة وجملا مفيدة أما مجرد كلمة عربها الناس وأخضعوها للعربية فهذا لا بأس به ، وفي القرآن كلمات معربة ، والنبي عليه الصلاة والسلام تكلم أحيانًا باللغة غير العربية كما قال لأم خالد حين قدمت من الحبشة ولبست ثوبًا جديدًا

---

(١) انظر مصنف ابن أبي شيبة (٥/٢٩٩) ، ومصنف عبد الرزاق (١/٤١١) ، وسنن البيهقي (٩/٢٣٤) .

قال : « سنا سنا »[1] . يعني حسنًا حسنًا . لكنها جاءت من الحبشة وقد أخذت من كلماتهم ، خاطبها بما تفهم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللَّه تعالى[2]: إذا أجمعوا - يعني التابعين - على الشيء فلا يُرتاب في كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ، ولا على من بعدهم ، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السُّنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك .

وقال أيضًا[3]: مَنْ عَدَل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئًا في ذلك ، بل مبتدعًا وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه ، ثم قال : فمن خالف قولَهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعًا .

● **الشرح** : الرابع فيما يرجع إليه في تفسير القرآن أقوال التابعين ولا سيما الذين أخذوا التفسير عن الصحابة واعتنوا به كمجاهد بن جبر وغيره ، شيخ الإسلام رحمه الله يقول : إذا أجمع التابعون على تفسير الآية فلا يرتاب أحد أنه حجة ، وإذا اختلفوا فليس قول أحدهم حجةً على الآخر ، ولا حجة على مَنْ بعدهم لعدم الإجماع . ولكن ينظر إلى ما يرجحه الدليل . فإلى أي شيء يُرجع ؟ يقول : يرجع إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة . يعني إذا اختلف التابعون على قولين فإنه ليس قول أحدهما أو أحدهم حجة على الآخر ولا على من بعدهم . بل لا بد من الترجيح ، نرجح بماذا ؟ ذكر أربعة أشياء : لغة القرآن وهي الحقيقة الشرعية ، أو السنة كذلك ، أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة . والظاهر – والله أعلم – أن عموم لغة العرب مع أقوال الصحابة ليست

(١) أخرجه البخاري (٥٨٢٣) .

(٢) مجموع الفتاوى (٣٧٠/١٣) ، ومقدمة التفسير (ص٧٩) .

(٣) مجموع الفتاوى (٣٦١/١٣) ، ومقدمة التفسير (ص٧٠) .

على الترتيب الذي ذكره رحمه الله ، فإن أقوال الصحابة مُقَدَّمة على مقتضى اللغة العربية . وقال أيضًا : من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئًا في ذلك بل مبتدعًا . [اهـ] كونه مخطئًا واضح لكن كونه مبتدعًا لأنه (خالف) السنة وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه . ثم قال : فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل وأخطأ في المدلول جميعًا . [اهـ] أخطأ في الدليل حيث حمله على ما لم يعرفه الصحابة رضي الله عنهم ، وأخطأ في المدلول حيث أحدث ما لم يكن معروفًا عند الصحابة .

خامسًا : ما تقتضيه الكلمات من المعاني الشرعية أو اللغوية حسب السياق ؛ لقوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ [النساء : ١٠٥] ، وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : ٣] ، وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : ٤] .

فإن اختلف المعنى الشرعي واللغوي أُخذ بما يقتضيه الشرعي ؛ لأن القرآن نزل لبيان الشرع لا لبيان اللغة ، إلا أن يكون هناك دليل يترجح به المعنى اللغوي فيؤخذ به .

● **الشرح :** هذا الأخير وهو تفسيره بمقتضى اللغة العربية ؛ لأن القرآن نزل باللغة العربية فإذا لم يكن هناك عرف شرعي يخالف مقتضى اللغة أخذنا باللغة لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ جعلناه بمعنى صيرناه ، ولهذا نقول : « الهاء » مفعول أول ، و« قرآنًا عربيًّا » مفعول ثانٍ . وليس كما قال الجهمية : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاه ﴾ بمعنى خلقناه ، فإنه على رأيهم نجعل الهاء مفعول به وقرآنًا عربيًّا : حال . لكن هذا خطأ عظيم فإن قوله : ﴿ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ كقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ أي صيرناه لباسًا ، وهذا ﴿ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾

أي صيرناه قرآنًا عربيًا بلغة العرب ، وأما قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ فجعل هنا لا تتعدى إلا لواحد ، فهي بمعنى خلق . وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ ﴿ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ أي بلغتهم ، واللغة تسمى لسانًا لقوله تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ ويستفاد من قوله تعالى : ﴿ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ أنه يجوز أن يخطب الإنسان إذا كان يخاطب غير عرب أن يخطب بلغة هؤلاء المخاطبين ؛ لأنه إذا خاطبهم بلغة العرب لن يفهموا شيئًا ولن يستفيدوا .

﴿ جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾ هل المعنى أننا صيرناه لباسًا وهو قَبْلُ لم يكن لباسًا ؟ ليس بصحيح ، هذه دعوى باطلة .

مثال ما اختلف فيه المعنيان وقُدِّم الشرعي : قوله تعالى في المنافقين : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ [التوبة : ٨٤] ، فالصلاة في اللغة الدعاء ، وفي الشرع هنا الوقوف على الميت للدعاء له بصفة مخصوصة ، فيُقَدَّم المعنى الشرعي ؛ لأنه المقصودُ للمتكلِّم المعهود للمخاطَب ، وأما منع الدعاء لهم على وجه الإطلاق فمن دليل آخر .

● **الشرح** : لو رجعنا إلى اللغة لكان قوله : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا ﴾ لكان المراد لا تدعو لهم ، وليس كذلك ، بل المراد لا تقم عليهم مصليًا كما يُصَلَّى على الجنائز فقُدِّم هنا المعنى الشرعي . فإن قال قائل : إذا حملته على المعنى الشرعي فهل ذلك يعني أنه يجوز الدعاء لهم على سبيل الإطلاق ؟ الجواب : لا يجوز ، لكن من دليل آخر وهو قوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى ﴾ [التوبة : ١١٣] .

ومثال ما اختلف فيه المعنيان وقُدِّم فيه اللغوي بالدليل قوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] ، فالمراد بالصلاة هنا الدعاء ، بدليل ما رواه مسلم[١] عن عبد الله بن أبي أوفى قال : كان

(١) مسلم (١٠٧٨) .

النبي ﷺ إذا أُتي بصدقة قوم صلى عليهم. فأتاه أبي بصدقته فقال: « اللهم صل على آل أبي أوفى ».

● **الشرح**: إذن هنا قدمْنا المعنى اللغوي « صل عليهم » أي ادع لهم قدمنا المعنى اللغوي بدليل، وهو أن النبي ﷺ إذا جاءه الناس بصدقاتهم دعا لهم وإلا لكان قوله: ﴿صَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ الصلاة المخصوصة الشرعية. والخلاصة الآن أن المرتبة الخامسة في تفسير القرآن الرجوع إلى اللغة العربية، فإذا اختلف مدلول اللغة العربية ومدلول الشرع قُدِّم الشرع، إلا بدليل. هذه خلاصة الكلام.

وأمثلة ما اتفق فيه المعنيان الشرعي واللغوي كثيرة: السماء والأرض والصدق والكذب والحجَر والإنسان.

● **الشرح**: إذن ما هو السماء؟ كل ما علاك فهو سماء أو السماء السقف المحفوظ في اللغة أم في الشرع؟ بهما جميعًا. الأرض كذلك، الصدق: الإخبار بما يطابق الواقع، هذا هو الصدق في اللغة أو في الشرع؟ في اللغة والشرع. وكذلك الكذب: الإخبار بما يخالف الواقع في اللغة وفي الشرع، الحجر هو الحجر في اللغة والشرع، وكذلك الإنسان.

***

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور

الاختلاف الوارد في التفسير المأثور على ثلاثة أقسام:

الأول: اختلاف في اللفظ دون المعنى، فهذا لا تأثير له في معنى الآية، مثاله قوله تعالى: ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣]، قال ابن عباس: قضى: أمر. وقال مجاهد: وَصَّى. وقال الرَّبيع بن أنس: أوجب. وهذه التفسيرات معناها واحد أو متقارب، فلا تأثير لهذا الاختلاف في معنى الآية.

● **الشرح:** ويسمى هذا الاختلاف اختلاف لفظي، لا يؤثر، ولا يضر، ولا يصح أن تقول في الآية ثلاثة أقوال: قول بمعنى أمر، وقول بمعنى وصى، وقول بمعنى أوجب، لأن المعنى واحد.

الثاني: اختلاف في اللفظ والمعنى، والآية تحتمل المعنيين لعدم التضاد بينهما، فتحمل الآية عليهما وتفسر بهما، ويكون الجمع بين هذا الاختلاف أن كل واحد من القولين ذُكر على وجه التمثيل لما تعنيه الآية أو التنويع. مثاله قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦]. قال ابن مسعود: هو رجل من بني إسرائيل، وقال ابن عباس: أنه رجل من أهل اليمن، وقيل: رجل من أهل البَلْقاء.

والجمع بين هذه الأقوال: أنْ تُحمل الآية عليها كلها؛ لأنها تحتملها من غير تضاد، ويكون كل قول ذُكر على وجه التمثيل.

● **الشرح:** هذا اختلاف في اللفظ والمعنى، كيف كان اختلافًا في اللفظ والمعنى؟ لأن الرجل من بني إسرائيل غير الرجل من أهل اليمن، والرجل من أهل اليمن غير الرجل من أهل البَلْقاء. إذن فالآية تحتمل المعاني كلها، فتُحمل عليها كلها ويكون هذا الاختلاف من باب التمثيل. يعني مثال الرجل الذي آتاه الله آياته فانسلخ منها مثاله: الرجل الذي من بني إسرائيل، مثاله: الرجل الذي من أهل

اليمن ، مثاله : الرجل الذي من أهل البلقاء .

ومثاله الآخر قوله تعالى : ﴿ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴾ [النبأ : ٣٤] . قال ابن عباس : دهاقًا مملوءة . وقال مجاهد : متتابعة . وقال عكرمة : صافية .

ولا منافاة بين هذه الأقوال ، والآية تحتملها ، فَتُحمل عليها جميعًا ، ويكون كل قول لنوع من المعنى .

● **الشرح** : دهاقا مملوءة ، دهاقا متتابعة يعني يأتي كل واحد وراء الآخر ، دهاقًا صافية . هذه الأقوال لا منافاة بينها ، لأنه يمكن أن تكون مملوءة ومتتابعة وصافية ، فتحمل الآية على المعاني الثلاثة كلها ويكون المقصود ذكر كل نوع يعنى كل واحد ذكر نوعًا من المعنى ، وليس هذا يختلف عن الأول ؛ الأول كل واحد من الرجال الثلاثة غير الثاني : أما هذا فكل واحد هو الثاني ، لكن هذا الكأس موصوف بأنه مملوء ، موصوف بأنه صافي ، الكئوس موصوفة بأنها متتابعة .

القسم الثالث : اختلاف اللفظ والمعنى ، والآية لا تحتمل المعنيين معًا للتضاد بينهما ، فتحمل الآية على الأرجح منهما بدلالة السياق أو غيره .

مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْـمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْـخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النحل : ١١٥] ، قال ابن عباس : غير باغ في الميتة ، ولا عاد في أكلها . وقيل : غير خارج على الإمام ولا عاص بسفره ، والأرجح الأول ؛ لأنه لا دليل في الآية على الثاني ، ولأن المقصودَ بحِلّ ما ذُكر دَفْعُ الضرورة ، وهي واقعة في حال الخروج على الإمام وفي حال السفر الـمُحَرَّم وغير ذلك .

ومثال آخر قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ [البقرة : ٢٣٧] ، قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه في الذي بيده عقدة النكاح : هو الزوج . وقال ابن عباس : هو الوليّ . والراجح الأول لدلالة

المعنى عليه، ولأنه قد رُوي فيه حديث عن النبي ﷺ[(١)].

● **الشرح:** هذا هو القسم الثالث: إذا اختلف اللفظ والمعنى والآية لا تحتمل إلا معنى واحدًا، فماذا نصنع؟ يجب أن ننظر في المرجَّح فنأخذ به، والمرجوح ندعه، لأنه لا يمكن الجمع بين القولين. مثال ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ إلخ «الميتة» تفسيرها ما مات حتف أنفه أو بغير ذكاة شرعية. هذه الميتة. ما مات حتف أنفه يعني جاءه مرض ومات. أو بغير ذكاة شرعية يعني ذُكِّي لكن بغير ذكاة شرعية ويستثنى من الميتة السمك والجراد كما جاء في الحديث[(٢)]، ﴿الدَّمَ﴾ المراد به المسفوح كما قال تعالى في آية الأنعام: ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ ويستثنى منه الطِّحال والكبد[(٣)]، و﴿لَحْمَ الْخِنْزِيرِ﴾ معروف ولا يستثنى منه شيء. ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ أي سُمِّي عليه غير اسم الله ولو كان في الأصل حلالا، ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ﴾ أي ألجأته الضرورة إلى الأكل ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ قال ابن عباس: غير باغ في الميتة ولا عاد في أكلها. يعني غير طالب للميتة، ما يقصد أن يأكل شيئًا ميتًا. ولا عاد في أكلها يعني وإنما أكل بقدر الضرورة فقط. وهذا التفسير أرجح لأنه يؤيده قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١/١٧٤/أ)، والدارقطني (٣/٢٧٩)، والطبراني في الأوسط (٦٣٥٩)، والبيهقي (٧/٢٥١) وغيرهم. كلهم من طريق ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. وأخرجه الطبري (٢/٥٤٨) عن ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب مرفوعًا. قال البيهقي: هذا غير محفوظ، وابن لهيعة غير محتج به.

(٢) أخرجه الشافعي في مسنده (٢/١٧٣)، وعبد بن حميد (٨٢٠)، وابن ماجه (٣٢١٨، ٣٣١٤)، وأحمد (٢/٩٧)، والدارقطني (٤/٢٧١)، والبيهقي (١/٢٥٤) عن ابن عمر. قال في فتح الباري (٩/٩٢١): أخرجه أحمد والدارقطني مرفوعًا وقال: إن الموقوف أصح، ورجح البيهقي أيضًا الموقوف، إلا أنه قال: إن له حكم الرفع، وانظر تمام الكلام عليه في التلخيص الحبير (١/٢٥، ٢٦)، وخلاصة البدر المنير (١/١١)، ونصب الراية (٤/٢٠١).

(٣) هو جزء من الحديث السابق.

[المائدة : ٣] والقرآن يفسر بعضه بعضًا . وقيل : إن ﴿ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ ﴾ غير خارج على الإمام . أخذوه من البغاة وهم الذين يخرجون على الإمام ، والعادي المعتدي العاصي في سفره . وقالوا : مَن كان خارجًا على الإمام فإنه لا يأكل من الميتة ولو اضطر إليها . بل نقول : تب ثم كل . وكذلك من عصى بسفره - لا من عصى في سفره - فإننا نقول : لا يحل لك أكل الميتة حتى تتوب . وقلنا : إن الأول أصح ، لأنه لا دليل في الآية على الثاني ولأن المقصود بحل ما ذكر دفع الضرورة وهي واقعة في حال الخروج على الإمام وفي حال السفر المحرم وغير ذلك .

مثال آخر : ﴿ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ ﴾ « نصف » مبتدأ والخبر محذوف ، التقدير : « واجب » لمن ؟ لهن أو لكم ؟ يحتمل . لكن إن جُعل النصف للأزواج صار النصف للزوجات وإن جعل للزوجات صار النصف الباقي للأزواج . ولهذا الآية تصلح فنصف ما فرضتم لهن أو فنصف ما فرضتم لكم . لكن لهن أقرب إلى المعنى ، ﴿ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ ﴾ يعنى عن النصف الذي لهن وهنا يوجد إشكال ؛ وهو أنَّ « أنْ » هنا مصدرية ومع ذلك وُجدت النون ؟ ليست نون الرفع بل هي نون النسوة ﴿ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ فمن الذي بيده عقدة النكاح ، هل هو الولي أو الزوج ؟ فيه قولان : قال علي بن أبي طالب في الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج . وقال ابن عباس هو الولي . وكلاهما إمام في التفسير ، والراجح الأول لدلالة المعنى عليه ولأنه قد رُوي فيه حديث عن النبي ﷺ ، الراجح الأول لأنه لما قال : ﴿ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ ﴾ يعني النساء ﴿ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ يعني الأزواج . وهذا واضح والتقسيم يدل عليه . ثم إن الولي في عقد النكاح يغني عنه قوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ ﴾ ولو قلنا : ﴿ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ لكان ذكر العفو من جانب واحد وهو جانب المرأة ، ﴿ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ ﴾ النساء ﴿ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ الأولياء . فيكون ذكر العفو من جانب واحد ، فإذا قلنا : ﴿ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ ﴾ يعني النساء ﴿ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ ﴾ [الزوج] صار العقد

من جانبين فيكون أولى ؛ لأن **الأصل في الكلام** التأسيس وعدم التكرار والتوكيد[١] . ولأن الذي بيده **عقده النكاح هل يملك أن يعفو** عن نصف مهر المرأة ؟ إن كان الأب ففيه نظر ، **هل يملك أن يسقط حقها ؟ وإن** كان غير الأب فلا حق له إطلاقًا أن يعفو . **إن** كان **الأخ أو الابن ماله أن يعفو** . فتبين الآن أن القول بأن الذي بيده عقدة النكاح **هو الزوج هو الصحيح والزوج** هو الذي إن شاء قَبِل وإن شاء لم يقبل . لو قال **الولي** للزوج : زوجتك **بنتي ،** سكت ما تكلم ينعقد ؟ لا . قال : زوجتك بنتي ، أوجب مرة ثانية وهذا ساكت ، زوجتك بنتي ؟ (سكت لا ينعقد) إذن من الذي بيده عقدة النكاح ؟ **الزوج إذا شاء قال** : قبلتُ . وإذا شاء لم يقل قبلت . ثم إذا قَبِل ، من الذي **يملك الطلاق ؟** الزوج . إذن يملك بيده عقدة النكاح عقدًا وفسخًا . ومثل ذلك **أيضًا** ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ ما المراد بالقروء ؟ **اختلف فيها السلف** والخلف ، **فقيل هي** الحيض ، وقيل هي الأطهار . والصواب أنها **الحيض** كما دلت على ذلك السنة في المستحاضة[٢] وغيرها .

* * *

(١) هذه قاعدة فقهية ، لفظها المشتهر : « التأسيس أولى من التأكيد » . وانظر قواعد ابن رجب (القاعدة : ١٥٩) ، والأشباه والنظائر للسيوطي (ص١٣٥) ، وموسوعة القواعد الفقهية (٣/١٥١) .

(٢) انظر تعليقنا على شرح نظم الورقات – طبع مكتبة السنة – للمؤلف رحمه الله تعالى (ص١١١) .

ترجمة القرآن

الترجمة لغة: تُطلق على معانٍ ترجع إلى البيان والإيضاح.

● **الشرح**: وعلى هذا فالتفسير يسمى ترجمة. ولهذا إذا كلمك إنسان بكلام لا تعرف معناه تقول له: ترجم لي، هذا حتى وإن كان بلغتك تقول: ترجمه؛ أي بينه. فالترجمة والتفسير في اللغة معناهما واحد.

وفي الاصطلاح: التعبير عن الكلام بلغة أخرى.

● **الشرح**: التعبير عن الكلام بلغة أخرى. وهذا أصح من قول بعضهم: نقل الكلام من لغة إلى أخرى. لأن الكلام الأول ما نُقل ولكن عُبِّر عنه، وعلى هذا فهو التعبير عن الكلام بلغة أخرى. يعني غير لغة الكلام.

وترجمة القرآن: التعبير عن معناه بلغة أخرى.

والترجمة نوعان:

أحدهما: ترجمة حرفية، وذلك بأن يوضع ترجمة كل كلمة بإزائها.

الثاني: ترجمة معنوية أو تفسيريَّة، وذلك بأن يعبر عن معنى الكلام بلغة أخرى من غير مراعاة المفردات والترتيب.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف: ٣].

فالترجمة الحرفية: أن يترجم كلمات هذه الآية كلمة كلمة فيترجم «إِنَّا»، ثم «جَعَلْنَاهُ»، ثم «قُرْآنًا»، ثم «عَرَبِيًّا» وهكذا.

والترجمة المعنوية: أن يترجم معنى الآية كلها بقطع النظر عن معنى كل كلمة وترتيبها، وهي قريبة من معنى التفسير الإجمالي.

● **الشرح**: إذن الترجمة تنقسم إلى قسمين: حرفية ومعنوية. الحرفية: أن تُذكر ترجمة كل حرف بإزائه فيقال مثلا: جاء أي كذا. عبر عن جاء باللغة

الإنجليزية جاء أي come ، العلم نافع ، بالتركية فائدة للعلم . قريب من اللغة العربية نافع بمعنى فائدة . على كل حال الترجمة الحرفية تكتب كلمة بعدها معناها في اللغة الأخرى هذه ترجمة حرفية يراعى فيها الترتيب . الترجمة المعنوية أن تفهم معنى ثم تعبر عنه باللغة الثانية بقطع النظر عن مراعاة الترتيب أو شرح كل كلمة وحدها . الآن بعد أن عرفنا الفرق بين الترجمتين ما حكم ترجمة القرآن هل يجوز أن نترجم القرآن ترجمة حرفية أو أن نترجمه ترجمة معنوية ؟ هنا يكون الجواب .

حُكم ترجمة القرآن :

الترجمة الحرفية بالنسبة للقرآن الكريم مستحيلة عند كثير من أهل العلم، وذلك لأنه يُشترط في هذا النوع من الترجمة شروط لا يمكن تحققها معها، وهي :

أ- وجود مفردات في اللغة المترجم إليها بإزاء حروف اللغة المترجم منها.

ب- وجود أدوات للمعاني في اللغة المترجم إليها مساوية أو مشابهة للأدوات في اللغة المترجم منها.

ج- تماثل اللغتين المترجم منها وإليها في ترتيب الكلمات حين تكريبها في الجمل والصفات والإضافات.

● **الشرح** : الآن الترجمة الحرفية بالنسبة للقرآن مستحيلة . لماذا ؟ لأنه يُشترط في هذا النوع من الترجمة شروط لا يمكن تحققها معها . وهي : وجود مفردات في اللغة المترجم إليها بإزاء حروف اللغة المترجم منها . وهذا قد يتعذر ؛ لأنه يوجد في بعض اللغات حروف ساقطة فحروف اللغة العربية كم ، ثمانية وعشرون ومنها الضاد ، الضاد لا توجد في اللغات الأخرى . ولهذا يُروى عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا أفصح من نطق بالضاد » . وهذا الحديث ليس بصحيح[1] لكن قصدي أن

(١) قال ابن كثير في مقدمة تفسيره (١/٣١) : لا أصل له ، وقال علي القاري في المصنوع (ص٦١) : معناه صحيح ولا أصل له كما قال ابن كثير وابن الجوزي . وانظر الكلام عليه في كشف الخفاء (١/٢٣٢) .

الذين ينطقون بالضاد هم العرب وإذا كان كذلك فكيف يمكن الترجمة الحرفية وهي في بعض اللغات غير موجودة .

الثاني : وجود أدوات للمعاني في اللغة المترجم إليها مساوية أو مشابهة للأدوات في اللغة المترجم منها . وهذه أيضًا قد تكون متعذرة . أدوات المعاني ما هي ؟ مثل : أداة الاستفهام ، أداة النفي ، أداة التوكيد ، وما أشبه ذلك . هذه أدوات معاني ، هل هذه الأدوات توجد في اللغة الأخرى مساوية أو مشابهة لما في اللغة العربية ؟ قد يقال : نعم وقد يقال : لا ، ما توجد . وإذا كان كذلك فكيف تمكن الترجمة الحرفية وهي أن تكون الكلمة إلى جانب الكلمة الأخرى .

ثالثًا : تماثل اللغتين المترجم منها وإليها في ترتيب الكلمات . وهذا أيضًا لا يمكن حين تركيبها في الجمل والصفات والإضافات . الآن المعروف في اللغة العربية أن الخبر متأخر عن المبتدأ ، وفي اللغات الأخرى مقدم ، المضاف والمضاف إليه في اللغة العربية المقدم المضاف ، وفي غيرها المضاف إليه . ولهذا يقول : جاز خانت . يعني خانت جاز . لكن يقدمون . كذلك في الجمل تختلف الحركات الآن حركات اللغة العربية صفة في الحرف ، وفي غير العربية حرف مستقل .

وقال بعض العلماء : إن الترجمة الحرفية يمكن تحققها في بعض آية أو نحوها ، ولكنها - وإن أمكن تحققها في نحو ذلك - محرمة ؛ لأنه لا يمكن أن تؤدي المعنى بكماله ولا أن تؤثر في النفوس تأثير القرآن العربي المبين ، ولا ضرورة تدعو إليها للاستغناء عنها بالترجمة المعنوية .

● **الشرح :** إذن الترجمة الحرفية محرمة . هذا إذا قلنا بإمكانها . لكن على القول الأول الذي عليه الجمهور يقولون إنه لا تمكن الترجمة الحرفية . وذكرنا التعليلات ، لكن من العلماء من يقول : يمكن الترجمة الحرفية في بعض آية أو نحوها . ولكن نقول : هي محرمة ولو أمكن ، نقول : إنه لا يمكن لأنه تحرم

الترجمة الحرفية لماذا؟ لعلل أولا لأنها لا يمكن أن تؤدي المعنى بكماله. وهذا صحيح، لا من جهة التقديم والتأخير، ولا من جهة حروف المعاني والتوكيد، ولا من جهة الإضافات والتقديم والتأخير، ولا أن تؤثر في النفوس تأثير القرآن العربي المبين هذه علة ثانية، والقرآن إنما نزل واعظًا للقلوب ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ [يونس: ٥٧] ولأنه لا ضرورة تدعو إليها لماذا؟ للاستغناء عنها بالترجمة المعنوية. فلأجل هذه العلل الثلاث صارت الترجمة الحرفية إن أمكنت صارت حرامًا.

وعلى هذا فالترجمة الحرفية إنْ أمكنت حِسًا في بعض الكلمات فهي ممنوعة شرعًا، اللهم إلا أن يترجم كلمة خاصة بلغة مَنْ يخاطبه ليفهمها من غير أن يترجم التركيب كله فلا بأس.

● **الشرح:** يعني مثلا لو كلمة غريبة ترجمها لإنسان كلمة واحدة فقط دون مراعاة التركيب فهذا ضرورة ولا بأس به. كما لو كانت كلمة عربية تخاطب بها إنسانًا عربيًا لكن لا يعرف معناها. تقول: معناها كذا وكذا.

وأما الترجمة المعنوية للقرآن فهي جائزة في الأصل؛ لأنه لا محذور فيها، وقد تجب حين تكون وسيلة إلى إبلاغ القرآن والإسلام لغير الناطقين باللغة العربية؛ لأن إبلاغ ذلك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

● **الشرح:** إذن الترجمة المعنوية للقرآن الكريم حكمها بالأصل جائز، لكن إن توقف إبلاغ الشريعة عليها صارت الترجمة واجبة؛ لأن إبلاغ القرآن واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وبناء على ذلك نقول: ترجمة الخطبة يوم الجمعة واجبة لأن غير الناطقين باللغة العربية لا يدرون ماذا يقول أبدًا. إن كان الخطيب حيًا ينفعل ويتحرك وكأنه ينذر جيشًا يقول: صبحكم ومساكم. فهم ينفعلون بناء على أنه أي الخطيب ينفعل. وإذا كان يقرأ هكذا هَذًّا فإنهم لن يستفيدوا إطلاقًا. إذن نقول: إذا كان يتوقف على الترجمة إبلاغ الشريعة كانت الترجمة واجبة.

لماذا؟ لأن إبلاغ الشريعة واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

لكن يشترط لجواز ذلك شروط:

الأول: أن لا تُجعل بديلًا عن القرآن بحيث يستغنى بها عنه، وعلى هذا فلا بد أن يكتب القرآن باللغة العربية وإلى جانبه هذه الترجمة لتكون كالتفسير له.

الثاني: أن يكون المترجِم عالمًا بمدلولات الألفاظ في اللغتين المترجم منها وإليها وما تقتضيه حَسَب السياق.

الثالث: أن يكون عالمًا بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن.

ولا تقبل الترجمة للقرآن الكريم إلا مِنْ مأمون عليها، بحيث يكون مسلمًا مستقيمًا في دينه.

● **الشرح:** الترجمة المعنوية تجوز بهذه الشروط الثلاثة: الشرط الأول: أن لا تُجعل بديلًا عن القرآن، بحيث يكتب القرآن في الترجمة المعنوية ولا يقرأ القرآن. فإن هذا لا يجوز. بل لا بد من قراءة القرآن. وعلى هذا فأفضل سبيل في ذلك أن تجعل القرآن باللغة العربية في صفحة والترجمة في صفحة، أو في نصف صفحة والترجمة في نصف صفحة، حتى لا يفقد القرآن الكريم من المصحف.

ثانيًا: أن يكون المترجم عالمًا بمدلولات الألفاظ في اللغتين المترجم منها وإليها وما تقتضيه أي الألفاظ حسب السياق وهذا أمر لا بد منه. أن يكون عالمًا بمدلولات الألفاظ في لغته وبمدلولات الألفاظ في لغة القرآن، حتى يتمكن من التعبير عن هذه بهذه. وأما إذا كان ليس قويًا فلا يترجم ولا يقدم.

الثالث: أن يكون عالمًا بمعاني الألفاظ الشرعية في القرآن. يعني ما الصلاة الزكاة الحج، الغيبة وهكذا، فإن لم يكن عارفًا بذلك فإنه لا يجوز؛ لأنه ربما يفسرها بمقتضى اللغة العربية دون الحقيقة الشرعية. كمن فسر قوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾ قال: هن بنطلون. يصلح هذا؟ ما يصلح هذا. لكن على كل حال لا بد من أن يكون عالمًا بمعاني الألفاظ في اللغتين المترجم منها

والمترجم إليها .

هناك شرط رابع لا بد منه : وهو أن يكون موثوقًا . لكن هذا لا يعود إلى الترجمة ولذلك قلنا : ولا تقبل الترجمة للقرآن الكريم إلا من مأمون عليها . فالشروط الآن الثلاثة الأولى لحكم الترجمة إذا أراد الإنسان أن يترجم القرآن ، لكن هل نقبل الترجمة من كل ترجم القرآن وقال أنا ترجمته ؟ لا ، لا بد أن يكون مأمونًا أي ذا عقيدة سليمة نأمن منها أن يحرف القرآن على عقيدته ، فإن لم يكن مأمونًا فإنه لا يجوز أن نعتمد على ترجمته . وإني أذكر لكم قصة وقعت عليّ لتأخذوا منها عبرة . كنا نُحدث الناس في المطار في أيام الحج في مسجد المطار . ونتكلم باللغة العربية وجاءني رجل شيخ محترم في هندامه وشكله ، وقال : أنا أترجم لك . وكان أكثر الذين عندنا نيجيرين . قال : أنا أترجم لك . فأعجبني شكله هندامه وأنه رجل شيخ . قلت : جزاك الله خيرًا . بدأ يترجم لي وكان الصوت يخرج من المنارة في أثناء الترجمة وأنا أقرأ وهذا يلاحقني دخل علينا رجل ، قال : هذا الذي يترجم لك تراه ضد كلامك إذا قلت : هذا توحيد . قال : هذا شرك . وإذا قلت : هذا واجب . قال : هذا حرام – مشكلة – اجعلني أنا أترجم لك . سبحان الله العظيم أذهب من حية إلى حية ثانية .

ما نتكلم إلا بالعربية من فهم فليفهم ومن لم يفهم فلا علينا . حقيقة مشكل الائتمان والثقة لا بد منها ، والعلم بمدلولات الألفاظ لا بد منه . لو أن إنسانًا يريد أن يترجم لك في العقيدة وهو لا يعرف . عنده علم غزير في الفقه لكن ما يعرف في علم العقيدة . هل هو مأمون ؟ ليس بمأمون وإن كان حسن النية ؛ لأنه ما يعرف ، في العقيدة ألفاظ واصطلاحات لا توجد في الفقه ، وكذلك بالعكس . فالمسألة خطيرة ، ولهذا تجد أحيانًا التفسير المترجم بالقرآن يعني يشرف عليه عدة من العلماء ، وإذا تداوله الناس وجدوا أخطاء مهمة ، كل هذا ناتج عن إما عدم الأمانة وإما عدم المعرفة . لا إذا كان في [غير] العقيدة ما يخالف ، يترجم الصلاة

كتاب الزكاة الأخلاق الآداب ، أما أن يترجم العقيدة ثم ينقل هذا النصراني إلى إسلام محرف . ما يصلح . لكن نقول : لا بأس في الصلاة وفي الزكاة وفي الصيام . يعني هو يتكلم في قوم لا يعرفون لغته ما الفائدة إذا لم يترجم لهم؟ لا حاجة . ما دام لا يوجد عرب لا حاجة ، يتكلم في الخطبة باللغة التي هي لغة القوم ، لكن إذا جاءت الآيات قرأها بالعربية .

* * *

المشتهرون بالتفسير من الصحابة

اشتهر بالتفسير جماعة من الصحابة ، ذكر السيوطي منهم الخلفاء الأربعة أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليًا ، رضي الله عنهم ، إلا أن الرواية عن الثلاثة الأولين لم تكن كثيرة لانشغالهم بالخلافة وقلة الحاجة إلى النقل في ذلك لكثرة العالمين بالتفسير .

ومن المشتهرين بالتفسير من الصحابة أيضًا : عبد الله بن مسعود ، وعبد الله ابن عباس . فلنترجم لحياة علي بن أبي طالب مع هذين رضي الله عنهم .

● **الشرح :** الصحابة رضي الله عنهم لا شك أنهم أعلم الناس بتفسير كلام الله ، لكن اشتهر منهم أناس كالخلفاء الأربعة أبو بكر وعمر وعثمان وعلي . ولكن النقل عن الثلاثة الأولين قليل ؛ لأنهم مشتغلون بالخلافة ولأن الناس ليس عندهم جهل كثير بمعاني القرآن فليسوا بحاجة إلى أن يفسروه . ومن المشتهرين أيضًا عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس . فذكرنا الآن كم ؟ ستة : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس .

لماذا اخترنا على ابن أبي طالب على بقية الثلاثة ؟ لأن النقل عنه كثير .

١- علي بن أبي طالب[1] :

هو ابن عم الرسول ﷺ وزوج ابنته فاطمة ، رضي الله عنه وعنها ، وأول من آمن به من قرابته ، اشتهر بهذا الاسم ، وكنيته أبو الحسن ، وأبو تراب .

● **الشرح :** أما كونه أول من آمن به من قرابته هذا هو الصواب . وليس هو الأول على الإطلاق بل الأول على الإطلاق هو أبو بكر ، بل قبل أبي بكر ورقة بن نوفل ؛ لأن النبي ﷺ لما قص على ورقة ما رآه من الوحي آمن به ، وقال : « ليتني كنت فيها جذعًا ، ليتني معك إذ يخرجك قومك[2] . فأقر واعترف . لكن ذلك

---

(١) ترجمته ومصادرها في تهذيب الكمال (٢٠/٤٧٢) ، والنبلاء (ص٢٢٥- قسم الخلفاء) .

(٢) متفق عليه : البخاري (٤٩٥٣) ، ومسلم (١٦٠) .

قبل الرسالة فلهذا نقول : أول من آمن بنبوته من الرجال هو ورقة بن نوفل . لكن هل هو صحابي أو لا ؟ هو آمن قبل الرسالة . فإذا قلنا : إن من آمن به نبيًا فهو صحابي صار صحابيًا . ولو قلنا : لا يكون صحابيًّا إلا حيث توجه إليه الدعوة وذلك بعد رسالة النبي عليه الصلاة والسلام لم يكن من الصحابة . لكن أول من آمن به من الرجال بعد الرسالة هو أبو بكر كما أقر بذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه . أما من قرابة الرسول فأول من آمن به علي بن أبي طالب . كنيته أبو الحسن لأن أكبر أولاده الحسن . أبو تراب ؛ لأن النبي ﷺ كناه بذلك حين رآه نائمًا في المسجد وقد انحسر رداؤه وعلق التراب بجنبه من عرقه ، قال : قم أبا تراب فكني بذلك . وكان أحب الكنيتين إليه(١) .

ولد قبل بعثة النبي ﷺ بعشر سنين ، وتَربى في حِجر النبي ﷺ ، وشهد معه المشاهد كلها ، وكان صاحب اللواء في معظمها . ولم يتخلف إلا في غزوة تبوك ، خَلّفه النبي ﷺ في أهله وقال له : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ، إلا أنه لا نبي بعدي »(٢) .

● **الشرح** : لأن موسى قال لأخيه هارون ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ ﴾ والرسول عليه الصلاة والسلام قال لعلي : اخلفني في أهلي . فكان منه بمنزلة هارون من موسى في خلافته في أهله ، لا في الخلافة المطلقة كما زعمت الرافضة . بل هو بمنزلة هارون من موسى في هذه الخلافة فقط ؛ فإن عليًا رضي الله عنه قال : يا رسول الله أتدعني مع النساء والصبيان ؟ فقال : أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي . وعلى هذا فهي خلافة مخصوصة محصورة .

نُقل له من المناقب والفضائل ما لم ينقل لغيره . وهلك به طائفتان :

---

(١) متفق عليه : البخاري (٤٤١) ، ومسلم (٢٤٠٩) .

(٢) متفق عليه : البخاري (٣٧٠٦) ، ومسلم (٢٤٠٤) .

النواصب الذي نصبوا له العداوة وحاولوا إخفاء مناقبه، والروافض الذين بالغوا فيما زعموه من حبه وأحدثوا له من المناقب التي وضعوها ما هو في غِنًى عنه، بل هو عند التأمل مِن المثالب.

● **الشرح** : الرافضة الذين بالغوا فيما زعموه من حبه . وقولنا فيما زعموه ، لأن هذا هو الذي يظهرونه ولكن حقيقة الأمر أنهم يخالفونه في أشياء . فهو رضي الله عنه يعلن على منبر الكوفة أن خير هذه الأمة أبو بكر ثم عمر . وهم يقولون : لا ، ليس بصحيح . هو رضي الله عنه ممن روى أحاديث المسح على الخفين ، والروافض لا يقبلون هذا ولا يرون المسح على الخفين ، لذلك عبر بهذا التعبير : فيما يزعمونه من حبه وأحدثوا له من المناقب التي وضعوها ما هو في غنيّ عنه بل هو عند التأمل من المثالب ، ومن ذلك أنهم قالوا : إنه رضي الله عنه كان يصلى فيما بين المغرب والعشاء ألف ركعة[1] . وعدوا ذلك من مناقبه ، وقالوا : « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » قالوا : إن هذا علي بن أبي طالب[2] .

والحقيقة أن هذه من المثالب ، كونه يصلي فيما بين المغرب والعشاء ألف ركعة كيف تكون القراءة ، كيف الركوع ، كيف السجود ، كيف القيام ، كيف القعود ؟ أشد من النقر حركة تمر سيارة . يعني شيء عجيب . قال لهم شيخ الإسلام في رده عليهم في المنهاج[3] قال : إذا قلتم هذا فهذا من أكبر المثالب وإذا كان الرسول قال للأعرابي : إنك لم تصلِّ ، هذا أيضًا لم يصلِّ ، فلا تقبل صلاته . كذلك أيضًا كونه يؤدي الزكاة وهو راكع هل هذا منقبة أو مثلبة ؟ مثلبة ، الزكاة

---

(١) لم نقف عليه .

(٢) قال ابن كثير – بعد أن أورد الروايات التي وردت في أنها نزلت في عليّ –: وقد تقدم في الأحاديث التي أوردنا أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه حين تبرأ من حلف يهود ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين . « تفسير ابن كثير » [المائدة : ٥٥] .

(٣) منهاج السنة لابن تيمية (٤٩٨/٧) .

تؤدى في غير وقت الصلاة، في غير حال الصلاة لأنها لا تفوت. كونه يتحرى ويُهيئ له فقير يأتي إليه وهو راكع ثم يعطيه. هذا ليس منقبة. فالحاصل أنهم كما قال المؤلف: عدوا من مناقبه ما هو في الواقع من مثالبه، وأكثر ما ذكروا من المناقب هو في غنىً عنها رضي الله عنها، وله من المناقب ما هو أفضل منها وأعظم.

اشتهر رضي الله عنه بالشجاعة والذكاء مع العلم والذكاء، حتى كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتعوذ مِنْ مُعْضِلة ليس لها أبو حسن[1]، ومن أمثلة النَّحْويين: قضيةٌ ولا أبا حسنٍ لها.

● **الشرح**: وهذا معروف بأنه رضي الله عنه من أذكى الرجال ومن أعقل الرجال أيضًا. وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعظمه ويجله ويتعوذ من معضلة ليس لها أبو حسن، المعضلة يعني المسألة المشكلة التي تُعضل الإنسان وتقطع تفكيره. يقول: يتعوذ من هذه المعضلة إذا ليس لها أبو حسن. فإن كان لها أبو حسن انحلت.

وروي عن علي أنه كان يقول: سلوني، سلوني، وسلوني عن كتاب الله تعالى، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أَنَزَلَتْ بليلٍ أو نهار. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا جاءنا الثَّبْت عن علي لم نَعْدِل به، وروي عنه أنه قال: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب. كان أحد أهل الشورى الذين رَشَّحهم عمر رضي الله عنه لتعيين الخليفة، فعرضها عليه عبد الرحمن بن عوف فأبى إلا بشروط لم يقبل بعضها، ثم بايع عثمان فبايعه عليٌّ والناس، ثم بويع بالخلافة بعد عثمان، حتى قُتل شهيدًا بالكوفة ليلة السابع عشر من رمضان. سنة أربعين من الهجرة، رضي الله عنه.

* * *

---

(١) انظر فضائل الصحابة لأحمد (٢/٦٤٧)، وطبقات ابن سعد (٢/٣٣٩).

٢- عبد الله بن مسعود[1] :

هو عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي وأُمه أُم عَبْد كان ينسب إليها أحيانًا[2] ، وكان من السابقين الأولين في الإسلام وهاجر الهجرتين وشهد بدرًا وما بعدها من المشاهد .

تلقى من النبي ﷺ بضعًا وسبعين سورة من القرآن . وقال له النبي ﷺ في أول الإسلام : « إنك لغلام مُعَلَّم »[3] ، وقال : « مَنْ أحب أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أُنزل فليقرأه على قراءة ابن أُم عَبْد »[4] . وفي صحيح البخاري[5] أن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لقد عَلِمَ أصحابُ رسول الله ﷺ أني مِنْ أعلمهم بكتاب الله . وقال : والله الذي لا إله غيره ، ما أُنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت ، ولا أُنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن أُنزلت ، ولو أعلم أحدًا أعلمَ مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبتُ إليه .

● **الشرح :** هذا الكلام لا شك أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لا يريد أن يزكي نفسه به ؛ لأنه أطهر من ذلك لكنه أراد أن يحث الناس على تلقي التفسير ، لأن الناس إذا علموا أنه بهذه المنزلة من العلم أكبوا عليه وأخذوا منه . وهذا يقع لمن هو دون ابن مسعود رضي الله عنه ، انظر مثلا إلى ابن مالك في ألفيته يقول[6] :

تُقَرِّبُ الأَقْصَى بلَفْظٍ مُوجَزِ   وتَبْسُطُ البَذْلَ بِوعْدٍ مُنْجَزِ

(١) ترجمته ومصادرها في تهذيب الكمال (١٦/١٢١) ، والنبلاء (١/٤٦١) .

(٢) وذلك لأن أباه مات في الجاهلية وأدركت أمه الإسلام فأسلمت .

(٣) إسناده جيد . المسند (١/٣٧٩) .

(٤) صحيح . أخرجه أحمد (١/٤٤٥، ٤٥٤) ، وإسناده حسن ، وعند الحاكم (٣/٣١٧) عن علي ، وعند أحمد (١/٢٥، ٢٦) عن عمر ، وانظر النبلاء (١/٤٧٦) .

(٥) البخاري (٥٠٠٠) .

(٦) ألفية ابن مالك برقم (٤، ٥) – طبعة مكتبة السنة .

وتَقْتَضِي رِضًا بِغَيْرِ سُخْطِ   فائقةً ألفيةَ ابنِ مُعْطِي

هذا ثناء على المؤلِّف ، لكن هل قَصْده الفخر على ابن معطي أو أن يزكي نفسه ؟ لا ، الذي نعلم من حاله أنه لا يريد ذلك ، وإنما يريد بذلك أن يقبل الناس على هذا النظم ويأخذوا به . والله سبحانه وتعالى أعلم بالنيات .

وكم من كلمة أو فعل صدر من إنسانيين بينهما كما بين السماء والأرض .

وكان ممن خدَمَ النبيَّ ﷺ فكان صاحبُ نعليه وطَهوره ووِساده[(١)] ، حتى قال أبو موسى الأشعري : قدمت أنا وأخي من اليمن فمكثنا حينًا ما نَرى إلا أن عبد الله بن مسعود رجلٌ مِن أهل بيت النبي ﷺ لما نرى مِن دخوله ودخول أمه على النبي ﷺ[(٢)] . ومن أجل ملازمته النبي ﷺ تأثر به وبهديه حتى قال فيه حذيفة : ما أعرف أحدًا أقرب هَدْيًا وسَمْتًا وَدَلًّا بالنبي ﷺ مِن ابن أُم عَبْد[(٣)] .

● **الشرح :** هذا صحيح حتى إن كلامه رضي الله عنه يشبه كلام النبي عليه الصلاة والسلام واقرأ ما رواه مسلم في كتاب الصلاة[(٤)] : مَنْ سره أن يلقى الله غدا مسلمًا فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن إلخ الأثر » إذا قرأته تقول : هذا من كلام النبي ﷺ : « لأنه خالط النبيَّ ﷺ كثيرًا ، وكما قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه إنه بقي زمانًا يظن أن ابن مسعود من أهل بيت الرسول .

بعثه عمر بن الخطاب إلى الكوفة ليعلمهم أمور دينهم وبعث عمارًا أميرًا ، وقال : إنهما من النجباء من أصحاب محمد ﷺ فاقتدوا بهما ، ثم أَمَّرَهُ عثمان على الكوفة ثم عزله وأَمَرَهُ بالرجوع إلى المدينة ، فتوفي فيها سنة اثنتين وثلاثين ، ودفن بالبقيع وهو ابن بضع وسبعين سنة .

---

(١) انظر صحيح البخاري (٣٧٦١) ، والفتح (٩١/٧) .
(٢) البخاري (٣٧٦٣) ، ومسلم (٢٤٦٠) .
(٣) البخاري (٣٧٦٢) .
(٤) مسلم (٦٥٤) .

٣- عبد الله بن عباس[١] :

هو ابن عم رسول الله ﷺ ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، لازم النبي ﷺ لأنه ابن عمه . وخالته ميمونة تحت النبي ﷺ ، وضمه النبي ﷺ إلى صدره وقال : اللهمَّ عَلِّمْه الحِكْمَةَ[٢] . وفي رواية : الكتاب[٢] . وقال له حين وضع له وَضوءه : « اللهم فَقِّهْهُ في الدين »[٣] . فكان بهذا الدعاء المبارك حَبْرَ الأمة في نشر التفسير والفقه حيث وفقه الله تعالى للحرص على العلم والجدِّ في طلبه والصبر على تلقيه وبذله ، فنال بذلك مكانًا عاليًا حتى كان أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب يدعوه إلى مَجَالِسه ويأخذ بقوله ، فقال المهاجرون : ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس ؟ ! فقال لهم : ذاكم فتى الكهول ، له لسان سَؤُول وقلب عَقُول ، ثم دعاهم ذات يوم فأدخله معهم ليريهم منه ما رآه ، فقال عمر : ما تقولون في قول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ حتى ختم السورة ، فقال بعضهم : أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا فُتح علينا . وسكت بعضهم ، فقال عمر لابن عباس : أكذلك تقول ؟ قال : لا . قال : فما تقول ؟ قال : هو أَجَل رسول الله ﷺ أعلمه الله له ، ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ فتح مكة فذلك علامة أَجَلك ، ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ . قال عمر : ما أعلم منها إلا ما تعلم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : لَنِعْمَ تُرْجُمان القرآن ابن عباس ، لو أدرك أسنانَنا ما عاشره منا أحد . أي ما كان نظيرًا له . هذا مع أن ابن عباس عاش بعده ستًّا وثلاثين سنة ، فما ظنك بما اكتسب بعده من العلم .

● **الشرح :** هذا كلام ابن مسعود رضي الله عنه قبل أن يموت ابن عباس بأكثر من ست وثلاثين سنة ، فما ظنك بما اكتسب بعده من العلم في تفسير القرآن

(١) ترجمته ومصادرها في تهذيب الكمال (١٥/١٥٤) ، والنبلاء (٣/٣٣١) .

(٢) البخاري (٣٧٥٦) .

(٣) متفق عليه : البخاري (١٤٣) ، ومسلم (٢٤٧٧/١٣٨) .

وغيره ، هو كثير لا شك .

وقال ابن عمر لسائلٍ سأله عن آية : انطلقْ إلى ابن عباس فاسأله فإنه أعلم مَنْ بقي بما أُنزل على محمد ﷺ . وقال عطاء : ما رأيتُ قَطُّ أكرمَ مِن مجلس ابن عباس فقهًا وأعظم خشية ، إنَّ أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده ، وأصحاب الشِّعْر عنده ، يُصدرهم كلَّهم من واد واسع .

وقال أبو وائل : خطبنا ابن عباس وهو على الـمَوْسِم (أي والٍ على موسم الحج من عثمان رضي الله عنه) ، فافتتح سورة النور فجعل يقرأ ويفسر ، فجعلت أقول : ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله ولو سمعته فارس والروم والترك لأسلمت .

● **الشرح :** خطب مرة الناس من صلاة العصر إلى الغروب واستمر حتى حان وقت العشاء ، فقام رجل فقال : الصلاة يا ابن عباس ، فقال : أتعلمني السنة ، لقد جمع النبي ﷺ بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء في المدينة من غير خوف ولا مطر[١] . وهذا يدل على قدرته وقوته لا سيما إذا كان العصر في أيام الصيف سيكون طويلا . ومع ذلك استمر رضي الله عنه .

ولَّاه عثمان على موسم الحج سنة خمس وثلاثين ، وولاه عليٌّ على البصرة ، فلما قُتل مضى إلى الحجاز فأقام في مكة ، ثم خرج منها إلى الطائف فمات فيها سنةَ ثمانيةٍ وستين عن إحدى وسبعين سنة .

* * *

(١) انظر صحيح مسلم (٧٠٥) باختصار ، وهو في المستخرج لأبي نعيم (١٥٩٤) .

المشتهرون بالتفسير من التابعين

اشتهر بالتفسير من التابعين كثيرون، فمنهم:

أ- أهل مكة: وهم أتباع ابن عباس. كمُجَاهد وعِكْرمة وعَطَاء بن أبي رَبَاح.

ب- أهل المدينة: وهم أتباع أُبَيّ بن كَعْب، كَزَيْد بن أَسْلَم، وأبي العالية، ومحمد بن كَعْب القُرَظي.

جـ- أهل الكُوفة: وهم أتباع ابن مسعود. كقَتَادة وعَلْقَمة والشَّعْبي.

فلنترجم لحياة اثنين مِن هؤلاء: مُجاهد، وقَتَادة.

١- مُجاهد[1]:

هو مجاهد بن جَبْر المكي مولى السائب بن أبي السائب المخزومي، ولد سنة إحدى وعشرين من الهجرة، وأخذ تفسير القرآن عن ابن عباس رضي الله عنهما. روى ابن إسحاق عنه أنه قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عَرَضات من فاتحته إلى خاتمته أُوقفه عند كل آية وأسأله عنها. وكان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحَسْبك به. واعتمد تفسيرَه الشافعيُّ والبخاري وكان كثيرًا ما ينقل عنه في صحيحه.

وقال الذهبي في آخر ترجمته: أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به، توفي في مكة وهو ساجد سنة أربع ومائة عن ثلاث وثمانين سنة.

٢- قَتَادة[2]:

هو قَتَادة بن دِعامة السَّدُوسي البصري، وُلد أَكْمَه - أي أعمى - سنة إحدى وستين، وجَدَّ في طلب العلم، وكان له حافظة قوية، حتى قال عن نفسه:

---

(١) ترجمته ومصادرها في تهذيب الكمال (٢٧/٢٢٨)، وسير أعلام النبلاء (٤/٤٤٩).

(٢) ترجمته ومصادرها في تهذيب الكمال (٢٣/٤٩٨)، وسير أعلام النبلاء (٥/٢٦٩).

ما قلتُ لمحدِّث قَط أَعِدْ لي، وما سمعت أُذناي شيئًا قط إلا وعاه قلبي.

وذكره الإمام أحمد فأطنب في ذكره، فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير، ووَصَفه بالحفظ والفقه، وقال: قلّما تجد مَنْ يتقدمه، أما الـمِثْل فلعل.

● **الشرح:** قل من يتقدمه يعني أعظم منه، أما المثل فلعل، ما جزم أن يوجد له مثيل.

وقال: هو أحفظُ أهل البصرة، لم يسمع شيئًا إلا حفظه. توفي في واسط سنة سبع عشرة ومائة عن ستة وخمسين سنة.

● **الشرح:** صغير رحمه الله، هو رمي بالتدليس، لكنهم يقولون: إن روايته بلفظ «عَنْ» عن أنس بن مالك إنها متصلة، ولهذا يروي عنه البخاري ومسلم بهذه الصيغة أي بالعنعنة عن أنس[1].

* * *

(١) هذا الكلام ينطبق على حميد الطويل، فهو الذي يدلس عن أنس، ويقبله الشيخان وغيرهما؛ لأنه يسقط ثابتًا البناني، وهو ثقة. والله أعلم. وانظر: «التدليس في الحديث» (ص٢٩٣) د/ مسفر الدميني.

القرآن مُحكَم ومتشابه

يتنوع القرآن الكريم باعتبار الإحكام والتشابه إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: الإحكام العام الذي وُصف به القرآن كله، مثل قوله تعالى: ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]، وقوله: ﴿ الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ [يونس: ١]، وقوله: ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الزخرف: ٤].

ومعنى هذا الإحكام الإتقان والجودة في ألفاظه ومعانيه، فهو في غاية الفصاحة والبلاغة، أخباره كلها صدق نافعة، ليس فيها كذب ولا تناقض ولا لغو لا خير فيه، وأحكامه كلها عدل وحِكْمة، ليس فيها جَوْر ولا تعارض ولا حكم سفيه.

النوع الثاني: التشابه العام الذي وصف به القرآن كله مثل قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٣]، ومعنى هذا التشابه أن القرآن كله يشبه بعضه بعضًا في الكمال والجودة والغايات الحميدة: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

النوع الثالث: الإحكام الخاص ببعضه والتشابه الخاص ببعضه، مثل قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ٧].

ومعنى هذا الإحكام أن يكون معنى الآية واضحًا جليًا لا خَفاء فيه، مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي

﴿خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]، وقوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣]، وأمثالُ ذلك كثيرة.

● **الشرح**: هذا الإحكام والتشابه في القرآن، هذا على ثلاثة أنواع: إحكام عام، وتشابه عام، وإحكام خاص، وتشابه خاص، كله وُصف به القرآن، قال الله تعالى في وصف العام: ﴿الر * تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ فأنت ترى أن القرآن كله وصف بالحكمة، وأنه حكيم، وحكيم بمعنى مُحْكَم وبمعنى حاكم، لأن القرآن أداة الحكم، ومعنى هذا الإحـ الإتقان والجودة في ألفاظه ومعانيه، فكله محكم متقن جيد في أعلى ما يكون ولكن هل هو يتفاضل في هذا الباب؟ الجواب: أما من حيث المتكلِّم به فإنه لا يتفاضل؛ لأن المتكلم به واحد وهو الله. أما من حيث الأسلوب والمعنى فإنه يتفاضل، قال النبي ﷺ حين سأل أُبيَّ بن كعب: أي آية في كتاب الله أعظم؟ قال: آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٤] فضرب على صدره وقال: لِيَهْنِكَ العلمُ يا أبا المنذر[١]. وقال في الفاتحة: إنها أعظم سورة في كتاب الله[٢]. وقال في قل هو الله أحد: إنها تعدل ثلث القرآن[٣]. فالقرآن يتفاضل من حيث الوجه، أما من جهة المتكلم به فلا يتفاضل، التشابه الآن هو أن القرآن يشبه بعضه بعضًا في الكمال والجودة والأحكام والإحكام والأخبار وغيرها، لقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ ما قال: بعضه متشابه، كله ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٠).

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٠٦).

(٣) أخرجه البخاري (٥٠١٣) عن أبي سعيد الخدري، ومسلم (٨١١) عن أبي الدرداء و(٨١٢) عن أبي هريرة.

ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ، فهو يشبه بعضه بعضًا في الكمال والجودة والإتقان وغير ذلك . ولهذا كان جميع القرآن معجزة ، وآية منه من أية سورة معجزة ، أما الثالث : فهو أن بعض القرآن محكم وبعضه متشابه . فما معنى الإحكام والتشابه هنا ؟ الإحكام : الواضح ، المحكم يعني الواضح البين الذي لا يحتاج إلى تأمل طويل ولا يختلف الناس فيه ، دليله قوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ يعني يتبعون المتشابه ويحصرونه ويوردونه على الناس ليلبسوا عليهم دينهم ﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ فقسم الله تعالى القرآن إلى قسمين لقوله : ﴿مِنْهُ آيَاتٌ﴾ هذه « من » للتبعيض ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ فما معنى الإحكام والتشابه هنا ؟ الإحكام يعني به أنه محكم واضح لا يشتبه على أحد ، والمتشابه انه يخفى على بعض الناس وبهذا نعرف أنه لا تناقض بين وصف القرآن كله بالإحكام ووصفه كله بالتشابه ووصفه بعضه بالإحكام وبعضه بالتشابه . قال : ومعنى هذا التشابه أن يكون معنى الآية مشتبهًا خفيًا بحيث يتوهم منه الواهم ما لا يليق بالله إلخ .

ومعنى هذا التشابه أن يكون معنى الآية مشتبهًا خفيًا بحيث يَتوهَّم منه الواهم ما لا يليق بالله تعالى أو كتابه أو رسوله ، ويفهم منه العالمُ الراسخ في العلم خلافَ ذلك .

● **الشرح** : سبق لنا أن القرآن وصف بأنه كله محكم ، وأنه كله متشابه ، وأن منه محكمًا ومتشابهًا . فأما الإحكام العام فهو الإتقان والجودة وعدم الكذب في أخباره أو الجور في أحكامه أو التناقض . وأما التشابه العام فهو أن بعض القرآن يشبه بعضًا في الكمال والجودة والبلاغة وغير ذلك من مكملات الكلام . وأما التشابه الخاص في بعضه والإحكام الخاص ببعضه فالإحكام معناه الوضوح بحيث يعرفه كل أحد ولا يخفى على أحد . والتشابه هو الذي يشتبه على بعض الناس ولا يعرفه

إلا الراسخون في العلم . ونحن الآن بصدد الكلام على تشابه الإحكام الخاص والتشابه الخاص وسبق الكلام على الإحكام الخاص وأنه واضح مثل السماء والأرض وما أشبهها . التشابه الخاص هو أن يكون مشتبهًا على بعض الناس دون بعض ، فإن قال قائل : ما الحكمة في وجود التشابه الخاص ؟ الحكمة في ذلك هو الامتحان والابتلاء ليعلم الله عز وجل مَنْ في قلبه زَيْغ ومَنْ ليس في قلبه زيغ ؛ لأن من في قلبه زيغ يتبع المتشابه ليضرب كلام الله بعضه ببعض ، وأما الذي أعطاه الله الرسوخ في العلم فإنه يعرف كيف يتخرج من هذا المتشابه . وضربنا لهذا أمثلة .

ومثاله فيما يتعلق بالله تعالى أن يتوهم واهم من قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] أن لله يدين مماثلتين لأيدي المخلوقين .

ومثاله فيما يتعلق بكتاب الله تعالى أن يتوهم واهم تناقضَ القرآن وتكذيبَ بعضه بعضًا حين يقول : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] ، ويقول في موضع آخر : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [النساء : ٧٨] .

ومثاله فيما يتعلق برسول الله أن يتوهم واهم من قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [يونس : ٩٤] أن النبي ﷺ كان شاكًّا فيما أُنزل إليه .

● **الشرح :** هذا التشابه فيما يتعلق بالله وفيما يتعلق بكتاب الله وفيما يتعلق برسول الله ﷺ . أما الأول فيما يتعلق بالله عز وجل أن يتوهم واهم من قوله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ أنهما تشبهان أيدي المخلوقين . وكيف يبني هذا الوَهْم ؟ يقول : إن الله خاطبنا في القرآن بما نعلم ونحن لا نعلم يدًا إلا مثل أيدي المخلوقين . وهذا يقتضي أن تكون يد الله متشابهة لأيدي المخلوقين .

مثاله فيما يتعلق بكتاب الله يقول : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا

أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ ﴾ ويقول : ﴿ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ ففي الآية الأولى يقول : إن إصابة السيئة من نفسك ، وفي الثانية يقول : إن إصابة السيئة من عند الله . وهذا تناقض ، كيف تكون إصابة السيئة مرة من عند الله ومرة من عند أنفسكم ؟ فيقول : هذا تناقض . وكذلك مثلها في الآيات وقد ألَّف الشيخ الشنقيطي رحمه الله كتابًا سماه « دفع إيهام الاضطراب في أي الكتاب » .

أما مثاله فيما يتعلق برسول الله فهو قوله : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ . وجه التشابه أن ظاهره أن النبي ﷺ كان شاكًا ، ولهذا أحاله على الذين يقرؤن الكتاب من قبله ثم قال : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ .

* * *

موقف الراسخين في العلم والزائغين من المتشابه

إن موقف الراسخين في العلم من المتشابه وموقف الزائغين منه بينه الله تعالى فقال في الزائغين: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران: ٧]، وقال في الراسخين في العلم: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ﴾ [آل عمران: ٧]، فالزائغون يتخذون من هذه الآيات المتشابهات وسيلةً للطعن في كتاب اللَّه، وفتنة الناس عنه، وتأويله لغير ما أراد اللَّه تعالى به، فَيَضِلون ويُضِلون.

وأما الراسخون في العلم فيؤمنون بأن ما جاء في كتاب اللَّه تعالى فهو حق وليس فيه اختلاف ولا تناقض؛ لأنه من عند اللَّه: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، وما جاء مشتبهًا ردوه إلى المحْكَم ليكون الجميع مُحْكَمًا.

ويقولون في المثال الأول: إن لله تعالى يدين حقيقتين على ما يليق بجلاله وعظمته لا تماثلان أيدي المخلوقين، كما أن له ذاتًا لا تُماثل ذوات المخلوقين؛ لأن اللَّه تعالى يقول: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

● **الشرح**: إذن هذه الآية من المشتبه وانقسم الناس فيها إلى ثلاثة أقسام: قسم قالوا: هي مماثلة لأيدي المخلوقين. وعلتهم في ذلك أن الله خاطبنا بما نعلم ونحن لا نعلم إلا ما نشاهد. وهؤلاء هم الممثِّلة. والثاني: قالوا: إن ظاهر الآية التمثيل ولهذا يجب أن نصرفها عن ظاهرها إلى أمر معنوي، ونقول: اليد بمعنى النعمة أو بمعنى القدرة. القسم الثالث من الناس في هذه الآية قالوا: نثبت لله تعالى يدين حقيقتين لكن لا تماثلان أيدى المخلوقين، أما إثبات اليدين فلأن الله أثبتهما لنفسه وهو أعلم بنفسه منا وأما كونهما لا تماثلان أيدى المخلوقين فلأن الله تعالى قال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ هذا دليل سمعي.

دليل عقلي: إذا كان لله ذاتٌ لا تشبه ذوات المخلوقين فليكن له صفات لا

تشبه صفات المخلوفين ؛ لأن الصفات تابعة للذات . وكلنا يعرف أن اليد المضافة إلى الجمل ليست كاليد المضافة إلى الأرنب مثلا . بمجرد ما يقول الإنسان يد أرنب يعرف أنها يد صغيرة تليق بالأرنب ، أو يقول : يد جمل . يعرف أنها يد كبيرة تليق بالجمل ، فصفات كل شيء تناسبه . فإذا كنت أيها المعطِّل تثبت أن لله ذاتًا ، لأنه لو أنكر أن لله ذاتًا لكفر لأن هذا جَحْد مطلق . لكن يقول : لله ذات . هل تقول : إنها تماثل ذوات المخلوقين ؟ سيقول : لا . إذن أثبت صفات لا تماثل صفات المخلوقين ؛ لأن الكلام عن الصفات فرع عن الكلام في الذات . وهذا قياس واضح .

ويقولون في المثال الثاني: إن الحسنة والسيئة كلتاهما بتقدير الله عز وجل، لكن الحسنة سببها التفضل من اللَّه تعالى على عباده، أما السيئة فسببها فِعْل العبد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، فإضافة السيئة إلى العبد من إضافة الشيء إلى سببه لا من إضافته إلى مُقَدِّره، أما إضافة الحسنة والسيئة إلى اللَّه تعالى فمن باب إضافة الشيء إلى مُقَدِّره، وبهذا يزول ما يوهم الاختلاف بين الآيتين لانفكاك الجهة.

● **الشرح :** إذن إضافة السيئة إلى الإنسان إضافة شيء إلى السبب ، وإضافتها إلى الله إضافة الشيء إلى مقدره . وبينهما فرق ، وإذا انفكت الجهة زال التعارض ؛ لأن التعارض إنما يكون فيما إذا ورد الشيئان على شيء واحد ، أما مع انفكاك الجهة فلا تعارض لكن أهل الباطل يتخذون من مثل ذلك وسيلة إلى الطعن في القرآن .

فيه أيضًا آية أخرى يقول الله تعالى عن المكذبين : ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء : ٤٢] وفي آية أخرى ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام : ٢٣] ففي الآية الأولى نفى أن يكتموا الله ، وفي الثانية أثبت أنهم يكتمون . فيأتي إنسان

ويقول : هذا القرآن يتناقض ، القرآن يقول : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٦] ويقول : ﴿ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴾ [طه : ١٠٢] هذا تناقض . لكن الراسخين في العلم يجيبون عن هذا ، يقول مثلا : يوم القيامة ما مقداره ؛ ساعة . الجواب ؟ يوم ، شهر ، سنة ، مئة سنة ، خمسون ألف سنة . تتغير الأحوال مرة يكتمون ومرة لا يكتمون ، مرة تكون الوجوه سودًا ومرة تكون زرقا . أو يُحمل على أن الأزرق شديد الزرقة يميل إلى السواد . فيصح أن يكون أسود أو أن يوصف بأنه أسود بهذا الاعتبار . والمهم أنه يفرق بين إنسان يأتي بمثل هذه المتشابهات من أجل أن يطعن فيها يتناقض بعضها بعض ، وبين إنسان تمر عليه ويحاول أن يجمع بينها . فإن الأول لا يُفتح عليه ولا يوفق للجمع ، والثاني هو الذي يوفق . ونظير هذا ما يطنطن به بعض الطلبة ، تجده بمجرد ما يشتبه عليه حديثان يأتي بهما على وجه التماس التعارض ، ولو أنه فكر قليلا لعرف أنه لا تعارض ، وهذا يرد كثيرًا من بعض الطلاب يحب الإغراب في الشيء ، بمجرد ما يتوهم أن هناك تعارضًا بين حديثين أو آيتين يأتي ويقول : كيف كذا وكيف كذا ، ما الجمع بين كذا وكذا ؟ مع أنه لو تأمل أقل تأمل لعرف أنه لا تناقض .

ويقولون في المثال الثالث : إن النبي ﷺ لم يقع منه شك فيما أُنزل إليه ، بل هو أعلم الناس به وأقواهم يقينًا ، كما قال الله تعالى في نفس السورة : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [يونس : ١٠٤] . المعنى : إن كنتم في شك منه فأنا على يقين منه ، ولهذا لا أعبد الذين تعبدون من دون الله ، بل أكفر بهم ، وأعبد الله .

● **الشرح** : هذه الآية من أصعب ما يكون : ﴿ إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ فيقول : هذا الرسول عليه الصلاة والسلام يشك ! نقول : لم يقل له ذلك عن شك في رسوله ، وكيف يكون ذلك وهو قد قال في نفس السورة : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ ﴾ [يونس : ١٠٤]

والمعنى إن كنتم في شك فأنا على يقين، فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم.

ولا يلزم مِن قوله: ﴿ فَإِنْ كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ أن يكون الشك جائزًا على الرسول ﷺ أو واقعًا منه، ألا ترى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١] هل يلزم منه أن يكون الولد جائزًا على اللَّه تعالى أو حاصلًا؟ كلا، فهذا لم يكن حاصلًا ولا جائزًا على اللَّه تعالى، قال اللَّه تعالى: ﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ [مريم: ٩٢ - ٩٣].

ولا يلزم من قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أن يكون الامتراء واقعًا من الرسول ﷺ؛ لأنَّ النهي عن الشيء قد يُوَجَّه إلى مَنْ لم يقع منه، ألا ترى قولَه تعالى: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [القصص: ٨٧]، ومن المعلوم أنهم لم يصدُّوا النبيَّ ﷺ عن آيات الله، وأن النبي ﷺ لم يقع منه شرك. والغرض مِنْ توجيه النهي إلى مَنْ لا يقع منه التنديد بمن وقع منهم والتحذير مِنْ منهاجهم، وبهذا يزول الاشتباهُ وظَنُّ ما لا يليق بالرسول ﷺ.

● **الشرح**: هذه الآية كما عرفتم أهل الزيغ يتخدون منها طَعْنًا بمن؟ بالرسول ﷺ. ومعلوم إذا ثبت الطعن لم يصح أن يكون رسولا. لكن نقول: إنه لا يلزم من قوله: ﴿ إِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ﴾ أن يكون الشك جائزًا، ولا أن يكون واقعًا من الرسول عليه الصلاة والسلام، لا يلزمه، لكن إنْ فُرض أن يكون فاسأل. ولهذا فَرَّق العلماء بين «إن» و«إذا» وكلاهما شرطيتان. قالوا: «إذا» تفيد الوقوع، و«إن» لا تفيده بل قد تأتي في أمحل المحال. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١] هل يلزم من هذا أن يتخذ الله ولدًا؟ لا يلزم، ولا يمكن أن يتخذ الله ولدًا لقوله تعالى: ﴿ وَمَا

يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ إذن ما معنى الآية ؟ ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ معناها إن فُرض أن له ولدًا فأنا أول العابدين لهذا الولد فلا أنكره . لكن هذا أمر غير ممكن ، وإذا كان غير ممكن . يعني إذا امتنع الشرط ، امتنع المشروط كقول الشاعر : [الوافر]

إذا شاب الغرابُ أتيتُ أهلي وصار القارُ كاللبن الحليبِ[1]

ومعلوم أن الغراب لا يشيب ، وأن القار الأسود لا يكون كاللبن الأبيض . فكذلك هنا يعنى على فرض أن له ولدًا فأنا أول مَنْ يعبد هذا الولد لأنه ولد الله جزء منه ، ولكن هذا مستحيل . هذا القول هو أحسن الأقوال ولا يحتاج إلى تقدير ولا إلى تمحل ، وقيل : إنّ « إنْ » نافية ، والمعنى قل : ما كان للرحمن ولد . لأن « إنْ » تأتي بمعنى النفي وهي كثيرة في القرآن ، فيكون قل : ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين . يُشْكِل وجه ارتباطها بالجملة التي قبلها . يعني ما هي المناسبة أن تقول ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين . هذه لا يمكن إلا إذا أَوَّلنا العابدين بمعنى المؤمنين ، ما كان للرحمن ولد فأنا أول المؤمنين بذلك . أي بأنه لا ولد له ، وتكون العبادة مطلقة على الإيمان بجامع الذل في كل منهما . فهذان قولان هما أشهر الأقوال في هذه الآية وهي من أعوص آيات القرآن الكريم .

يقول الملحد : سَلَّمنا ما ذكرتَ في قوله : ﴿ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ ﴾ وأنه لا يلزم من هذا الشرط وقوع المشروط ، لكن ماذا تقول : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ ؟ أجاب عنه المؤلف بقوله : ولا يلزم من قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ أن يكون الامتراء واقعًا من الرسول بأن النهي عن الشيء قد يوجه إلى من لم يقع منه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [القصص : ٨٧] ومن المعلوم أنهم لم يصدوا الرسول ﷺ عن آيات الله ، وأن النبي ﷺ لم يقع منه شرك .

(١) ذكره أبو نعيم في الحلية (٢٨٩/٧) ، وابن قدامة في المغني (٣٥٩/٧) وهو من بحر الوافر .

فالنهي عن الشيء لا يلزم منه وقوع الشيء، ولا جواز وقوع الشيء أيضًا. انظر ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ﴾ هذا نهي عن الصد، فهل هذا يعني أن الصد واقع؟ لا يلزم. وهل يلزم أن يجوز؟ لا يلزم أنه جائز أن يصدوه، بل ولا يمكن أن يصدوه؛ لأن اللّه تعالى قال: ﴿ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٥] ﴿ لَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ ﴾ إذن الرسول مُثَبَّت لا يمكن أن يصده هؤلاء. وعلى هذا فلا يلزم من النهي عن كونه من الممترين أن يقع منه الامتراء أو أن يجوز عليه الامتراء. كما أن قوله: ﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ لا يلزم منه وقوع الشرك ولا جواز وقوع الشرك من الرسول عليه الصلاة والسلام. إذنْ ما الغرض وما الفائدة أن يوجه النهي إلى من لا يمكن أن يقع منه ما نهي عنه. استمع إلى الجواب: والغرض من توجيه النهي إلى من لا يقع منه التنديد بمن وقع منهم والتحذير من منهاجهم، على حد قول قائل: إياك أعني واسمعي يا جارة[1]، يعني ما هو الرسول الذي يمتري أو يشرك، لكن التنديد بهؤلاء الذين امتروا وشكوا وأشركوا. وبهذا يزول الاشتباه وظن ما لا يليق بالرسول ﷺ.

* * *

(١) قال في كشف الخفاء (١/١٤١): هو مثل قاله الحجاج لأنس بن مالك حين شكا منه.

أنواع التشابه في القرآن

التشابه الواقع في القرآن نوعان:

أحدهما: حقيقي؛ وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر كحقائق صفات اللَّه عز وجل، فإننا وإن كنا نعلم معاني هذه الصفات لكننا لا ندرك حقائقها وكيفيتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ولهذا لما سُئِل الإمام مالك رحمه اللَّه تعالى عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وهذا النوع لا يُسأل عن استكشافه لتعذر الوصول إليه.

● **الشرح:** التشابه الواقع في القرآن نوعان: الأول حقيقي وهو ما يخفى على كل أحد ولا يمكن الوصول إلى معرفته. هذا مشتبه حقيقي. موقفنا منه: أن نكِل علمه إلى الله عز وجل ونقول: الله أعلم. مثاله: حقائق صفات الله عز وجل فإن حقائق هذه الصفات لا تُعلم، نحن نعلم المعنى ولكن لا نعلم الكُنْه والحقيقة، دليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] مهما كان الإنسان عالمًا وذكيًا فإنه لا يمكن أن يحيط بالرب علمًا أبدًا، ولا يعلم من علم الله إلا ما عَلَّمه الله كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣] الأبصار لا تدركه وإن رأته، وهو يدرك الأبصار، وقد استدل بهذه الآية من يرى أن الله لا يُرى في الآخرة، وقال: إن الله يقول: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ والحقيقة أن الآية حجة عليه وليست حجة له؛ لأن نفي الإدراك يدل على وجود أصل الرؤيا. ولو كان أصل الرؤيا غير موجود لكان نفي الإدراك قصورًا ولغوًا من القول لا فائدة منه. ولما سئل الإمام مالك رحمه الله عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى

الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول. ما معنى غير مجهول؟ أي معلوم المعنى في اللغة العربية. والكيف غير معقول. أي لا يدرك بالعقل وإذا لم يدرك بالعقل فلا مرد إلا إلى السمع والسمع لم يرد به. وهنا أقول: إن بعض الطلبة لا يدري ما معنى السمع أو العقل؟ والجواب: ما كان دليله الكتاب والسنة فهو ثابت بالسمع، لأن الكتاب والسنة مسموعات، وما كان دليله النظر فهو العقل، ولهذا يسمى المتكلمون يُسَمَّوْن النُّظَّار، لأنهم ادَّعَوْا أنهم هم أهل العقول، إذن الكيف غير معقول. ما الذي يبقى في الاستدلال عليه؟ السمع. والسمع لم يرد به فوجب الكف عنه، والإيمان به واجب أي الاستواء، والسؤال عنه أي عن كيفيته بدعة. هذا النوع يقول المؤلف: لا يُسأل عن استكشافه والنفي هنا للكراهة أو للتحريم؟ الظاهر أنها للتحريم. هي تحتمل المعنيين، لكن الظاهر أنها للتحريم، لأن مالك بن أنس رحمه الله اشتد في السؤال عن الكيفية، وقال للسائل: ما أراك إلا مبتدعًا وأمر به أَنْ يُخرج من المسجد[1].

النوع الثاني: نسبي؛ وهو ما يكون مشتبهًا على بعض الناس دون بعض، فيكون معلومًا للراسخين في العلم دون غيرهم، وهذا النوع يُسأل عن استكشافه وبيانه لإمكان الوصول إليه؛ إذ لا يوجد في القرآن شيء لا يتبين معناه لأحد من الناس، قال الله تعالى: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨].

● **الشرح**: انظر ﴿بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾ كل الناس، ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾ لمن؟ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ يعني لا يهتدي به ويتعظ به إلا المتقون، أما البيان فهو بيِّن.

وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٨، ١٩]، وقال: ﴿يَا

(١) أخرجه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/٣٩٨)، وأبو نعيم في الحلية (٦/٣٢٥- ٣٢٦)، وانظر سير أعلام النبلاء (٨/٨٩- ٩٠).

أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ [النساء: ١٧٤].

● **الشرح :** ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ إذن هو بَيِّنٌ ، لأن المبيِّنُ للشيء لا بد أن يكون هو بيّنًا . وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ إذا قرأناه : يعني إذا قرأه جبريل عليك ، ونَسَبَ الله قراءة جبريل إليه لأنه رسوله إلى محمد ، قال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ بيانه لفظًا أو معنى ؟ كلاهما . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ والبرهان والنور لا بد أن يكون بينا ، ولا يمكن أن يوجد في القرآن شيء لا يعلم أحدٌ معناه أبدًا .

وأمثلة هذا النوع كثيرة ؛ منها قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى: ١١] حيث اشتبه على أهل التعطيل ففهموا منه انتفاء الصفات عن الله تعالى ، وادَّعَوْا أن ثبوتها يستلزم المماثلة ، وأعرضوا عن الآيات الكثيرة الدالة على ثبوت الصفات له ، وأن إثبات أصل المعنى لا يستلزم المماثلة .

● **الشرح :** هذه الآية ضل فيها طائفتان : طائفة غلوا في إثباتها وقالوا : إنها تدل على نفي كل صفة . لماذا ؟ قالوا : لأنك إذا أثبت أي صفة فقد مثلت ! وهؤلاء هم أهل التعطيل . وبعضهم قال : إنه ليس كمثله شيء في الصفات الخبرية فقط ، كالوجه واليدين وأشباه ذلك . وبعضهم قال : إنه ليس كمثله شيء في كل الصفات ، وأن نفي المِثْل يدل على ثبوت أصل المعنى لأنه لولا ثبوت أصل المعنى لكان نفي المثل لغوًا لا فائدة منه .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] ، حيث اشتبه على الوعيدية ففهموا منه أن قاتل المؤمن عمدًا مخلدٌ في النار ، وطردوا ذلك في جميع أصحاب الكبائر ، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن كل ذنب دون الشرك فهو تحت مشيئة الله تعالى .

● **الشرح** : من هم الوعيدية ؟ هم المعتزلة والخوارج . هم الوعيدية لأنهم قالوا بنصوص الوعيد وأعرضوا عن نصوص الرجاء . فالمعتزلة قالوا : فاعل الكبيرة مخلد في النار . والخوارج قالوا : فاعل الكبيرة مخلد في النار . لكن الخوارج أجرأ على حكمهم من المعتزلة قالوا : هو كافر ؛ لأن حكم الخلود لا يكون إلا للكافرين . وكَفَّرُوا كل فاعل كبيرة واستحلوا دماء المسلمين بناء على هذا الأصل الخبيث . والمعتزلة كانوا جبناء قالوا : لا نقول مؤمن ولا كافر ، هو في منزلة بين منزلتين فلا يجوز أن نصفه بالإيمان ولا أن نصفه بالكفر . لكن في الآخرة يوافقون الخوارج ويقولون : هو مخلد في النار .

ومنها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٠]، حيث اشتبه على الجَبْرية ، ففهموا منه أن العبد مجبور على عمله ، وادَّعَوْا أنه ليس له إرادة ولا قدرة عليه ، وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن للعبد إرادة وقدرة ، وأن فعل العبد نوعان : اختياري ، وغير اختياري .

والراسخون في العلم أصحاب العقول يعرفون كيف يُخَرّجون هذه الآيات المتشابهة إلى معنى يتلاءم مع الآيات الأخرى فيبقى القرآن كله مُحْكمًا لا اشتباه فيه .

● **الشرح** : ولم يذكر المؤلف كيف تُخَرَّج هذه الآيات ، مع أنه في القسم الأول خرجها من أجل أن يكون الطالب هو الذي يحاول أن يخرجها ، فيكون الأول فَتْحًا للباب والثاني يأتي والباب مفتوح . فمن يخرج لنا الآيات الأولى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ يقول : هذا من باب التهديد وليس على سبيل الحقيقة ، وإنما هو للمبالغة في التمثيل عنه . هذا قول .

[قول آخر] : معناه أن هذا سبب للخلود ، لكن قد تُوجد موانع تمنع منه وهو

الإيمان . ولا مانع أن يُرَتَّب المسبَّب على السبب ثم يأتي المانع فيمنع . أرأيتم القرابة سبب من أسباب الإرث وربما يكون القريب مخالفًا لمورثه في الدين فلا يرث ، إذا هلك هالك عن ابن فالابن يرثه . لكن إذا كان مخالفًا له في الدين فإنه لا يرث . فيكون هذا من باب الأسباب ، والقتل عمدًا قتل المؤمن عمدًا سبب للخلود لكن قد يوجد موانع تمنع منه .

[قول ثالث] : أن الخلود يراد به المكث الطويل دون التأبيد . وهذا سائغ في اللغة العربية .

[قول رابع] : معناه : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا ﴾ مستحلا دمه فجزاءوه جهنم خالدًا فيها . وهذا الجواب ذُكر للإمام أحمد رحمه الله فتعجب منه استنكارا لا إقرارًا، وقال: إنه إذا استحل قتل المؤمن عمدًا كفر وإن لم يقتله[1]. فإذن هذا مردود . ونظير هذا التأويل الذي ذكر الأخ تأويل بعضهم لنصوص كفر تارك الصلاة إلى أنَّ المعنى مَنْ استحل ذلك وأنكر وجوبها . فيقال : سبحان الله إذا أنكر وجوب الصلاة فإنه كافر ولو صلى وراء الإمام كل وقت ، ولا يستقيم هذا . على كل حال هذه أربعة أجوبة أقربها إلى الصواب أن يقال : إن هذا من باب الأسباب والأسباب قد يورد لها موانع تمنع . أو يقال : إن هذا من باب المكث الطويل . لكن هذا يرد عليه فيمن قتل نفسه . فإنه جاء عن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر التأبيد من قتل نفسه بشيء فإنه يُعذب به في جهنم خالدًا مخلدًا أبدا[2] .

الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ الاستفهام هنا للتقرير والخطاب للنبي ﷺ أو لكل مَنْ يتأتَّى خطابه ، وقد مر علينا القاعدة في ذلك كثيرًا فلا حاجة للتكرار . ﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ « ما » اسم موصول يدل على العموم

---

(١) المسألة في كشف القناع (٦/١٧٣) ، والمغني (٩/٢١) .

(٢) أخرجه مسلم (١٠٨) عن أبي هريرة .

﴿ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ ﴾ يعني ما في السماء والأرض مكتوب في اللوح المحفوظ ﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾ أي : كتابة ما في السماء والأرض ﴿ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ حيث اشتبه على الجبرية ففهموا منه أن العبد مجبور على عمله ، وادعوا أنه ليس له إرادة ولا قدرة . الجبرية الآن يقولون : الإنسان مُجْبَر على عمله ليس له إرادة ولا اختيار ، وأن حركاته كتحرك الريش في الهواء ، وأن مَنْ نزل مِن السقف في الدَّرَج درجةً درجة كالذي أُلقي من السطح كلاهما ليس له إرادة . ولا شك أن هذا قول باطل ، ويبطله الحس ، ويبطله العقل ، ويبطله السمع . أما السمع فإن الله أثبت في عدة آيات المشيئة للعبد والإرادة فقال : ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] وقال : ﴿ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٨ - ٢٩] وقال : ﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] وقال : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ [هود : ١٥] والأمثلة كثيرة . وأما العقل فإنه من المعلوم لو كان الله تعالى مُجْبِرًا عباده على ما يفعلون ثم يعذبهم في المخالفة لكان هذا أمرًا لا يليق بالله عز وجل لأنه ظلم .

وأما الحس فظاهر ، كل إنسان يعرف أنه يخرج ويدخل ويذهب ويجيء باختياره ولا يرى أن أحدًا يكرهه على هذا ، ويفرق بين الفعل الاختياري والفعل الإجباري . فهؤلاء اشتبه عليهم وأعرضوا عن الآيات الدالة على أن للعبد إرادة وقدرة . وقد ذكرنا ذلك . الإرادة مثل ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ وقدرة ﴿ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ [القلم : ٢٥] وأن فعل العبد نوعان : اختياري وغير اختياري وهذا صحيح ولذلك كان النوع غير الاختياري غير مؤاخذ عليه لماذا ؟ لأنه ليس من فعله ، ما أراده ولا اختاره ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل : ١٠٦] .

* * *

الحِكمة في تنوّع القرآن إلى مُحْكم ومتشابه

لو كان القرآن كله مُحْكَمًا لفاتت الحكمة من الاختبار به تصديقًا وعملًا لظهور معناه وعدم المجال لتحريفه والتمسك بالمتشابه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله. ولو كان كله متشابهًا لفات كونه بيانًا وهدًى للناس، ولما أمكن العمل به وبناء العقيدة السليمة عليه، ولكن الله تعالى بحكمته جعل منه آيات محكمات يرجع إليهن عند التشابه، وأُخر متشابهات امتحانًا للعباد ليتبينَ صادقُ الإيمان ممن في قلبه زَيغ، فإن صادق الإيمان يعلم أن القرآن كله من عند اللَّه تعالى، وما كان من عند اللَّه فهو حق، ولا يمكن أن يكون فيه باطل أو تناقض لقوله تعالى: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، وقوله: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

وأما مَنْ في قلبه زَيْغ فيتخذ من المتشابه سبيلًا إلى تحريف المُحكم واتباع الهوى في التشكيك في الأخبار، والاستكبار عن الأحكام، ولهذا تجد كثيرًا من المنحرفين في العقائد والأعمال يحتجّون على انحرافهم بهذه الآيات المتشابهة.

● **الشرح**: لو كان القرآن كله محكمًا لفاتت الحكمة من الاختبار والامتحان. ولو كان كله متشابهًا لفات البيان للناس والإيضاح. فكان من حكمة الله عز وجل أنْ جعل بعضه محكمًا وبعضه متشابهًا. والمؤمن يعلم أن كلا من عند الله وأنه لا يمكن أن يكون فيه تناقض، ثم يحاول أن يرد المتشابه إلى المحكم ليكون الجميع محكمًا. والذي في قلبه زيغ يأخذ بالمتشابهات إما قهرًا عليه وإما اختيارًا. لكنه يأخذ أولا اختيارًا بالمتشابهات ثم يزيغ قلبه فيلتبس عليه الأمر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ ﴾ لماذا؟ ﴿ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٠] ويقول عز وجل: ﴿ فَلَمَّا

زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] فإذا لم يؤمن الإنسان بالوحي أول مرة زاغ قلبه – نسأل الله العافية – فلذلك كان هؤلاء الذين يتتبعون المتشابه ويأخذون منه سبيلا إلى الطعن في القرآن كانوا هم الذين لم يُفتح لهم باب البيان ولا الهدى ، بل ضلوا في طغيانهم يعمهون . فتبين الآن الحكمة من ذلك ؛ هو الامتحان والاختبار بين المؤمن الراسخ في العلم وبين من في قلبه زيغ .

* * *

موهم التعارض في القرآن

التعارض في القرآن أن تتقابل آيتان بحيث يمنع مدلولُ إحداهما مدلولَ الأخرى، مثل أن تكون إحداهما مثبِتة لشيء والأخرى نافيةً له.

● **الشرح :** هذا تعريف التعارض. التعارض التقابل من كل وجه بحيث يمنع مدلول إحداهما مدلول الأخرى. وأما إذا كان التقابل من بعض الوجوه فهذا ليس بتعارض كما يكون بين العام والخاص، فإن العام يدل على شمول الحكم للأفراد، والخاص يدل على اختصاصه بأحدها. وهذا في الحقيقة ليس بتعارض، لماذا؟ لأنه ليس تقابلا من كل وجه.

ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولُهما خبري؛ لأنه يلزم كونُ إحداهما كذبًا وهو مستحيل في أخبار الله تعالى، قال اللّه تعالى: ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]، **﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴾** [النساء: ١٢٢]، **ولا يمكن أن يقع التعارض بين آيتين مدلولهما حُكْمي لأن الأخيرة منهما ناسخة للأولى، قال اللّه تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ﴾** [البقرة: ١٠٦]، **وإذا ثبت النسخ كان حكم الأولى غير قائم ولا معارض للأخيرة.**

● **الشرح :** إذن التعارض ممنوع سواء كان بأمر خبري أو أمر حكمي. أما في الأمر الخبري فلو وقع التعارض بحيث تكون آية من كتاب الله تُثبت شيئًا والأخرى تنفيه لزم من ذلك أن يكون إحدى الآيتين كاذبًا، وهذا مستحيل في خبر الله عز وجل؛ في الأمر الحكمي أيضًا لا يمكن التعارض؛ لأن التعارض من كل وجه لابد أن تكون إحداهما ناسخة للأخرى. ونسخ الأحكام جائز. فالمتأخر ناسخ والمنسوخ غير قائم، فلا تعارض. والمقصود هنا أن نقدر أنه لا يمكن أن يبقى التعارض بين آيتين في كتاب الله بدون حل، الخبر قلنا: لا يمكن. لماذا؟ لأنه يلزم بذلك تكذيب إحداهما للأخرى. الحكم أيضًا لا يمكن؛ لأنه إذا وقع التعارض

من كل وجه فالمتأخر ناسخ فيبقى الثانى مقاوم له ولا تعارض. وقد مر علينا بالأمس أن الله تعالى ذكر أنه يحشر المجرمين يوم القيامة زرقا، وأخبر أنه في ذلك اليوم تسود وجوه وتبيض وجوه. وذكرنا الجمع، وإذا أمكن الجمع فهل هناك تعارض؟ لا.

وإذا رأيت ما يوهم التعارض من ذلك فحاول الجمع بينهما، فإن لم يتبين لك وجب عليك التوقف وتَكِلَ الأمرَ إلى عالمه.

وقد ذكر العلماء رحمهم الله أمثلةً كثيرة لما يوهم التعارض وبينوا الجمع في ذلك. ومِنْ أجمع ما رأيتُ في هذا الموضوع كتاب «دفع إيهام الاضطراب عن آي الكتاب» للشيخ محمد الأمين الشِّنقِيطي رحمه الله تعالى.

● **الشرح**: وهل هذا البحث هل هو مهم بالنسبة للقرآن؟ نعم مهم؛ لأن الإنسان يتعود به كيف يجمع بين الآيات، ويوقن بأن القرآن ليس فيه تعارض. فهو مهم جدًا. لذلك ينبغي للإنسان أن يطالع مثل هذه الكتب التي فيها الجمع بين الآيات التي ظاهرها التعارض.

فمن أمثلة ذلك قوله تعالى في القرآن: ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ٢]، وقوله: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فجعل هداية القرآن في الآية الأولى خاصة بالمتقين وفي الآية الثانية عامة للناس، والجمع بينهما أن الهداية في الأولى هداية التوفيق والانتفاع، والهداية في الثانية هداية التبيين والإرشاد.

● **الشرح**: ﴿ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴾ و﴿ هُدًى لِلنَّاسِ ﴾ بينهما تعارض فيما يظهر، لأن المتقين أخص من عموم الناس. فيقال: الجمع بينهما أن الهداية هدايتان: هداية توفيق وعمل، وهذا للمتقين، وهداية بيان وإرشاد وهذا لجميع الناس.

ونظير هاتين الآيتين قوله تعالى في الرسول ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص: ٥٦]، وقوله فيه: ﴿ وَإِنَّكَ

﴿لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فالأولى هداية التوفيق، والثانية هداية التبيين.

● **الشرح**: قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ أين عائد «مَنْ»؟ إنك لا تهدى من أحببته، وجه آخر تقديره: من أحببت هدايته. هذان قولان فأيهما الأصح؟ إن نظرنا إلى أن الأصل عدم التقدير قلنا: الأصح الأول، أي مَنْ أحببتَه، وإن ورد علينا إشكال وقال: هذا يقضي إلى أن الرسول ﷺ يحب أبا طالب ولا نتخلص من هذا الإيراد إلا إذا قلنا: إن التقدير: من أحببت هدايته. فأيهما ترجحون.

هل يلام إنسان على محبة شخص أحسن إليه محبة إحسان لا محبة دين؟ لا يُلام. مَنْ أحسن إليك فإنك تحبه لإحسانه لا لدينه، والظاهر لي أنا أن الأصل عدم الحذف، وأن التقدير مَنْ أحببته، ولكن حب الرسول لأبي طالب ليس حب دين ولكنه حب قرابة وإحسان؛ لأن الرجل أحسن إلى رسول الله ﷺ إحسانًا عظيمًا ودافع عنه مدافعة عظيمة، وله اللامية المشهورة التي قال عنها ابن كثير في «البداية والنهاية»(١): إنها أحق أن تكون مِن المعلَّقات. لأن المعلقات عند العرب كم؟ سبع قصائد عظيمة معلقة في جوف الكعبة لعظمها عندهم. هذه أحق من المعلقات أن تُعلق في الكعبة.

المهم ﴿لَا تَهْدِي﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾. نَفْي وإثبات النفي في قوله: ﴿لَا تَهْدِي﴾ والإثبات في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ ومؤكد بإنّ واللام فما الجمع؟ نقول: الأولى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ هداية التوفيق، والثانية: ﴿لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هداية الدَّلالة، ولهذا تعدى بإلى أي لتدل إلى.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وقوله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢]،

(١) البداية والنهاية (١٤٣/٤) – طبعة هجر.

وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١]، ففي الآيتين الأوليين نفي الألوهية عما سوى اللَّه تعالى، وفي الأخريين إثبات الألوهية لغيره.

● **الشرح**: واضح هذا؟ ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ﴾ في كلتا الآيتين نفي الألوهية عما سوى الله ثم في الآية الثالثة ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ فأثبت الألوهية لغيره ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ أيضًا أثبت الألوهية لغيره. وظاهر هذا التعارض. إذن لا بد من الجمع.

والجمع بين ذلك أن الألوهية الخاصة بالله عز وجل هي الألوهية الحق، وأن المثبتة لغيره هي الألوهية الباطلة، لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

● **الشرح**: واضح. إذنْ المنفي غير المثبت، ما هو المثبت؟ ألوهية الحق والمنفي ألوهية الباطل. فصار النفي واردًا على غير ما ورد عليه الإثبات وحينئذ لا تعارض.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [الأعراف: ٢٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، ففي الآية الأولى نَفَى أن يأمر اللَّه تعالى بالفحشاء، وظاهر الثانية أن اللَّه تعالى يأمر بما هو فسق.

والجمع بينهما أن الأمر في الآية الأولى هو الأمر الشرعي، واللَّه تعالى لا يأمر شرعًا بالفحشاء لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]، والأمر في الآية الثانية هو الأمر الكوني، واللَّه تعالى يأمر كَوْنًا بما شاء حسب ما تقتضيه حكمته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

ومَنْ رام زيادة أمثلة فليرجع إلى كتاب الشِّنْقِيطي المشار إليه آنفًا.

● **الشرح** : هذا أيضًا مثال وهو قوله ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ رَدًّا على قولهم إذا فعلوا فاحشة ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ فاعتلوا بأمرين ، أولا : أنهم وجدوا عليها آباءهم ، والثاني : أن الله أمرهم بها . فأبطل الله الباطل وأحق الحق . فقال : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ ولم يقل : لم يجدوا عليها آباءهم . لماذا ؟ لأنه حق . وفي الآية دليل على قبول الحق من غير أهل الحق ؛ لأن المشركين ليسوا على حق ، لكن إذا قالوا الحق نقبله . وقد قَبِلَ النبي ﷺ من اليهودي الذي قال : إنَّا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع والأرضين على إصبع وذكر بقية الحديث ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر[1] . بل زد على ذلك أنه أقر الحق من الشيطان ؛ في حديث أبي هريرة حينما قال : ألا أدلك على آية من كتاب الله تقرؤها فلا يقربك شيطان حتى تصبح : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ فأقر النبي ﷺ ذلك[2] . وفي هذا دليل على أن الحق يُقبل من أي إنسان . بعض الناس إذا جاء الحق من فاسق وهو حق واضح ، يقول : لا أبدًا هذا ليس فيه خير ، ولا يمكن أن يأتي بخير . وهذا غلط ، العدل أن يكون الحق ضالَّتك متى وجدتَه خُذْ به ، الشاهد قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ وقال : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ ففي الأول نفى أن يأمر بالفحشاء ، وفي الثانية أثبت أنه يأمر بالفسق . ﴿ أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا ﴾ فكيف الجمع ؟ الجمع هو أن الأمر في الآية الأولى – الأمر المنفي الشرعي ، يعني لا يأمر شرعًا بالفحشاء بل هو ينهى عن الفحشاء والمنكر . والأمر في الثانية الأمر الكوني ، فإن كل ما وقع في السماء والأرض فهو بأمره الكوني لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ

(١) متفق عليه من حديث ابن مسعود . البخاري (٧٤١٤) ، ومسلم (٢٧٨٦) .

(٢) أخرجه البخاري (٥٠١٠) تعليقًا ، ووصله النسائي في الكبرى (١٠٧٩٥) ، وانظر الفتح (٤/٤٨٨) ، وتغليق التعليق (٣/٢٩٥) .

كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢] وبهذا اندفع التعارض وما ذكرناه في الآية الثانية أمر مترفيها هو الحق الذي لا يجوز سواه ، وذهب بعض العلماء إلى أن المعنى أمرنا مترفيها أمرًا شرعيًا ففسقوا فيها . وهذا غلط في الواقع ؛ لأنه يلزم منه أن الله يرسل الرسل لأجل أن يفسق الناس ويدمرهم . إذا أردنا أن نهلك قرية أرسلنا الرسل إليهم ففسقوا فدمرناهم . هذا غلط هذا ينافي الحكمة . كيف يرسل الله الرسل من أجل أن يعصي الناس ويفسقوا فيهلكهم ؟ لكن المعنى إذا أردنا أن نهلك قرية وقد وَجَّهنا إليهم الأوامر والنواهي أمرنا مترفيها أمرًا كونيًا ففسقوا فيها . وفي هذا الحذر والتحذير من الترف وأن المترف على خطر عظيم ؛ لأنه هو الذي يفسق ومن ثم قال النبي ﷺ : والله ما الفقر أخشى عليكم ، وإنما أخشى أن تُفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم[1] . وهذا هو الواقع كلما ازدادت النعم على الإنسان ازداد طغيانًا لأنه يرى أنه استغنى وليس بحاجة لأحد ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴾ [العلق: ٦، ٧] .

* * *

(١) متفق عليه : البخاري (٦٤٢٥) ، ومسلم (٢٩٦١) عن عمرو بن عوف .

القسم

القَسَم: بفتح القاف والسين: اليمين، وهو تأكيد الشيء بذكر مُعَظَّم، بالواو أو إحدى أخواتها، وأدواته ثلاث:

● **الشرح**: القَسَم غير القِسْم، القَسَم هو اليمين والحَلِف، وله ألفاظ متعددة، وهو تأكيد الشيء بذكر مُعَظَّم، لكن بصيغة مخصوصة، وهي حروف القسم الثلاثة. وعلى هذا إذا قال الإنسان: حرام عليّ أن أفعل. فهذا ليس قسمًا، وليس قسمًا بغير الله، وليس شركًا لكن حُكْمُه حكم اليمين لأن الله تعالى قال: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ إلى أن قال: ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ [التحريم: ٢] فالقسم الذي جعله النبي ﷺ من الشرك إنما هو تأكيد الشيء بذكر معظم بالواو أو إحدى أخواتها. وكم لها من أخت؟ لها أختان، وهي الثالثة. ولذلك قال: أدواته ثلاثة.

الواو: مثل قوله تعالى: ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [الذاريات: ٢٣]، ويُحذف معها العامل وجوبًا ولا يليها إلا اسم ظاهر.

● **الشرح**: انظر إلى خصائصها: يحذف معها العامل وجوبًا، فلا يصلح أن تقول: أقسم والله لتقومن، بخلاف الباء تقول أقسم بالله. أما هذه لا يجوز، فلو قلت: أقسم والله، لكان هذا التركيب غير عربي؛ لأنه لا بد أن يُحذف معها فعل القسم، أيضًا لا بد أن يليها اسم ظاهر فلا يجوز أن يليها ضمير، بخلاف الباء فإنه يجوز أن تقول: الله أقسم به لتفعلن كذا.

والباء: مثل قوله تعالى: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ [القيامة: ١]، ويجوز معها ذِكْرُ العامل كما في هذا المثال، ويجوز حذفه كقوله تعالى عن إبليس: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٣]، ويجوز أن يليها اسم ظاهر كما مثّلنا، وأن يليها ضمير كما في قولك: اللّه ربي وبه أحلف لينصرن المؤمنين.

● **الشرح**: الآن الباء أوسع من الواو لأنه يذكر معها فعل القسم، والواو لا

يذكر . يليها الظاهر والمضمر والواو لا يليها إلا الظاهر ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ هذا قسم مثبت أم منفي ؟ هذا موجود في القرآن كثير ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴾ ، ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ، ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴾ ، ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ ﴾ ، ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴾ كثير ، وقد اختلف المفسرون في « لا » فقيل نافية لفعل محذوف والتقدير في قوله ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ لا صحة لما تزعمون من إنكار البعث ، أقسم بيوم القيامة . وقيل إن « لا » نافية لشيء موجود والتقدير : لا أقسم بكذا على كذا لأنه لا يحتاج إلى قسم . هذا رأيان ، الرأي الثالث يقول : « لا » للتنبيه ، والجملة جملة ثبوتية لا جملة منفية . فالأقوال كم ؟ ثلاثة : الأول أن « لا » نافية والمنفي محذوف ، فلا تكون داخلة على أقسم . والثاني أن « لا » نافية داخلة على أقسم ، والمعنى لا أقسم لأن الأمر أبين وأظهر من أن يحتاج إلى قسم ؛ والثالث أن « لا » للتنبيه ، وأقسم مثبتة ؛ قسم مثبت . وهذا أصح ، وأقل تكلفًا . وكما نعلم أن « ألا » تأتي للتنبيه كذلك « لا » التي ليس معها همزة تأتي للتنبيه . يجوز معها ذكر العامل كما في هذا المثال أين العامل في أقسم بيوم القيامة ؟ أقسم . ويجوز حذفه كقوله تعالى عن إبليس قال : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أين القسم ؟ ﴿ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ حرف القسم الباء ، والمقسم به العزة ، والمقسم عليه لأغوينهم أجمعين . أين فعل القسم ؟ محذوف والتقدير : فبعزتك أقسم لأغوينهم أجمعين ، قال : ويجوز أن يليها اسم ظاهر كما مثلنا وأن يليها ضمير كما في قولك : الله ربي وبه أحلف لينصرن المؤمنين ، الله ربي وبه . الباء هنا للقسم بدليل قوله أحلف لينصرن المؤمنين .

والتاء : مثل قوله تعالى : ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ [النحل : ٥٦] ، ويحذف معها العامل وجوبًا ، ولا يليها إلا اسم اللّه أو رَبّ ، مثل تَرَبِّ الكعبة لأحجن إن شاء الله .

● **الشرح :** هذه هي أضيقها التاء أضيقها . أولا أنه يُحذف معها العامل وجوبًا ويشاركها في هذا الواو . ثانيًا لا يليها إلا اسم الله أو الرب بخلاف الواو ، قال

ابن مالك[1] : والتاء لله ورَبّ .

مثل : (تربِ) الكعبة لأحجن إن شاء الله .

والأصل ذكر الـمُقْسَم به، وهو كثير كما في المثل السابقة.

وقد يحذف وحده مثل قولك: أحلف عليك لتجتهدن.

وقد يحذف مع العامل وهو كثير مثل قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨].

والأصل ذكر الـمُقْسَم عليه وهو كثير مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن: ٧].

وقد يُحذف جوازًا مثل قوله تعالى: ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴾ [ق: ١]، وتقديره لَيَهْلِكُنَّ.

وقد يحذف وجوبًا إذا تقدمه أو اكتنفه ما يغني عنه، قال ابن هشام في المغني: ومُثِّل له بنحو: زيد قائم واللّه. وزيد واللّه قائم.

● **الشرح** : لما ذكر حروف القسم وأنها ثلاثة ذكر حكم حذف القسم وما يتعلق به ، سواء كان أداة القسم أو الفعل أو المقسم عليه ، فقال : فالأصل ذكر المقسم به وهو كثير كما في المُثُل السابقة : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أين المفسم به ؟ رب السماء والأرض ، الثاني : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ ؟ المقسم به : يوم القيامة . الثالث : ﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ المقسم به : لفظ الجلالة . هذا هو الأصل أن المقسم به مذكور ، وقد يحذف وحده مثل قولك : أحلف عليك لتجتهدن ، حلفتُ لتقومنَّ ، أين المقسم به ؟ محذوف . وهذا جائز وسائغ في اللغة العربية وكثير . وقد يحذف مع الفعل وهو كثير أيضًا ، مثل قوله : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ اللام هذه واقعة في جواب القسم ، فأين المقسم به ؟

---

(١) ألفية ابن مالك (رقم ٣٦٧) – طبعة السنة .

محذوف التقدير : ثم والله لتسئلن . وإنما كثر الحذف في ذلك أي في صيغ القَسَم – لأنها ترد كثيرًا في لسان العرب فتكون معلومة ، فلهذا تجدون حذفها كثيرًا . لتسئلن يومئذ عن النعيم . هذا أصل ، فإذا سُئل ما الأصل في المقسم به ؟ ذِكْره . هذا الأصل وقد يُحذف . ما الأصل في المقسم عليه ؟ الأصل أيضًا ذِكْره ، وقد يحذف . والأصل ذِكْر المقسم عليه وهو كثير مثل قوله تعالى : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ هذا الأصل والمقسم عليه هو محط الفائدة ، ولهذا كان ذكره كثيرًا . ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ الخطاب في قوله « قل » للرسول ﷺ : ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ ، فأمر اللهُ تعالى أن يقول لهؤلاء الذين زعموا أن لن يبعثوا : وربي لتبعثن . فإن قال قائل : أيُّ فائدة في هذا القسم لقوم منكرين ؟ قلنا : إنه من أسلوب اللغة العربية أن الكلام يؤكَّد بالقسم ، وإذا لم ينتفع هؤلاء بالتأكيد انتفع غيرهم ، فيكون تأكيدُه حجة عليهم من وَجْه ونبراسًا لغيرهم من وجه آخر ، في القرآن الكريم أمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يقسم في ثلاثة مواضع : ﴿ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ [التغابن : ٧] فأمر الله أن يقسم على أن البعث حق وأنه لا بد أن يكون ، الثاني ﴿ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ ﴾ [يونس : ٥٣] الثالث : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ [سبأ : ٣] فأمر الله نبيه أن يقسم في هذه المواضع الثلاثة وكلها إما على البعث أو على القرآن ، وقد يُحذف جوازًا ، يُحذف نائب الفاعل المقسم عليه قد يحذف جوازًا مثل قوله تعالى : ﴿ ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ * بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ ﴾ إلخ « ق » من الحروف الهجائية وهي كثيرة في عدة سور من القرآن ، وقد سبق أن القول الراجح أنها في حد ذاتها ليس لها معنى ، والقرآن المجيد هذا المقسم به ، المقسم عليه محذوف تقديره لَيَهْلِكُنَّ ، وهذا أحد الأقوال وقيل : إنه لا حاجة لذكر المقسم عليه لأنه مفهوم من السياق ، السياق هو أن الآية تدل على إثبات البعث لقوله ﴿ بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ * أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ﴾ ولذلك لو كان التقدير « ق والقرآن المجيد ليبعثن » لكان أقرب إلى

السياق من قوله : ليهلكن . لأن الكلام هنا في تقرير البعث فصار الآن ثلاثة أقوال :

القول الأول : محذوف تقديره ليهلكن .

الثاني : محذوف تقديره ليبعثن .

الثالث : أنه لا حاجة لذكره ولا تقديره لأنه معلوم من السياق .

وقد يُحذف وجوبًا إذا تقدمه أو اكتنفه ما يغني عنه ، فإنه يحذف وجوبًا لأن ذكره يكون تكرارًا بلا فائدة . مثاله : زيد قائم والله . هذا تقدمه ما يدل عليه ؛ لأن معنى « زيد قائم والله » معناه والله إن زيدًا لقائم ، فقد تقدمه ما يدل عليه فلا يحتاج إلى ذكره ، وذِكْره لغو ؛ لأنك لو قلت : زيد قائم والله ليقومن زيد . هذا كلام ركيك ، ما يستقيم . أو اكتنفه ما يدل عليه . اكتنفه يعني صار القَسَم بين أجزاء الجملة التي تدل عليه ، مثاله : زيد والله قائم . الآن القسم في الوسط بين المبتدأ والخبر ، لو قيل : زيد والله قائم إنه لقائم ، صار لغوًا لا فائدة منه وكلامًا ركيكًا . بقي عندنا الآن القَسَم إما متأخر وإما متوسط وإما متقدم . إذا تقدم فليس الجواب بمحذوف ، لو قال : والله إن زيدًا قائم . ليس فيه حذف ، ولذلك لو قال قائل : إن القسمة تقتضي أن يكون المقسم به متوسطًا أو متأخرًا أو متقدمًا ، ماذا نقول ؟ نقول : إذا كان متقدمًا فلاحذف « والله لزيد قائم » ليس فيه حذف ، إذا كان متأخرًا أو متوسطًا فهذا هو الذي يكون فيه الحذف ويقول ابن هشام[1] : إنه يحذف وجوبًا لأن ذكره لغو لا فائدة منه ، بل لا يزيد الكلام إلا ركاكة . صار أيضًا الذي يُحذف المقسم به والمقسم عليه . والمُقْسِم (لا يحذف لأنه) هو المتكلم .

وللقَسَم فائدتان :

إحداهما : بيان عظمة المُقْسَم به .

والثانية : بيان أهمية المُقْسَم عليه وإرادةِ توكيده ، ولذا لا يحسن القسم

(١) أوضح المسالك (٢١٩/٤) ، ومغني اللبيب (٣٨٧/٢) .

إلا في الأحوال التالية :

الأولى : أن يكون المُقْسَم عليه ذا أهمية .

الثانية : أن يكون المخاطَب مترددًا في شأنه .

الثالثة : أن يكون المخاطَب مُنْكِرًا له .

● **الشرح** : يعني القسم لا يحصل إلا في الأحوال التالية : أن يكون المقسم عليه ذا أهمية ولو كنت تخاطب من لا ينكر لأنك تقسم لا لإثبات ما يفيد المخاطب ولكن لبيان أهميته ، إذْ أن الذي ليس له أهمية لا يُقسم عليه لأنه سواء صدق بالخبر أو لم يصدقه ما يهم . لكن إذا كان له أهمية فإنه يُقسم عليه وإن لم يُسْتَقْسَم ، وإن لم ينكر المخاطب . ألم تروا إلى قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بما جئتُ به إلا كان من أصحاب النار »[1] هل أحد ينكر ممن يخاطبهم ؟ لا . هل أحد متردد ؟ لا . لكن لأهمية الأمر أقسم . وهذا يمر بكم كثيرًا ، أنه يكون القسم بدون تردد من المخاطب وبدون إنكار منه وبدون طلب له . إذنْ يحسن القسم في ثلاثة مواضع : أن يكون المقسم عليه ذا أهمية وإن كنت تخاطب من يعترف به . الثاني : أن يكون المخاطب مترددًا في شأنه ، فهنا تحلف ليطمئن ويزول عنه الشك . الثالث : أن يكون المخاطَب منكرًا له ، وقد قال أهل البلاغة : إنه إذا كان المخاطب منكرًا وجب تأكيد الكلام سواء بالقسم أو بغيره . وهذا حقيقة ، ولهذا نحن قلنا : يحسن القسم ، وإنما لم نقل إنه يجب القسم في مخاطبة المنكر لأنه يمكن أن يؤكَّد له بغير القسم . أفهمنا فائدة القسم الآن ؟ الأولى : بيان عظمة المقسم به ، والثانية بيان أهمية المقسم عليه ، ولهذا لا يجوز للمخلوق أن يحلف بغير الله ، مستفادًا من قولنا بيان عظمة المقسم به [أي] جدير بأن يكون مقسمًا به .

يجوز أن يقول « لعمرك » أو : لعمري . وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣) عن أبي هريرة .

وعن الصحابة « لعمري »[1] لأن هذا ما هو القسم الذي يكون الحلف به شركًا أو كفرًا ، إذ أن صيغة القسم لا تكون إلا بالواو والباء والتاء . أما « لعمرك » فهو قسم أي بمعنى القسم . ولهذا لو قال : وعمرك . صار مقسمًا به ، وصار حرامًا . يمكن أن تكون من أدوات القسم ، لكن المعروف أنها من أدوات النداء هذه أيضًا قالوا أيضًا : إن قول الإنسان : يمين الله . مثل : عهد الله لأفعلن ، فهي بمعنى القسم . أما القسم فلا يكون إلا بما عرفتم . حروف القسم ثلاثة .

* * *

(١) كما في البخاري (١٦١٨) (٤٦٩٥) ، ومسلم (٨٨٥) (١٢٥٥) .

القَصَص

القصص والقَصّ لغة: تتبع الأثر.

وفي الاصطلاح: الإخبار عن قضية ذات مراحل يتبع بعضُها بعضًا.

وقصص القرآن أصدق القصص لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وذلك لتمام مطابقتها للواقع.

وأحسن القصص لقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، وذلك لاشتمالها على درجات الكمال في البلاغة وجلال المعنى.

وأنفع القصص لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق.

● **الشرح**: القصص في اللغة: تتبع الأثر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] أي يقصان الأثر ويتتبعانه. لكنها في الاصطلاح الإخبار عن قضية ذات مراحل يتبع بعضها بعضًا. فلو قلت: زيد قائم، فهذا قصة أم غير قصة؟ ليست قصة، ولو قلت: سافر زيد إلى مكة فنزل في القرية الفلانية لمدة يوم ثم ركب منها متجهًا إلى مكة ونزل إلى البلد الفلاني كذا وكذا يومًا، صارت هذه قصة، قصص القرآن أصدق القصص، هذا لا شك فيه، فأن المخبر بها مَنْ؟ الله جل جلاله، ودليل هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ والاستفهام هنا بمعنى النفي والتحدي، يعني لا أحد أصدق من الله حديثًا، وإن ادعيت فأْت بأحد أصدق من الله حديثًا وذلك لتمام مطابقتها للواقع، وهذا هو الصدق، الصدق مطابقة الخبر للواقع. كذلك أيضًا قصص القرآن أحسن القصص لقول الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ وذلك لاشتماله على أعلى درجات الكمال في البلاغة وجلال

المعنى ، فهي أحسن القصص لفظًا ، وأحسن القصص معنى .

ثالثًا : وأنفع القصص لقوله تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وذلك لقوة تأثيرها في إصلاح القلوب والأعمال والأخلاق ، غير قصص القرآن ، ما جاءت به السنة فهو مثل القرآن من حيث الصدق إذا صح عن النبي عليه الصلاة والسلام ، وكذلك أنه أحسن قصص الخلْق وأنفع قصص الخلق . فما قَصَّه النبي ﷺ علينا من أخبار بني إسرائيل فهو حق وصدق فيه عبرة وفيه منفعة ، وقد قص النبي عليه الصلاة والسلام على أمته أشياء كثيرة ، لكن نحن الآن نتكلم عن علوم القرآن .

وهي ثلاثة أقسام :

*** قسم عن الأنبياء والرسل وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين .**

*** وقسم عن أفراد وطوائف جرى لهم ما فيه عبرة ، فنقله اللّه تعالى عنهم كقصة مريم ، ولقمان ، والذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها ، وذي القرنين ، وقارون ، وأصحاب الكهف ، وأصحاب الفيل ، وأصحاب الأخدود ، وغير ذلك .**

*** وقسم عن حوادثَ وأقوامٍ في عهد النبي ﷺ كقصة غزوة بدر ، وأحد ، والأحزاب ، وبني قُريظة ، وبني النَّضير ، وزيد بن حارثة ، وأبي لهب ، وغير ذلك .**

● **الشرح :** هذه هي أقسام ثلاثة في قصص القرآن : الأول : عن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام وما جرى لهم مع المؤمنين بهم والكافرين ، وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ [إبراهيم : ٩] ولهذا المصدر الوثيق عن أخبار الأمم هو ما جاء عن الله ورسوله عليه الصلاة والسلام . وفي هذه القصص عبرة عظيمة عبرة للمؤمنين وعبرة للمكذبين . ثانيًا : قصص عن أفراد وطوائف جرى لهم ما فيه عبرة

فنقله الله تعالى عنهم كقصة مريم ، وقصتها مبسوطة في سورة مريم ، وفيها عبر كثيرة من أهمها قوله ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم :] امرأة نُفَساء ، والمرأة النفساء في العادة ضعيفة . يقال : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ لا برأسها . والهز بالجذع صعب ، الرأس يتحرك أكثر ، لكن الجذع صعب ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ يسقط من فوق رطب طري ثري ﴿ جَنِيًّا ﴾ يعني لا ينفقس إذا سقط على الأرض ، بل كالذي جناه الإنسان برفق ، أليس هذا من آيات الله عبرة من آيات الله عز وجل يعتبر بها الإنسان على قدرة الله تبارك وتعالى ، قصة لقمان أيضًا مع ابنه وهو يعظه قصة عظيمة فيها فوائد من أهمها : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ * وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ [لقمان : ١٩] كلها حكم .

كذلك قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها هامدة يابسة ، فقال : ﴿ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ يعني كيف يحي الله هذه القرية بعد أن ماتت ؟ فأراه الله ذلك أماته الله ، مئة عام ، مئة سنة ، ثم بعثه قال : كم لبثت ؟ قال لبثت يومًا أو بعض يوم ! وهي مئة سنة لأن الوقت يذهب إذا لم تكن الرُّوح في الجسم حالت حلولا تامًا ذهب الوقت وأنت لا تشعر . ولهذا نجد النائم تمضي عليه الساعتان والثلاث وكأنها دقيقة واحدة ، والمغمى عليه أشد ، وكذلك الغائب بالبنج يمضي عليه الوقت ما علم . الميت كذلك من باب أولى ﴿ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ لأنه الله أماته في أول النهار وأحياه في آخره فقال : إما يومًا . إن كان هذا هو اليوم الثاني من موته ، أو بعض يوم . قال الله : ﴿ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ﴾ سبحان الله مئة عام ولم يتغير الرجل ما زاد شعره ، ولا حصل له نمو ولا تغير ولا انتفاخ ، ثم قال الله له : ﴿ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾ أي لم يتغير ،

الطعام والشراب ما تغير لا باللون ولا بالريح ولا باليبوسة ، ما تغير ، وهذا من آيات الله عز وجل ، شراب يكون في الشمس والهواء والليل والنهار ولم يتغير ولم يُسَلَّط عليه سبع يشرب منه ، باقٍ كما هو سبحان الله . والطعام كذلك لم يتغير . وقد قيل : إنه عنب ، وقيل غير ذلك ، لكن لا يهمنا ، المهم حتى وإن كان عنبًا أو خبزًا أو غيره كيف لم يتغير ﴿ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ ﴾ نظر إلى عظامه وإذا هي تلوح . الحمار متغير والطعام والشراب لم يتغير سبحان الله لأن محط الحجة في الحمار . فكون الطعام لم يتغير والشراب هذا فيه قدرة على إبقاء الأمور كما كانت . وقضية الحمار فيه دليل على قدرة الله تعالى على إنشاء الأمور بعد اضمحلالها - الله أكبر - الحمار نظر [الرجل] إلى عظامه تلوح فقال الله له : ﴿ انْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾ فنظر إلى العظام يركب بعضها بعض وتشبك بالعصب تنشز بالعصب، ثم تكسى اللحم ثم قام الحمار. الله أكبر سبحان الله ﴿ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ هذه قصة مما يوحي القلب ويعرف به قدرة الله سبحانه وتعالى .

كذلك أيضًا (ذو) القرنين ، ذو القرنين أعطاه الله تعالى ملكًا عظيمًا بلغ مشارق الأرض ومغاربها وقصته مشهورة ، ومن أعظم ما فيها من العبر أنه أتى على قوم لا يكادون يفقهون قولا يعني لا يكادون يفقهون هم بأنفسهم ولا يُفْقِهون أيضًا ، إنْ كلَّمهم إنسان ما فقهوا ، وهم أيضًا لو كَلَّموه لا يفهموه ، فقالوا له : ﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ ، يعني : نعطيك دراهم ﴿ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ لأنه ملك عظيم ظنوا أنه يأخذ رشوة ﴿ هَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ قال : ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ يعني خير مما تعطونني ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ والردم أبلغ من السد . يعني ما يستطيعون في الردم . السد ربما يحاولون زحزحته ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ فزبروا له الحديد وأحمى عليه في النار ﴿ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا

قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ نُحَاسًا . فأفرغ عليه نحاسًا ذائبًا فتلاصق الحديد بعضه ببعض بالنحاس ، من يستطيع فكه ؟ ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ لأنه أملس ﴿ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ هذه من القصص الغريبة .

كذلك أيضًا قارون ، قارون رجل غني من قوم موسى ولكنه كفر به ، وفخر واستعلى بما أعطاه الله من المال ، وبغى على قومه وآتاه الله من الكنوز ما مفاتحه تنوء بالعصبة ، أي ما يستطيعون حملها المفاتيح ، كيف بالخزائن وما فيها فقال الله عز وجل حين طغى هذا الرجل ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ كله انهار ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴾ .

كذلك أيضًا أصحاب الكهف ، أصحاب الكهف قصتهم عجيبة . سبعة ومعهم كلب ، خرجوا من قومهم لأنهم كانوا يشركون بالله ، وهؤلاء مخلصون لله موحدون له ، خرجوا مهاجرين إلى الله ، وما أحد قصد الله فخاب أبدًا ، آواهم الله عز وجل هيأ لهم كهفًا غارًا واسعًا وجهه إلى الشمال الشرقي ، ما تأتيه الشمس ، إذا غربت ولا إذا أشرقت ﴿ تَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ ، شيء يسير عند الغروب بقوا في الغار نائمين ليسوا ميتين ، نوم ، والنائم إذا طال نومه مَلَّ ، وجاع ، وعطش لكن هؤلاء ما فعلوا إلا أن الله تعالى يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال لئلا تَفسد أجسامهم ، الكلب باسط ذراعيه بالوصيد . ما كأن شيئًا جرى . وربط الله به ما تعداهم ، وبقوا ثلاث مئة سنة وتسع سنوات ، حتى أخلف الله سبحانه وتعالى عن الملك الأول المشرك بملك صالح ، بقوا في هذا الكهف هذه المدة يقلبهم الله عز وجل ذات اليمين وذات الشمال ولم يقل يتقلبون . لماذا ؟ لأن فعل النائم لا يُنسب إليه فقد رُفع عنه القلم ، يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال . بعثهم الله ، تنازعوا : كم لبثتم ؟ ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾ وهم بقوا ثلاث مئة سنين وتسع سنوات لأنهم ناموا أول النهار واستيقظوا آخر النهار فظنوا أنهم في يوم واحد أو يومين ، لبثنا يومًا أو بعض يوم . وطلبوا أن يُبعث واحد منهم بورقهم بالدراهم إلى

المدينة ليشتري طعامًا ، ولما ذهب إلى المدينة ورأوا السِّكَّة – يقصد الدراهم – قديمة لها ثلاث مئة سنة ولعلها والله أعلم عليها صور الملك القديم ، فتعجبوا منه هذه القصة فيها عبر عظيمة .

فيه أيضًا أصحاب الفيل ، أصحاب الفيل قوم جاؤا ليهدموا الكعبة ، وذلك أن ملك اليمن وضع عندهم كعبة تضاهي الكعبة التي في مكة من أجل أن الناس يحجون إليها ، فجاء أحد الأعراب إلى هذه الكعبة وتَغَوَّط فيها ، لماذا ؟ إهانةً لها . فغضب الملك وبعث إلى مكة جندا عظيمًا يتقدمهم فيل عظيم يريد أن يهدم الكعبة ، فلما وصل إلى مكان يسمى المُغَمَّس قريب من طريق الحُجُون ، أَبَى الفيل أن يتقدم ، إذا وجهوه إلى مكة وقف ، وإذا وجهوه إلى اليمن هرول بإذن الله عز وجل ، ولهذا لما بركت ناقة الرسول عليه الصلاة والسلام في الحديبية ، لما بركت وأراد منها أن تقوم أبت ، فقال الصحابة : خلأت القصواء – خلأت يعني حَرَنَتْ – قال النبي ﷺ[1] : والله ما حرنت القصواء ، وما ذاك لها بخُلُق دفع الظلم حتى عن البهائم واجب ، لأنهم ظلموها لما قالوا : خلأت . فقال : ما خلأت فعلا وأيضًا ليس هذا لها بخلق : ناقة مطواع . ولكن حبسها حابس الفيل . ثم قال : والذي نفسي بيده لا يسألوني خُطَّةً يعظمون فيها حرمات الله إلا أجبتهم عليها . وهذا هو الذي جعله عليه الصلاة والسلام يخضع للشروط التي تعرفونها ، حتى لما قال : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم . قالوا : ما نعرف الرحمن ولا الرحيم ، اكتب باسمك اللهم . إلى هذا التعنت قال : اكتب باسمك اللهم . لما قال : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله . قالوا : اصبر لا تكتب محمد رسول الله ، لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ولا صددناك ، لكن اكتب محمد بن عبد الله ، فقال : اكتب محمد بن عبد الله . ثم ذكر بقية الشروط التي حصل فيها معارضة من كبار الصحابة[2] . المهم أصحاب الفيل ما الذي حصل لهم أرسل الله عليهم طيرًا

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢) عن المسور ومروان .

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٩٨) ، ومسلم (١٧٨٣) عن البراء .

أبابيل . قال العلماء : أبابيل يعني جماعات متفرقة كثيرة ، معها حجارة من سجيل ، هذه الحجارة تضرب الواحد من رأسه وتخرج من دُبُره ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ العصف الزرع الذي أكلته الإبل أو البقر ووطأته بأقدامها . والفيل كما قلت لكم : حبسه الله تعالى في مكان يقال له المُغَمَّس ، كما قال الشاعر الجاهلي :

حَبَس الفيلَ في المُغَمَّس حَتَّى ظل يَحْبُو كَأَنَّه معقور[1]

وليس في وادي مُحَسِّر كما زعمه بعض العلماء وإنما أسرع النبي ﷺ في وادي مُحَسِّر[2] لوجهين : الوجه الأول أن الوادي وعل يعني فيه رمل مع التراب وهذا يجعل الإبل ترتاض في المشي فأسرع ، والثاني أن أهل الجاهلية كانوا يقفون في هذا الوادي ويذكرون أمجادهم وأمجاد آبائهم فأراد النبي ﷺ أن يخالفهم ، فهم ينزلون والرسول يسرع .

قال : وأصحاب الأخدود ، الأخدود جمع خَدّ وهو الحفر في الأرض ؛ حفر السواقي أصحاب الأخدود قوم اعتدوا على مؤمنين بالله عز وجل اعتدوا عليهم هذا العدوان البشع ، حاولوا منهم أن يرتدوا عن إيمانهم ولكن أبوا وصمموا على الإيمان ، وفي ذلك أنزل الله تعالى : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ * قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ [البروج : ١ - ٦] خدوا الأخاديد وأضرموا فيها النار وجعلوا يلقون المؤمنين في النار . وهم قعود متفكهين حولها ما كأن الذي يُلْقَى في النار من بني آدم ﴿ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ لم يَعْتَدِ هؤلاء المؤمنين عليهم بأخذ مال ولا بانتهاك عرض ولا بضرب ولا شيء ، وما هي إلا عداوة دينية من هؤلاء المعتدين ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ

(١) البيت لأبي الصلت الثقفي وهو من بحر الخفيف . معجم ما استعجم (١٢٤٨/٤) .

(٢) أخرجه مسلم (١٢١٨) عن جابر في حديث الحج الطويل .

إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ ثم قال : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ وعُلم من الآية أنهم لو تابوا لم يُعذبوا بجهنم ، والتوبة من الكفر تَجُبُّ ما قبلها وحتى وإن كان متعلقًا بالغير ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] لا يقال إن هذا حق آدميين . نقول : إن قتل هؤلاء الكفار لهؤلاء المؤمنين ليس لكونهم آدميين بل لإيمانهم وكراهتهم للإيمان ومن يحمل الإيمان ، ولهذا إذا آمنوا ارتفع عنهم أثر هذا القتل . وإلا فهذه مشكلة وهو أن بعض الناس قد يقول : كيف يُعْفَى عنهم وهم قتلوا الآدمي ، وحق الآدمي لا يغفر بالتوبة ؟ قلنا : إنهم لم يقتلوا الآدميين لأنهم آدميون ، ولكن لأنهم مؤمنون ، فهم قتلوهم لكراهة ما يحملونه من الإيمان فلما آمنوا ارتفع عنهم الأثر وعُفي عنهم كل شيء . ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ قال الحسن البصري رحمه الله : ما أَحْلَمَ اللهَ ، يقتلون أولياءه ثم يدعوهم إلى التوبة[1] . ولا شك أن هذا من حلم الله عز وجل على عباده .

قال : وغير ذلك . تحفظون شيئًا من القصص غير ذلك ؟ كثير ، صاحب الجنتين وأصحاب الجنة ، وكذلك الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ولهذا نقول : في سورة البقرة خمس قصص فيها إحياء الموتى : القصة الأولى : قوم موسى فإنهم قالوا : ﴿ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾ فماتوا أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ، ثم بعثهم الله من بعد موتهم . القصة الثانية : أصحاب البقرة الذين تنازعوا في قتيل لهم فأمرهم الله عز وجل أن يذبحوا بقرة ويضربوا القتيل ببعضها ، أي بجزء منها ، في النهاية بعد المراجعات ذبحوها وما كادوا يفعلون ، وضربوه ببعضها ، فحَيا الرجل وقال : الذي قتلني فلان . والظاهر أنه مات مباشرة . هذه قصتان . الثالثة : الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر

(١) انظر تفسير ابن كثير (٤/٤٩٧) .

الموت . يعني أنه وقع في ديارهم وباء فخرجوا هاربين خوفًا من الموت ، فأراهم الله عز وجل أنه لا مفر من قدر الله . قال لهم : موتوا . فماتوا ثم أحياهم . أماتهم ليعلموا أنه لا مفر من قدر الله عز وجل . ولهذا نهى النبي ﷺ : « مَنْ وقع في أرضه الطاعون نهى أن يَخرج من أرضه فرارًا من الطاعون »[1] لأن هذا ينافي التوكل ولأنه ربما يُعاقب بأن يموت قبل أن يموت مَنْ في البلد . هذه ثلاث ، الرابعة : صاحب القرية الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها وتكلمنا عليه . الخامسة : إبراهيم والطيور ، إبراهيم قال : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ والإنسان مأمور بما يزيد في إيمانه من طمأنينة القلب والثبات . فأمره الله عز وجل أن يأخذ أربعة من الطير وأن يقتلهم ذبحًا ويخلط بعضهن ببعض ، ويجعل على [كل] جبل منهن جزءً ففعل ثم أمره الله أن يدعوهنَّ . أيتها الطيور أقبلي ، هذه كلمة . فأقبلت تأتيه سعيًا لا طيرانًا ، على خلاف المألوف من الطيور من أماكن بعيدة لا بد أن تطير ، لكن هذه أتت من قمم الجبال تسعى سعيًا حتى وقفت بين يديه بعد أن أحياها الله عز وجل . هذه خمس قصص في إحياء الموتى أما ما ذكره الله تعالى عن عيسى فهي كثير ، لأن عيسى يحيي الموتى بإذن الله ، يقف على الميت يقول : إحيا بإذن الله ، فيحيا ويقوم . يأتي إلى القبر ويقول : إحيا يا فلان اخرج . ثم يخرج من قبره آية من آيات الله عز وجل . فالحاصل أن القصص في القرآن كثيرة وكلها نافعة وكلها عبرة لكن ينبغي أن ننبه على أن هناك مؤلفين ألفوا في قصص الأنبياء وألفوا في قصص القرآن عمومًا ، لكن خلطوا بين الحابل والنابل وصاروا كحُطَّاب الليل ربما يكون في حطبه حية أو عقرب ولا يميزون ، ولذلك يجب الحذر مما ألف في قصص الأنبياء أو غيرها من قصص القرآن ، ولا ينبغي أن يراجعها إلا طالبُ علم يعرف الغَثَّ من السمين لئلا يضل .

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٣٠، ٦٩٧٣) ، ومسلم (٢٢١٩) عن عبد الرحمن بن عوف .

القسم الثالث : حوادث وأقوام في عهد النبي عليه الصلاة والسلام كقصة غزوة بدر ، بدر مذكورة في القرآن ؟ نعم مذكورة ، كذلك أيضًا أحد مذكورة ، الأحزاب ، بنو قُريظة ، بنو النَّضير ، زيد بن حارثة ، أبو لهب ولهذا ذُكر باسمه من هذه الأمة رجلان أحدهما في مقام الثناء والثاني في مقام القَدْح ، من الذي في مقام الثناء ؟ زيد ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] وفي مقام القَدْح أبو لهب ، أنزل الله تعالى فيه سورة كاملة تُتلى إلى يوم القيامة ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ * وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ * فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ ﴾ [المسد : ١ - ٥] وهو عم الرسول عليه الصلاة والسلام ، والله تعالى لا يُحابي أحدًا لقرابته من الرسول ولا يظلم أحدًا لبُعْده من الرسول . أبو لهب أنزل الله فيه سورة كاملة في ذمه والقدح فيه . وأبو طالب قال فيه : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص : ٥٦] مع أن كلًّا منهما عمه . لكن لماذا ؟ لأن أبا لهب آذى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأبو طالب نصر الرسول عليه الصلاة والسلام والله تعالى حَكَم عَدْل ، أعطى كلَّ واحد منهما ما يستحق ، هل ذُكر أحد من الصحابة بوصف ينطبق عليه على وجه تام ؟ أبو بكر [في قوله] : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] هذه أجمع المفسرون على أن المراد به أبو بكر رضي الله عنه ، وكذلك أيضًا ربما يقال كما قال بعض العلماء : في سورة الليل إذا يغشى : و﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى * وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى * الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى * وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى * وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴾ [الليل : ١٩] فهذه الآية نزلت في أبي بكر ، لكن لا يمنع أن تكون شاملة لغيره لأن العبرة بعموم اللفظ ، أما ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ ﴾ [التوبة : ٤٠] فهذا وصف لا يستحقه أحد سوى أبي بكر رضي الله عنه .

وللقصص في القرآن حِكَم كثيرة عظيمة منها:

١- بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص لقوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٤ - ٥].

● **الشرح**: هذه من فوائد القصص بيان حكمة الله عز وجل؛ لقوله في هذه الآية: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾وقوله: ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ «ما» يجوز أن تكون نافية يعني ما تغنيهم النذر، ويجوز أن تكون استفهامية يعني فأيّ شيء تغنيهم النذر. وأيهما أبلغ؟ الثاني أبلغ.

٢- بيان عدله تعالى بعقوبة المكذبين لقوله تعالى عن المكذبين: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠١].

● **الشرح**: هذه في سورة هود، لما ذكر الله تعالى قصص الأنبياء وإهلاك قومهم قال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ والآية تفيد أن هناك معنًى آخر غيرَ بيان العدل، وهو قوله: ﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ﴾ أي بيان أن آلهة هؤلاء المكذبين لم تغن عنهم شيئًا.

٣- بيان فضله تعالى بمثوبة المؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٤ - ٣٥].

● **الشرح**: قوله: ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ﴾ السحر متى؟ آخر الليل، مع أن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ وكيف يُجمع بين هذا وبين أن الله أنجاهم بسحر؛ الظاهر أن ذلك لما امتد، لما امتدت العقوبة من السحر إلى الصباح، وكان منتهى العقوبة في الصباح صار موعد إهلاكهم جميعًا هو الصباح ولكن هناك آية يقول الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٦] فهل هذا يعني أن الإيمان والإسلام شيء واحد؟ الجواب: لا. بل هذا يدل على أن الإيمان شيء

والإسلام شيء آخر ؛ لأنه قال : ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ولم يقل من كان فيها من المسلمين ﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ وذلك لأن الذين خرجوا ونَجَوْا هم لوط وأهله إلا امرأته ، وامرأته كانت معهم في السكن وكان ظاهرها أنها مسلمة كما قال الله تعالى : ﴿ امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ [التحريم : ١٠] أي خانتهما في الكفر ولوط لم يعلم عنها ، لكنها في وسط الدار مسلمة ، لم يظهر منها معارضة ولهذا ليس في القرية سوى بيت من المسلمين ، والذي نجا وخرج مَنْ هم ؟ المؤمنون ؛ لأن المرأة لم تخرج .

٤- تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذبين له لقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ [فاطر : ٢٥، ٢٦].

٥- ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه ؛ إذ علموا نجاة المؤمنين السابقين وانتصار مَنْ أُمروا بالجهاد لقوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٨]، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧].

٦- تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم ؛ لقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد : ١٠].

٧- إثبات رسالة النبي ﷺ ، فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا اللّه عز وجل ؛ لقوله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ [هود : ٤٩]، وقوله : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ

قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [إبراهيم: ٩].

● **الشرح** : هذه فوائد القصص في القرآن ، وهي كثيرة نذكر منها ما يلي :
أولا : بيان حكمة الله تعالى فيما تضمنته هذه القصص . دليل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ * حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ﴾ ثم ذكر الله عز وجل قصص الأنبياء في هذه السورة .

ثانيًا : بيان عدله جل وعلا في عقوبة المكذبين كقول الله تعالى عن المكذبين ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ﴾ ، لأننا إذا تتبعنا هذه القصص ووجدنا أن الله سبحانه وتعالى انتقم من الظالمين لأي شيء؟ لظلمهم . ولذلك قال : ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ فيتبين في ذلك كمال عدل الله سبحانه وتعالى .

ثالثًا : بيان فضله بمثوبة المؤمنين لقول الله تعالى : ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴾ .

والرابع : تسلية النبي ﷺ عما أصابه من المكذبين له ، وذلك أن النبي ﷺ يضيق صدره بما يقولون وما يكذبونه ؛ لأنه يحب عليه الصلاة والسلام من جميع الناس أن يؤمنوا ، ولكنه يقابل من قومه - وهم أقرب الناس إليه - بالتكذيب والإهانة والأذية ، ولا شك أنه سوف يتأذى بهذا . ولكن الله تعالى يسليه بذكر أخبار الأمم السابقة ، يقول عز وجل : ﴿ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ [فاطر : ٢٥] ﴿ الْبَيِّنَاتِ ﴾ يعني بالآيات البينات ، ﴿ الزُّبُرِ ﴾ جمع زبور وهو الكتاب ﴿ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ إما إنه مِنْ عَطْف المرادف على مرادفه كقوله :

* فألفى قولَها كذبًا ومَيْنا[١] *

(١) البيت من بحر الوافر ، وأورده القرطبي في التفسير (٣٩٩/١) ، وهو عجز بيت ، وصدره :
وقدمت الأديم لراهشيه ....

ويكون الفائدة من العطف تظهر في قوله ﴿ الْمُنِيرِ ﴾ يعني الكتب التي تنير للناس طريق الهداية ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ ولا شك أن النبي ﷺ سوف يتسلى بهذا ويتصبر، ولهذا تقول الخنساء وهي تتحدث عن مصيبتها في أخيها صخر تقول:

وما يبكون مثل أخي ولكنْ أُسَلِّي النفسَ عنه بالتأسي[1]

أتأسى بالناس وأقول: هؤلاء أُصيبوا أيضًا في آبائهم وإخوانهم وأقاربهم فأتسلى. وقد أشار الله إلى هذا في قوله ﴿ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٩] وهذا يدل على أن اشتراك الناس في العذاب يخفف عليهم، لكن في يوم القيامة لا ينفع هؤلاء اشتراكهم في العذاب.

خامسًا: ترغيب المؤمنين في الإيمان بالثبات عليه والازدياد منه إذا علموا نجاة المؤمنين السابقين وانتصار مَنْ أُمروا بالجهاد لقول الله تعالى: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٨] فإن المؤمنين إذا علموا أن الله ينصر من سبق وأنه يثيبهم فإنهم سوف ينشطون على ما هم عليه من الإيمان ويثبتون عليه. وقوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] الشاهد من هذا قوله: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أوجب الله عز وجل على نفسه أن ينصر المؤمنين ولكن من هم المؤمنون؟ هل هم المؤمنون بالاسم أو بالحقيقة؟ الثاني: هم المؤمنون بالحقيقة الذين صدقوا المرسلين واتبعوا المرسلين، فإن هؤلاء لا بد أن يُنصروا؛ لأن الله تكفل بذلك في قوله: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ إثبات صفة الانتقام لله عز وجل، وأنه ينتقم. لكن ممن؟ من المجرمين. وهذه الصفة لا تقال

---

(١) ديوان الخنساء (ص٨٥)، وأورده القرطبي في التفسير (٩١/١٦)، وفيهما «أعزّي» مكان «أسلي». وهو من بحر الوافر.

على سبيل الإطلاق لم ترد إلا مقيدة ولهذا نقول : إن عَدّها من الأسماء الحسنى غَلَط كما يوجد الآن في بعض الكتب التي تَعُدُّ أسماء الله الحسنى يقولون : من أسمائه المنتقم . وليس كذلك ؛ لأن المنتقم لم ترد من أسماء الله على وجه الإطلاق بل مقيدة ﴿ إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ [السجدة : ٢٢] ﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ﴾ [الروم : ٤٧] .

سادسًا : تحذير الكافرين من الاستمرار في كفرهم لقوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى الآن لم نصل للشاهد في الآية الشاهد قوله : ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴾ [محمد : ١٠] يعني فاحذروا أيها الكفار أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء من التدمير ، ولكن نقول :

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حَيًّا ولكن لا حياةَ لِمَنْ تُنادي[1]

كما قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ ﴾ [النمل : ٨٠ - ٨١] .

سابعًا : إثبات دلالة رسالة النبي ﷺ ؛ فإن أخبار الأمم السابقة لا يعلمها إلا الله عز وجل لقول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ [هود : ٤٩] فإذا قص النبي عليه الصلاة والسلام القصص على الوجه المطابق دل ذلك على أنه رسول الله ؛ لأنه ﷺ كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ولا يتلقى الأخبار ، فإذا أتى بأخبار مَنْ سبق دل على أنه يُوحى إليه وأن هذا من الله . وكقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [إبراهيم : ٩] فإذا تحدث النبي ﷺ عنهم عُلم أن ذلك عن طريق الوحي .

هذه سبع فوائد لقصص القرآن وربما يظهر فوائد أخرى للمتأمِّل .

* * *

(١) أورده المناوي في « التعاريف » (ص٣٠١) ، وهو من بحر الوافر .

تَكْرَار القَصَص

من القصص القرآنية ما لا يأتي إلا مرة واحدة مثل قصة لقمان، وأصحاب الكهف. ومنها ما يأتي متكررًا حَسَبَ ما تدعو إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة، ولا يكون هذا المتكرر على وجه واحد، بل يختلف في الطول والقِصَر واللِّين والشِّدَّة وذِكْر بعض جوانب القصة في موضع دون آخر، ومن الحكمة في هذا التَّكْرار:

● **الشرح:** تكرار قصص القرآن ليس هذا على سبيل التكرار الذي لا فائدة منه، بل منه فائدة، لكن القصص كما قال: منها ما لا يتكرر كقصة لقمان وأصحاب الكهف لم تذكر إلا مرة واحدة، ومنها ما يتكرر حسب ما تدعو الحاجة إليه. ولهذا كان أكثر القصص تكرارًا قصة موسى؛ لأن الحاجة تدعو إلى ذلك، فإن اليهود كانوا موجودين في المدينة وقريبين من قريش وكذلك النصارى في نجران وغيرها، لذلك تكررت قصة موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام أكثر من غيرهما. حسب ما تدعو الحاجة إليه وتقتضيه المصلحة، ومع هذا لا يكون هذا التكرار على وجه واحد بل يختلف في الطول والقصر واللين والشدة وذكرُ بعض جوانب القصة في موضع دون آخر وإنْ وُجد نادرًا جدًا أن تأتي الآية هي نفس الآية الأولى فهذا قليل جدًا، فمثلا نجد من أقصر القصص وأشدها ما جاء في سورة القمر. فإن القصص قصيرة جدًّا، لكن فيها قوارع عظيمة تُختم كل واحدة بقوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥] فالذي يقرأ هذه السورة بتدبر لا بد أن يتأثر لأنها عظيمة ومن فوائد التكرار ما سيأتي.

١- بيان أهمية تلك القصة؛ لأن تَكرارها يدل على العناية بها.

٢- توكيد تلك القصة لتثبت في قلوب الناس.

٣- مراعاة الزمن وحال المخاطَبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالبًا فيما أتى مِن القَصص في السور المكية، والعكس فيما أتى في السور المدنية.

٤- بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه وذاك الوجه على ما تقتضيه الحال.

٥- ظهور صدق القرآن وأنه من عند اللّٰه تعالى، حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدون تناقض.

● **الشرح**: هذه في الحكم: [أولًا][1]: بيان أهمية تلك القصة ولذلك يكررها الله عز وجل اعتناءً بها وتثبيتا وترسيخًا.

ثانيًا[2]: مراعاة الزمن وحال المخاطبين بها، ولهذا تجد الإيجاز والشدة غالبًا فيما أتى من القصص في السور المكية والعكس فيما أتى في السور المدينة. وهذا من بلاغة القرآن مراعاة حال المخاطب هذه من أعلى أنواع البلاغة.

رابعًا: بيان بلاغة القرآن في ظهور هذه القصص على هذا الوجه وذاك الوجه على ما تقتضيه الحال لأن مطابقة الكلام لمقتضى الحال هو البلاغة في الحقيقة.

خامسًا: ظهور صدق القرآن وأنه من عند الله، حيث تأتي هذه القصص متنوعة بدون تناقض. فإن هذا يدل على صدق القرآن ويدل أيضًا من وجه آخر كونها تأتي على وجوه متعددة بما يدل على صدق القرآن وعلى أن النبي ﷺ يتلوه على الناس كما ورد، وتعلمون أن الكاذب يحاول أن يخفي كذبه بكل طريقة فيحاول أن يكون كلامه الثاني مثل الأول حتى لا يقول الناس إنك كذاب حدثتنا بالوجه الأول على وجه كذا والثاني على وجه كذا. فإذا جاءت القصص فيها نوع من التغاير مع ثبوت النبي ﷺ عليها وبيانها للناس دل على أنه صادق عليه الصلاة والسلام. فإن قال قائل: متنوعة بدون تناقض. نجد بعضها يعارض البعض في الظاهر، مثل قصة موسى مع فرعون، فإنه في بعض الآيات ﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ

(١) زيادة لإيضاح الكلام.

(٢) هكذا «ثانيًا»، ولكنه تكلم على الفائدة الثالثة لا الثانية. ثم قال: رابعًا. فسقط الثالث، والواقع أن الشيخ لم يتكلم على الثانية، وظاهر الحال أنه ترك الثالث فتنبه.

هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الشعراء : ٣٤] وفي بعض الآيات ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٠٩] فكيف الجمع ؟ نقول : الجمع سهل جدًّا ، نسبة هذا القول إلى قومه وإليه لا تعارض بينهما . يقول ذلك أولًا ، ثم يتبعه قومه . وهذا ليس فيه غرابة . كذلك ﴿ سَاحِرٌ مُبِينٌ ﴾ و﴿ سَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴾ لأن الساحر العليم يلزم من علمه أن يبين . وتعلمون أن الأمر ليس كلمة واحدة قد يكون تكلم بساحر عليم في وقت ، وساحر مبين في وقت آخر ، فالإنسان الذكي يستطيع أن يجمع بين ما ظاهره التعارض في القصة الواحدة .

* * *

الإسرائيليات

الإسرائيليات: الأخبار المنقولة عن بني إسرائيل من اليهود - وهو الأكثر - أو من النصارى.

وتنقسم هذه الأخبار إلى ثلاثة أنواع:

الأول: ما أقره الإسلام وشهد بصدقه فهو حق.

مثاله: ما رواه البخاري وغيره[1] عن ابن مسعود رضي اللّه عنه: جاء حَبْرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنَّا نجد أَنَّ اللَّه يجعل السماوات على إصبع، والأَرَضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثَّرَى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع. فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحَبْر. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

● **الشرح**: الإسرائيليات من القصص، ويجب الحذر منها خصوصًا إذا كانت تتضمن عيبًا أو لمزًا لأحد الأنبياء، مثل قصة سليمان، قصة داود، وما أشبه ذلك كما سيذكر إن شاء الله.

الإسرائيليات تنقسم إلى ثلاث أقسام، الأول: ما أقره الإسلام وشهد بصدقه فهذا حق، حق لأنه عن بني إسرائيل أو حق لأن الإسلام أقره وشهد بصدقه؟ الثاني. مثاله: ما رواه البخاري وغيره عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله - حَبْرٌ ويقال حِبْرٌ وكلاهما صحيح، والحَبْر هو العالم - فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع - يقول: يا محمد، ما يقول يا رسول الله؛ لأنه يهودي لا يقر برسالة محمد عليه الصلاة

---

(١) متفق عليه: البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦)، وانظر تفسير النسائي (٤٧٠، ٤٧١).

والسلام – إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصْبِع . أم أصْبَع ؟ ما أحد يغلط فيها (أبدًا من ناحية الصرف) لأنها مثلثة الهمزة والباء والصاد ساكنة على كل حال ولهذا جمعت لغاتها في بيت بل في شطر بيت في قول الناظم : [البسيط]

وهَـمْـزَ أَنْمُـلَـةٍ ثَـلِّـثْ وثـالـثُـه التسعُ في إصبعٍ واخْتِمْ بإصْبُوع

التسع لغات في إصبع واختم بإصْبُوع ، إذن إصبع فيها عشر لغات تسع باعتبار حركة الهمزة والباء والعاشرة إصْبُوع . الإصبع هنا إصبع مَنْ ؟ إصبع الرب عز وجل ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجده تصديقًا لقول الحبر ، وليس تعجبًا من قوله وإنكارًا له كما زعمه أهل التحريف ، الذين يقولون : إن الله ليس له أصابع ، والعياذ بالله . ويقولون : إن الرسول إنما ضحك تعجبًا وإنكارًا ! فيقال : أأنتم أعلم أم الصحابة ؟ وابن مسعود من فقهاء الصحابة ومن أجلائهم ومع ذلك قال إنه ضحك تصديقًا لقول الحبر . وهذه مسألة عظيمة لو كان هذا أمرًا منكرًا ما اقتصر النبي ﷺ على مجرد الضحك الذي يحتمل أن يكون تصديقًا ويحتمل إنْ قيل به أن يكون إنكارًا . لو كان منكرًا لأنكره صراحة . ثم قرأ الرسول عليه الصلاة والسلام أيضًا قرأ مقررًا لهذا ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر : ٦٧] أي ما عَظَّموا الله حق تعظيمه مع أنه عز وجل في هذه العظمة العظيمة : الأرض جميعًا كلها قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

الثاني : ما أنكره الإسلام وشهد بكذبه فهو باطل .

مثاله : ما رواه البخاري[(١)] عن جابر رضي الله عنه قال : كانت اليهود تقول : إذا جامعها مِنْ ورائها جاء الولد أَحْوَل ، فنزلت : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٣] .

---

(١) متفق عليه : البخاري (٤٥٢٨) ، ومسلم (١٤٣٥) ، وانظر تفسير النسائي (٥٨، ٥٩) .

● **الشرح :** هذا الذي شهد شرعنا بتكذيبه يجب علينا أن نكذبه ، مثل قول اليهود : إن الرجل إذا جامع زوجته في قبلها من دبرها صار الولد أحول . والحَوَل هو مَيْل العين إلى أحد الجانبين فأنزل الله هذه الآية ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٣] والحرث موضع الزرع ، وهو بالنسبة للنساء القبل ، فأتوا هذا الحرث أنى شئتم ، يعني من أي جهة شئتم وعلى أي حال كنتم لكن يكون الإتيان في الحرث فقط . وهذا تكذيب لقول اليهود : إن الإنسان إذا أتى امرأته من دبرها في قبلها صار الولد أحول .

الثالث : ما لم يقره الإسلام ولم ينكره فيجب التوقف فيه ، لما رواه البخاري[١] عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسّرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ ﴾ » الآية [البقرة : ١٣٦] . ولكن التحدث بهذا النوع جائز إذا لم يُخْشَ محذور ، لقول النبي ﷺ : « بلغوا عني ولو آية ، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » . رواه البخاري[٢] .

● **الشرح :** هذا الثالث هو الميدان الفسيح لناقل الإسرائيليات ؛ ما لم يرد في شرعنا تصديقه ولا تكذيبه ، فهذا يجب التوقف فيه ، لا نصدق ولا نكذب ، لأننا إن صدقناه وهو باطل فقد صدقنا بباطل ، وإن كذبناه وهو حق فقد كذبنا بحق . فالواجب التوقف . ودليل ذلك حديث أبي هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام العبرانية هذه لغة اليهود . قال شيخ الإسلام[٣] : وهي قريبة من اللغة العربية ، واستدل لذلك بأن النبي ﷺ أمر

---

(١) البخاري (٤٤٨٥) ، وزاد في رواية كتاب الاعتصام (٧٣٦٢) : « إليكم » ، وهذه ليست من الآية .

(٢) البخاري (٣٤٦١) .

(٣) الفتاوى (١١١/٤) .

زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود فتعلمها في أيام قليلة نحو ستة عَشَرَ يومًا[1] فدل ذلك على أنها سهلة . فقال رسول الله ﷺ : « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ولكن قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم » وإذا كنا لا نصدق ولا نكذب فيعني هذا أننا نتوقف . ولكن التحدث بهذا النوع يعني الذي لم يرد شرعنا بإنكاره ولا إثباته جائز بشرط إذا لم يخش محذور ، لقول النبي ﷺ : بلغوا عني ولو آية وحدثوا عني بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار . رواه البخاري[2] . المحذور الذي يُخْشى منه أن يتجه الناس إلى هذه القصص ويَدَعُوا ما جاء في القرآن والسنة ، فإذا كنا أتينا بهذه الإسرائيليات التي ليس في شرعنا تصديقها ولا تكذيبها انهمك الناس فيها وأقبلوا إليها وتركوا ما في القرآن والسنن من المواعظ ففي هذه الحال ماذا نعمل ؟ يجب ألا ننقلها للناس وألا نتحدث بها ، لأن كل شيء يفضي إلى الإعراض عن الكتاب والسنة فإنه محرم .

وغالب ما يروى عنهم من ذلك ليس بذي فائدة في الدين ، كتعيين لَوْن كلب أصحاب الكهف ونحوه .

● **الشرح** : أكثر ما يروى عن الإسرائيليين ليس فيه كبير فائدة ، مثلا يقولون في كلب أصحاب الكهف ما لونه . ماذا علينا من هذا ؟ يقولون في طعام الذي أماته الله مئة عام : ما هو هذا الطعام ؟ حنطة ، عنب ، تمر وما أشبه ذلك ، هذا ليس فيه فائدة كبيرة ، لذلك أكثر ما يروى عنهم هو هذا الذي لا فائدة فيه .

[أيضًا من ذلك الشجرة التي نهى الله تعالى آدم وحواء أن يأكلا منها ما هي ، أي شجرة هذه ؟ لا فائدة من ذلك][3] .

إذن أخبار بني إسرائيل تنقسم إلى ثلاثة أقسام : ما شهد شرعنا بصدقه ، وما

(١) البخاري تعليقًا ، باب ترجمة الحكام ووصله في التاريخ (٣/٣٨٠) ، وانظر فتح الباري (١٣/١٨٦) .
(٢) البخاري (٣٤٦١) عن عبد الله بن عمرو .
(٣) زادها الشيخ رحمه الله بعد الانتهاء من شرح هذه الفقرة .

شهد شرعنا بكذبه، وما لم يشهد شرعنا بكذبه ولا بصدقه.

الأول: مقبول لأن شرعنا شهد به، والثاني: منكر مردود؛ لأن شرعنا كذبه، والثالث: يجب أن نتوقف فيه، ولكن هل نتحدث به؟ نعم بشرط أن لا يكون في ذلك محذور شرعي.

وأما سؤال أهل الكتاب عن شيء من أُمور الدين فإنه حرام لما رواه الإمام أحمد[١] عن جابر بن عبد اللَّه رضي اللَّه عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، فإنكم إما أن تصدقوا بباطل أو تكذبوا بحق، وإنه لو كان موسى حيًا بين أظهركم ما حَلَّ له إلا أن يتبعني». وروى البخاري[٢] عن عبد اللَّه بن عباس رضي اللَّه عنهما أنه قال: يا معشرَ المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزل الله على نبيكم ﷺ أحدث الأخبار باللَّه، مَحْضًا لم يُشَبْ، وقد حدثكم اللَّه أن أهل الكتاب قد بَدَّلوا من كتاب اللَّه وغَيَّروا وكتبوا بأيديهم، قالوا: هو من عند اللَّه، ليشتروا بذلك ثمنًا قليلًا، أَوَ لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم، فلا والله ما رأينا رجلًا منهم يسألكم عن الذي أُنزل إليكم.

● **الشرح**: رضي الله عنه، هذا كلام جيد جَزْل، وبه نعرف أنّ ما يذكره علماء الحديث في المصطلح أن ابن عباس ممن عرف بالأخذ عن بني إسرائيل أنه لا صحة له؛ لأنه كيف يأخذ عن بني إسرائيل وهو ينهى عن الأخذ منهم[٣] فهو يقول: كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء وكتابكم الذي أنزله الله على نبيكم أحدث الأخبار عن الله لأنه آخر ما نَزل، مَحْضًا لم يُشَب. يعني ما بُدِّل ولا غُيِّر

---

(١) رواه أحمد (٣/٣٨٧) وغيره. قال الهيثمي في المجمع (١/١٧٤): فيه مجالد بن سعيد ضعفه أحمد ويحيى بن سعيد وغيرهما.

(٢) البخاري (٧٣٦٣).

(٣) هذا ينبغي تأويله، لأن ابن عباس قد روى عن كعب الأحبار عدة آثار، منها في الجهاد (٦١) لابن المبارك، وتفسير الطبري (١٥/١٩٨)، وشعب الإيمان (٣٣١٣)، وحلية الأولياء (٥/٣٧٥).

ولا زيد فيه ولا نقص منه . وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدلوا من كتاب الله وغيروا فكتبوا بأيديهم قالوا : هو من عند الله ليشتروا بذلك ثمنًا قليلا ، أو لا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ فلا والله ما رأينا رجلا منهم يسألكم في الذي أنزل إليكم ، كيف هم لا يسألوننا عن الذي أنزل إلينا مع أنه آخر ما نزل ؟ كيف نحن نسألهم ؟ وهذا من باب الإغراء في ترك سؤالهم كأنه يقول : إذا كانوا هم لا يسألونكم فكيف تسألونهم ؟ فإن قال قائل : أليس الله يقول : ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ [يونس: ٩٤] فيقال : ليس هذا سؤال استعلام ، ولكنه سؤال إثبات لما نزل . ثم إن هذه القضية أعني الشرطية إن كنت في شك لم ترد ، النبي ﷺ لم يشك ولم يسألهم[1] .

* * *

(١) تقدم الكلام على هذه المسألة (ص١٢٩) .

موقف العلماء من الإسرائيليات

اختلفت مواقف العلماء ولا سيما المفسرون مِنْ هذه الإسرائيليات على ثلاثة أنحاء :

أ- فمنهم مَنْ أكثر منها مقرونة بأسانيدها، ورأى أنه بذكر أسانيدها خرج مِن عهدتها، مثل ابن جَرير الطبري .

ب- ومنهم مَنْ أكثر منها وجَرَّدها من الأسانيد غالبًا فكان حَاطِبَ لَيْل، مثل البَغَويّ، الذي قال شيخ الإسلام ابن تيمية[1] عن تفسيره : إنه مختصر من الثَّعْلبي ، لكنه صانه عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدَعة ، وقال عن الثَّعْلبي : « إنه حاطب ليل ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع » .

ج- ومنهم مَنْ ذكر كثيرًا منها وتَعقَّب البعضَ مما ذكره بالتضعيف أو الإنكار مثلُ ابن كثير .

د- ومنهم مَنْ بالغ في رَدِّها ولم يذكر منها شيئًا يجعله تفسيرًا للقرآن كمحمد رَشيد رضا .

● **الشرح** : قوله موقف العلماء من الاسرائيليات هذا قد عُلم مما سبق أن الاسرائيليات تقسم إلى ثلاثة أقسام : قسم شهد شرعنا بصدقه ، فهذا يصدق لأن شرعنا شهد به . والثاني : شهد بخلافه ، فهذا لا يصدق . والثالث : لم يرد شرعنا بنفيه ولا إثباته فهذا يتوقف فيه . لكن قوله : « موقف العلماء » مراده بذلك استعمال العلماء للإسرائيليات هل هم يكثرون منها أو يقللون ؟ وهل يعتبرونها أو لا يعتبرونها ؟ هذا هو المقصود بهذه الترجمة ، فالعلماء رحمهم الله منهم من أكثر منها لكنه ذكرها مقرونة بأسانيدها ، ورأى أنه إذا ذكرها مقرونة بأسانيدها خرج من العُهْدة ولكن قد يقال : إن هذا فيه نظر ؛ لأنه إذا ذكرها فقد لا يتيسر للقارئ أن يراجع أصولها ويعرفها ، ولكن يُعتذر عن ابن جرير وأشباهه يعتذر عنهم أنهم

(١) مجموع الفتاوى (١٣/٣٥٤) .

والله أعلم أنهم لم يكن لهم فراغ في تمحيصها وتحريرها، وخافوا من ضياع الصحيح منها، فقالوا: نثبتها ولعل الله أن يأتي بمَنْ ينقحها ويحررها.

والقسم الثاني: مَنْ أكثر منها وجردها من الأسانيد غالبًا. وهذا أقل رتبة من الأول؛ لأن الأول يذكر الأسانيد وبإمكان الإنسان أن يراجعها ويعرف الصحيح من الضعيف. لكن هذا لا يذكر الأسانيد فكان حاطب ليل مثل البغوي رحمه الله، تفسيره فيه إسرائيليات كثيرة لا يذكر لها إسنادًا ولا يتعقبها لكنه في اللغة جيد. وتفسيره تفسير تجزئة. ليس كبعض المفسرين يذكر الآيات الكثيرة ثم يذكر المعنى مجملًا بل تفسيره تفسير تجزئة، على جملة جملة، ومفيد لطالب العلم لكن ما أحد إلا وله هَفْوة، في الإسرائيليات لا يهتم بها، ولا يذكر أسانيدها وينقلها. وقال شيخ الإسلام عن تفسيره: إنه مختصر من الثعلبي لكنه - أي البغوي رحمه الله - صانه عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة. فكان بذلك خيرًا من تفسير الثعلبي. وقال عن الثعلبي يقول شيخ الإسلام: إنه حاطب ليل، حاطب الليل ربما يحمل مع حطبه ثعبانًا يهلكه، ولا يتفقد ولا ينظر، يأخذ ما هب ودب. ولذلك يُضرب هذا مثلا لمن لا يكترث بالأمور ولا يحققها ولا يحررها، قال: ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع.

ومن العلماء مَنْ ذكر كثيرًا منها وتعقب البعض مما ذكره بالتضعيف أو الإنكار. وهذا مثل ابن كثير. ولكن نقول: تعقب يعني لم يتعقب جميع الإسرائيليات الضعيفة، بل تعقب بعضها وأنكره أشد الإنكار. وهذا أحسن من الذي قبله.

ومنهم من بالغ في ردها ولم يذكر منها شيئًا يجعله تفسيرًا للقرآن كمحمد رشيد رضا. والظاهر أن غيره من المعاصرين مثله لا يعتبر إطلاقًا بالإسرائيليات ويقول: لا يجوز أن يُفسر بها كلام الله، ويعرض عنها إعراضًا كاملا.

هذه أحوال العلماء بالنسبة للإسرائيليات.

* * *

الضمير

الضمير لغة: مِن الضُّمور وهو الهُزَال لقلة حروفه، أو مِنْ الإضمار وهو الإخفاء لكثرة استتاره.

وفي الاصطلاح: ما كُنِّي به عن الظاهر اختصارًا، وقيل: ما دل على حضور أو غَيبة لا مِنْ مادتهما.

● **الشرح**: الضمير موجود بكثرة في اللغة العربية وفي القرآن الكريم وفي السنن النبوية، فهو مشتق من الضمور وهو الهزال لقلة حروفه؛ لأن حروفه قليلة في الواقع، تجد بعضها على حرف واحد مثل «و»، ومنه ما هو على حرفين «هو» ومنه ما هو على ثلاثة «هما» إذا لم نجعل الميم والألف علامة التثنية، «نحن» ثلاثة؟ نعم.

وقيل: إنه من الإخفاء لكثرة استتاره. كلامه صحيح. في الاصطلاح: ما كني به عن الظاهر اختصارًا يعني ما جاء كناية عن الظاهر اختصارًا، فإذا قلت: عمرو ضرب ذو بطن فهي نابت عن عمرو، اختصارًا. وقيل: ما دل على حضور أو غَيْبة لا من مادتهما، وهذا تفسير ابن مالك في الألفية:

فما لذي غَيبةٍ او حُضُورِ ... كَأَنتَ وَهْوَ سَمِّ بالضَّميرِ[1]

لا من مادتهما يعني لا نقول «حضر» إنه ضمير، ولا «غاب» إنه ضمير، لأن دلالة حضر على الحضور من المادة، ودلالة غاب على الغَيبة من المادة أيضًا.

فالدال على الحضور نوعان:

أحدهما: ما وُضع للمتكلم مثل: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ [غافر: ٤٤].

الثاني: ما وضع للمخاطَب مثل: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

(١) ألفية ابن مالك (رقم ٥٤).

وهذان لا يحتاجان إلى مرجع اكتفاءً بدلالة الحضور عنه.

والدال على الغائب: ما وضع للغائب، ولابد له من مرجع يعود عليه.

● **الشرح**: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ أين الضمير؟ الياء في «أمري» أما ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ فهي التاء.

والأصل في المرجع أن يكون سابقًا على الضمير لفظًا ورُتبة، مطابقًا له لفظًا ومعنى: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ [هود: ٤٥].

● **الشرح**: هذا الأصل في مرجع الضمير، أولا «الغائب» لا بد له من مرجع، «المتكلم» يحتاج إلى مرجع؟ لا. اكتفاء بالحضور. «المخاطب» لا يحتاج إلى مرجع اكتفاء بالحضور. «الغائب» هو الذي يحتاج إلى مرجع، والأصل في المرجع أن يكون سابقًا على الضمير لفظًا ورتبة مطابقًا له لفظًا ومعنى. إذن سابقًا مطابقًا، والسبق إما باللفظ وإما بالرتبة، والمطابقة إما باللفظ وإما بالمعنى. مثاله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ﴾ الهاء في «ربه» تعود على نوح، نوح سابق على الضمير لفظًا واضح ﴿نُوحٌ رَبَّهُ﴾ ورتبة لأنه فاعل، والفاعل مقدم فى الرتبة على غيره، هل هو مطابق لفظًا ومعنى [نعم] لفظًا ومعنى؛ لأنه أي الضمير في «ربه» ضمير مفرد مذكر، والمرجع مفرد مذكر.

وقد يكون مفهومًا من مادة الفعل السابق مثل: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨].

● **الشرح**: ﴿اعْدِلُوا هُوَ﴾؟ أين المرجع؟ المرجع هو العدل المفهوم من كلمة اعدلوا.

وقد يسبق لفظًا لا رتبة مثل: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقد يسبق رتبة لا لفظًا مثل: «حمل كتابَه الطالب».

● **الشرح**: يسبق لفظًا مثل ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾ ما هو وجه أنه متقدم لفظًا لا رتبة؟ الهاء عائدة على إبراهيم، وإبراهيم متقدم لفظًا لا رتبة لماذا لا رتبة؟

لأن المفعول به يكون بعد الفاعل .

وقد يسبق رتبة لا لفظًا مثاله : « حمل كتابه الطالب » .

[**إعادة الشرح**] قد يسبق لفظًا لا رتبة مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ ﴾ أولا لابد أن تعرف مرجع الضمير في « قد يسبق » ، ما هو الذي قد يسبق هل هو الضمير أم المرجع ؟ المرجع قد يسبق لفظًا لا رتبة ، مثاله : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ ﴾ أين موضع إبراهيم ؟ متأخر لأن إبراهيم مفعول به ، ورب فاعل ، والرتبة أن المفعول به متأخر عن الفاعل . هنا قُدم المفعول به فصار متقدمًا لفظًا لا رتبة ، لأن رتبة يكون بعد الفاعل وقد يتقدم رتبة لا لفظًا ، يتقدم الضمير يعود على أي شيء ؟ على المرجع وقد يسبق رتبة لا لفظًا ، مثاله « حمل كتابه الطالب » الآن الطالب فاعل وهو بحسب الترتيب اللفظي متأخر ، وحسب الترتيب المعنوي متقدم ، يعني كان المفروض أن يقول : حمل الطالب كتابه ، هذا الأصل ، لكن قال : حمل كتابه الطالب ، فكيف عاد الضمير إلى متأخر ؛ نقول هو متأخر لفظًا متقدم رتبة .

وقد يكون مفهومًا من السياق مثل : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ [النساء : ١١] ، فالضمير يعود على الميت المفهوم من قوله : ﴿ مِمَّا تَرَكَ ﴾ .

وقد لا يطابق الضمير معنى مثل : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ [المؤمنون : ١٢، ١٣] ، فالضمير يعود على الإنسان باعتبار اللفظ ؛ لأن المجعول نطفة ليس الإنسانَ الأول .

● **الشرح** : قد يكون مفهوما من السياق مثل قوله : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ﴾ فالضمير يعود على الميت المفهوم من قوله : ﴿ مِمَّا تَرَكَ ﴾ أبويه ، أبوي من ؟ هل سبق له مَرْجع ؟ لا . نقرأ الآية ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ

كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ ﴾ [النساء: ١٠] أبوي مَنْ؟ «الميت» المفهوم من قوله ﴿ مِمَّا تَرَكَ ﴾.

وقد لا يطابق الضمير معنى مثل ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً ﴾ ﴿ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ ﴾ أي الإنسان باعتبار اللفظ، أو باعتبار المعنى؟ إذا قلتم مطابق فمعناه أن آدم تحول إلى نطفة وصار في بطن الأمهات، وهذا لا يستقيم، إذن ﴿ جَعَلْنَاهُ ﴾ أي الإنسان، فعاد إلى اللفظ لا إلى المعنى.

وإذا كان المرجع صالحاً للمفرد والجمع جازَ عَوْد الضمير عليه بأحدهما، مثل: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴾ [الطلاق: ١١].

● **الشرح**: إذا كان المرجع صالحاً للمفرد والجمع جاز عود الضمير عليه بأحدهما، يعني إما الجمع وإما المفرد. مثاله: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ ﴾ مَنْ هذه شرطية، صالحاً لواحد والجماعة ﴿ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ ﴾، الضمائر هذه عادت إلى مَنْ باعتبار المفرد، ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ باعتبار الجمع. ومَنْ لفظها مفرد ومعناها جمع. ﴿ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ ﴾ عادة مرة ثانية إلى المفرد، وهذا يُعْلَم من السياق.

والأصل اتحاد مرجع الضمائر إذا تعددت مثل: ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ [النجم: ٥ - ١٠]، فضمائر الرفع في هذه الآيات تعود إلى شديد القوى وهو جبريل.

● **الشرح**: هذه مهمة جدًّا. الأصل أن الضمائر مرجعها واحد، وكما أن هذا هو الأصل فهو الأقرب للمعنى؛ لأنك لو جعلت الضمير الأول لشيء والثاني لشيء والثالث لشيء، لزم من ذلك تشتت الضمائر وصار الكلام الذي يراد أن

يكون بيّنا صار مبهمًا خفيًا ، فإذا وجدت ضمائر متعددة فاحملها على مرجع واحد ، هذا هو الأصل ولا تشتت الضمائر ، ولنقرأ هذه الآيات قال الله تعالى : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى ﴾ ﴿ عَلَّمَهُ ﴾ أي النبي ﷺ ، ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى ﴾ يعني بذلك جبريل ، ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أي ذو هيئة حسنة ، ﴿ فَاسْتَوَى ﴾ أي كمل ﴿ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَى ﴾ الأفق الأعلى معناه الشيء المرتفع في الجو ، وقوله ﴿ اسْتَوَى ﴾ أي كان على خِلْقته التي خلق عليها ، له كم؟ ستمائة جناح[1] ، ﴿ ثُمَّ دَنَا ﴾ دنا مَنْ؟ جبريل ، ﴿ فَتَدَلَّى ﴾ ، جبريل ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ جبريل ، ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ أوحى جبريل ، ﴿ إِلَى عَبْدِهِ ﴾ الهاء هنا لا تكون لجبريل ، إلى الله ، ﴿ مَّا أَوْحَى ﴾ أي ما أوحاه جبريل أو ما أوحاه الله إلى جبريل ؟ من العلماء من قال : إن قوله : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ هو يعود على الله عز وجل والذي حملهم على ذلك قوله : ﴿ فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى ﴾ فراعوا آخر الآية ولم يراعوا أولها . وشتتوا الضمائر ولم يوحدوا مرجعها ولهذا كان المتعين أن يكون الذي دنا فتدلى هو جبريل عليه الصلاة والسلام ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ إلى الرسول عليه الصلاة والسلام . وهذه قاعدة مهمة أن الضمائر إذا تتابعت فمرجعها واحد إلا بدليل يصرفها عن هذا .

والأصل عود الضمير على أقرب مذكور ؛ إلا في المتضايفين فيعود على المضاف ؛ لأنه المتحدَّث عنه ، مثال الأول : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ [الإسراء: ٢].

ومثال الثاني : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

وقد يأتي على خلاف الأصل فيما سبق بدليل يدل عليه .

● **الشرح** : والأصل عود الضمير على أقرب مذكور إلا في المتضايفين فيعود

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٦) ، ومسلم (١٧٤) عن ابن مسعود .

على المضاف لأنه المتحدث عنه . مثال الأول - يعني أقرب مذكور ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ جعلناه : الكتاب ، لماذا ؟ لأنه أقرب مذكور .

ومثال الثاني - المتضايفين - قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ الضمير يعود على مَنْ ؟ على نعمة الله ، والدليل على أنه يعود عليها ؟ التأنيث ﴿ لَا تُحْصُوهَا ﴾ . قوله تعالى : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ هو سماكم هل هو الله أو إبراهيم ؟ (قولان) ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا ﴾ فيها قولان : قول يعود على الله لأن الحديث هكذا مجراه . وقول يعود على إبراهيم لأنه أقرب مذكور ، والحقيقة أنه يمر بنا في القرآن لكننا لا نقيد ثم ننسى ، يمر بنا أشياء يعود الضمير فيها إلى المضاف إليه ، وأشياء يعود الضمير إلى المضاف وهذا ينبغي للإنسان إذا مرت به هذه الأشياء أن يقيدها لئلا ينسى .

* * *

الإظهار في موضع الإضمار

الأصل أن يؤتى في مكان الضمير بالضمير لأنه أبين للمعنى وأخصر للفظ، ولهذا ناب الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥] عن عشرين كلمة المذكورة قبله، وربما يؤتى مكان الضمير بالاسم الظاهر وهو ما يسمى «الإظهار في موضع الإضمار» وله فوائد كثيرة تظهر بحسب السياق منها:

● **الشرح**: الأصل أن يؤتى في مكان الضمير بالضمير من وجهين الوجه الأول أنه أبين للمعنى؛ لأنك إذا أظهرت في موضع الإضمار فقد يظن الظان أن هذا الكلام لا يرجع ولا يعود إلى ما سبق. والثاني أنه أخصر؛ لأننا قلنا في تعريف الضمير: ما كني به عن الظاهر اختصارًا[1]. ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ أرأيت لو قيل: أعد الله للمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصابرين والصابرات ... إلخ.

ماذا يكون الكلام؟ يكون طويلا من وجه وركيكًا من وجه آخر، فجاء هذا الضمير لينوب عن عشرين كلمة. وهذا واضح.

١- الحكم على مرجعه بما يقتضيه الاسم الظاهر.

٢- بيان علة الحكم.

٣- عموم الحكم لكل متصف بما يقتضيه الاسم الظاهر.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨]، ولم يقل فإن الله عدو له، فأفاد هذا الإظهار:

١- الحكم بالكفر على مَنْ كان عدوًا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال.

---

(١) تقدم (ص١٨٣).

٢- أن اللَّه عدو لهم لكفرهم.

٣- أن كل كافر فاللَّه عدو له.

مثال آخر: قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْـكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْـمُصْلِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، ولم يقل إنا لا نضيع أجرهم فأفاد ثلاثة أمور:

١- الحكم بالإصلاح للذين يمسّكون الكتاب ويقيمون الصلاة.

٢- أن اللَّه آجرهم لإصلاحهم.

٣- أن كل مصلح فله أجر غير مضاع عند اللَّه تعالى.

وقد يتعين الإظهار كما لو تقدم الضميرَ مَرْجِعَانِ يصلح عَوْدُه إلى كل منهما، والمراد أحدهما، مثل: اللهم أصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانة ولاة أمورهم، إذْ لو قيل: «وبطانتهم» لأَوْهَمَ أن يكون المراد بطانة المسلمين.

● **الشرح**: الإظهار في موضع الإضمار يعني معناه أن يكون السياق يقتضي أن يُؤتي بالضمير، ولكـــن أُتي بالظاهر مكان الضمير. هذا له فوائد منها: أولا: الحكم على مرجعه بما يقتضيه الاسم الظاهر، فإذا كان الاسم الظاهر يقتضي الكفر حكمنا على مَرْجعه بأنه كافر، يقتضي الظلم حكمنا على مرجعه بأنه ظالم، يقتضي الفسق فكذلك، يقتضي المدح فكذلك، المهم أنه يُحكم على مرجع الضمير بما يقتضيه هذا الاسم الظاهر.

ثانيًا: بيان علة الحكم. وهو أن علته ما دل عليه ذلك الاسم الظاهر. وسيتبين بالمثال.

ثالثًا: عموم الحكم لكل متصف بما يقتضيه الاسم الظاهر. يعني إرادة العموم.

وربما يكون هناك فائدة راجحة وهي التنبيه؛ لأن السياق إذا كان يقتضي الإضمار ثم جاء الإظهار فإن الإنسان يتوقف لماذا جاء الإظهار؟ فيكون فيه فائدة

رابعة وهي التنبيه – تنبيه المخاطب – أو القارئ . مثال ذلك قول الله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ مقتضى السياق أن يقال : فإن الله عدو له ؛ لأن المقام مقام ضمير . ولكن الله قال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ فأفاد هذا الإظهار أولا : الحكم بالكفر على من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال . وجه ذلك : لو قال من كان عدوًا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو له » هل نستفيد أن هذا كافر ؟ لا . إذا كان عدو لهؤلاء فإن الله عدو له فقط . لكن ما ندري ما هو كافر أو ظالم أو فاسق . فلما جاءت ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ حكمنا على أن من كان عدوًا لله ورسله وجبريل وميكال فإنه كافر .

ثانيًا : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ تفيد التعليل أن الله عدو لهم لكفرهم ، بخلاف ما لو قال : « فإن الله عدو له » فإنه لا يتبين بذلك علة العداوة .

ثالثًا : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ يعني هؤلاء خاصة أو كل كافر ؟ كل كافر ولهذا تفيد العموم ؛ وهو إن كل كافر فالله عدو له .

فهذه ثلاث فوائد مهمة ، الفائدة الرابعة كما ذكرنا قبل قليل وهو التنبيه ، ووجه ذلك أنه إذا كان مَجْرَى الكلام على نَسَق واحد ثم جاء ما يخالف هذا النسق فإن السامع سوف يتوقف ، لماذا ؟ أنا أقرأ « فإن الله عدو له » لماذا قال : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴾ ؟ فيحصل بهذا التنبه .

مثال آخر : قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ ﴿ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ ﴾ يعني يتمسكون به تمسكًا تامًا ، ولهذا جاءت مشددة للمبالغة ، ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ واضحة ، ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ المترقب أن يقال : « أجرهم » ، لكنه قال سبحانه وتعالى : ﴿ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ ولم يقل : « إنا لا نضيع أجرهم » ، فأفاد ثلاثة أمور :

أولا : الحكم بالإصلاح للذين يمسكون الكتاب ويقيمون الصلاة ، ولو قال :

« إنا لا نضيع أجرهم » لم يتبين لنا أنهم مصلحون ، فلما قال : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ عرفنا أن هؤلاء مصلحون .

ثانيًا : أن الله آجرهم لإصلاحهم . وهذا إفادة العليّة .

ثالثًا : أن كل مصلح فله أجر غير مضاع عند الله تعالى .

إذن هذه ثلاث فوائد ، وإن شئنا زدنا رابعة للإظهار في مقام الإضمار .

ثم قال : وقد يتعين الإظهار ، يعني في مقام الإضمار ، كما لو تقدم الضمير مرجعان يصلح عوده إلى كل منهما والمراد أحدهما . مثاله : اللهم أصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانة ولاة أمورهم . إذ لو قيل : « وبطانتهم » ، لأوهم أن يكون المراد بطانة المسلمين . لو كان الدعاء : اللهم أصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانتهم » بطانة مَنْ ؟ يحتمل أنها المسلمين ، ويحتمل أنها ولاة الأمور . فحينئذ يتعين أن تُظهر لئلا يحصل الالتباس ، وهذه قاعدة معروفة في النحو : أنه إذا خيف الالتباس وجب أن يُحَوَّل الكلام إلى ما ليس فيه التباس .

* * *

ضمير الفصل

ضمير الفصل حرف بصيغة ضمير الرفع المنفصل يقع بين المبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين.

ويكون بضمير المتكلم كقوله تعالى: ﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا ﴾ [طه: ١٤]، وقوله: ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ ﴾ [الصافات: ١٦٥].

وبضمير المخاطَب كقوله تعالى: ﴿ كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [المائدة: ١١٧].

وبضمير الغائب كقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥].

وله ثلاث فوائد:

الأولى: التوكيد، فإن قولك: زيد هو أخوك، أَوْكَد من قولك: زيد أخوك.

الثانية: الحصر، وهو اختصاص ما قبله بما بعده، فإن قولك: المجتهد هو الناجح، يفيد اختصاص المجتهد بالنجاح.

الثالثة: الفصل، أي التمييز بين كون ما بعده خبرًا أو تابعًا، فإن قولك: زيد الفاضل، يحتمل أن تكون الفاضل صفة لزيد والخبر منتظر، ويحتمل أن تكون الفاضل خبرًا، فإذا قلت: زيد هو الفاضل، تعين أن تكون الفاضل خبرًا لوجود ضمير الفصل.

● **الشرح:** ضمير الفصل يقول المؤلف: إنه حرف بصيغة ضمير الرفع المنفصل. وبناء على ذلك يكون لا محل له من الإعراب. قال الله تعالى: ﴿ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴾ [الشعراء: ٤٠] ولو كان له محل من الإعراب لقال: هم الغالبون » لكنه ليس له محل من الإعراب إذْ أنه حرف، يقع بين المبتدأ والخبر إذا كانا مَعْرفتين، إذا كانا معرفتين جاء ضمير الفصل بين الخبر والمبتدأ. وسواء كان منسوخين أم غير منسوخين، يعني ضمير الفصل يأتي سواء نُسخ الخبر

والمبتدأ أو لا ، ويكون بضمير المتكلم ، وبضمير المخاطب ، وبضمير الغائب . يعني يأتي بكل صور الضمائر . بضمير المتكلم كقوله تعالى : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ أين ضمير الفصل ؟ هل هو واقع بين مبتدأ وخبر معرفتين ؟ الجواب : نعم ؛ لأن الياء في « إنني » ضمير والضمير معرفة ، واسم الجلالة معرفة أيضًا ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ وهنا واقع بين مبتدأ وخبر منسوخين أو لا ؟ نعم ، منسوخين .

ويكون أيضًا بضمير المخاطب كقوله تعالى : ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أين ضمير الفصل ؟ أنت ، وهو واقع بين مبتدأ وخبر كلاهما معرفة ، وهل هما منسوخان أو لا ؟ نعم ، هما منسوخان بكان ترفع المبتدأ وتنصب الخبر . ويكون بضمير الغائب كقوله تعالى : ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ « أولئك هم » وقعت بين معرفتين يعني المبتدأ والخبر ، وهما معرفتان . « أولاء » اسم إشارة وهو معرفة ، و« المفلحون » محلى بأل ، بين مبتدأ وخبر منسوخين أو غير منسوخين؟ غير منسوخين .

والأمثلة فيها المنسوخ بإن وأخواتها والمنسوخ بكان وأخواتها وغير المنسوخ . وهو كثير في القرآن وكذلك في كلام العرب وكذلك في الشعر ، فما فائدته ؟

له ثلاث فوائد : الفائدة الأولى : التوكيد ، فإن قولك زيد هو أخوك أوكد من قولك زيد أخوك . لو قال : « زيد أخوك » ، فهم أن زيد أخوك ، لكن لو قال : « هو أخوك » ، هذا أقوى من قولنا « زيد أخوك » .

والثاني : الحصر وهو اختصاص ما قبله بما بعده . فإن قولك « المجتهد هو الناجح » يفيد اختصاص المجتهد بالنجاح ، وغير المجتهد لا نجاح له . وربما يعبر بعضهم فيقول : تفيد الحصر ، والمعنى واحد تفيد الاختصاص أو تفيد الحصر .

الثالثة : الفصل أي التمييز بين كون ما بعده خبرًا أو تابعًا ، فإنَّ قولك « زيد الفاضل » يحتمل أن تكون « الفاضل » صفة لزيد والخبر منتظر ، « زيد الفاضل » فيتشوف المخاطب ، ماذا في زيد الفاضل؟

يقول : خبر « زيد الفاضل » محذوف . فإذا أتيت بضمير الفصل فقلت : « زيد هو الفاضل » تعين أن تكون الفاضل خبرًا للمبتدأ ؛ ولهذا سُمِّي ضمير فصل ؛ لأنه يفصل بين الخبر والصفة ، قال : والخبر منتظر ، ويحتمل أن تكون الفاضل خبرًا ، فإذا قلت : « زيد هو الفاضل » تعين أن تكون الفاضل خبرًا لوجود ضمير الفصل .

* * *

الالتفات

الالتفات: تحويل أسلوب الكلام مِنْ وَجْهٍ إلى آخر، وله صور منها:

١- الالتفات من الغَيْبة إلى الخطاب: كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٥]، فحَوَّل الكلام من الغَيْبة إلى الخطاب في قوله: إياك.

٢- الالتفات من الخطاب إلى الغَيْبة: كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢]، فحول الكلام من الخطاب إلى الغَيْبة في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾.

٣- الالتفات من الغَيْبة إلى التكلُّم: كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: ١٢]، فحَوَّل الكلام من الغَيْبة إلى التكلُّم في قوله: ﴿وَبَعَثْنَا﴾.

٤- الالتفات من التكلُّم إلى الغَيْبة: كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر: ١ - ٢]، فحول الكلام من التكلم إلى الغَيْبة في قوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾.

وللالتفات فوائد منها:

١- حَمْل المخاطب على الانتباه لتغير وجه الأسلوب عليه.

٢- حمله على التفكير في المعنى؛ لأن تغيّر وجه الأسلوب يؤدي إلى التفكير في السبب.

٣- دفع السآمة والـمَلَل عنه؛ لأن بقاء الأسلوب على وجه واحد يؤدي إلى الملل غالبًا. وهذه الفوائد عامة للالتفات في جميع صوره.

أما الفوائد الخاصة فتتعين في كل صورة حسب ما يقتضيه المقام.

واللَّه أعلم، وصلى اللَّه وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تم ولله الحمد رب العالمين.

● **الشرح** : وهذا فيه براعة الاختتام . تعرفون براعة الاختتام ؟

أن يؤتي بآخر الكلام بما يدل على الانتهاء ، وذلك أن البحث الأخير هو الالتفات يعني كأننا التفتنا عن هذا إلى كتاب آخر . الالتفات يقول : هو تحويل أسلوب الكلام من وجه إلى آخر ، وله صور ذكرنا منها أربعة : الأول : الالتفات من الغيبة إلى الخطاب كقوله تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فحول الكلام من الغيبة إلى الخطاب في قوله إياك ، أين الغيبة ؟ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ تتحدث عن غائب ، ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ كذلك ، ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ كذلك ، ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ الآن تتحدث عن مخاطب : إياك ، الفوائد الثلاثة التي ذكرنا موجودة هنا : وهي حمل المخاطب على الانتباه ، والثانية حمله على التفكير في المعنى ، والثالثة دفع السآمة والملل . هذه فوائد عامة في كل التفات ، لكن الخاصة هنا أنك لما أثنيت على الله تعالى بما أثنيت عليه به من كونه رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، كأنه بهذا الثناء صار حاضرًا أمامك فقلت : إياك نعبد وإياك نستعين . فبَعْد الثناء عليه جل وعلا حضر في قلبك كأنه أمامك فقلت ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

ثانيًا : الالتفات من الخطاب إلى الغيبة . كقوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ فحول الكلام من الخطاب إلى الغيبة في قوله : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ ولو كان على نسق واحد لقال : « وجرين بكم » لكن قال : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾ كراهة أن يتصف المخاطَبون بما ذُكر بعد ذلك . ما الذي ذُكر ؟ ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ هذه الأوصاف لا توجه إلى المخاطبين ، حتى إذا كنتم الخطاب للمسلمين ، وما بعد الأوصاف لا تتوجه إلى المسلمين يعني فيها شيء من الغَضَاضة لو وجهت إليهم ،

كقوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ بدل « عبست وتوليت » لأن المراد بقوله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ النبي عليه الصلاة والسلام ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ .

الثالث : الالتفات من الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا ﴾ فحول الكلام في الغيبة إلى التكلم في قوله : ﴿ وَبَعَثْنَا ﴾ ولو كان الكلام على نسق واحد لقال « وبعث » ، ولكن حصل التفات إشارة إلى عظمة الله عز وجل ، وأنه سبحانه وتعالى هو الذي يبعث الرسل . فهو إشارة إلى عظمته وكمال سلطانه ، وأنه جل وعلا هو الذي يبعث الرسل . وإن كان هذا سيحصل فيما لو قال « وبعث » لكن هذه أبلغ إذا أضافها لنفسه .

الرابع : الالتفات من التكلم إلى الغيبة كقوله : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ فحول الكلام من التكلم إلى الغيبة في قوله : ﴿ لِرَبِّكَ ﴾ يعني ولم يقل « فصل لنا » ولو أنه كان على نسق واحد لقال : « فصل لنا » لكنه قال : ﴿ صَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ وفائدة الالتفات هنا الفائدة الخاصة الإشارة إلى أن الله تعالى منحك هذا للربوبية الخاصة بك[1] ؛ لأن الكوثر من خصائص الرسول عليه الصلاة والسلام .

ثم قال : وللالتفات فوائد منها حمل المخاطب على الانتباه لتغير وجه الأسلوب عليه . وإذا تغير وجه الأسلوب لزم من ذلك أن ينتبه المخاطب .

ثانيًا : حمله على التفكير في المعنى لأن تغير وجه الأسلوب يؤدي إلى التفكير في السبب بمعنى انتقل من الغيبة إلى التكلم أو التكلم إلى الغيبة وما أشبه ذلك ، يبحث السبب .

ثالثًا : دفع السآمة والملل عنه – يعني عن المخاطب – لأن بقاء الأسلوب على

---

(١) يعني أن له مقامًا خاصًا عند ربه محمودًا .

وجه واحد يؤدي إلى الملل غالبًا .

قال : وهذه الفوائد للالتفات في جميع صوره ، أما الفوائد الخاصة فتتعين في كل صورة حسب ما يقتضيه المقام .

من الأمثلة قوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ﴾ ولم يقل « عبست » لماذا ؟ كراهة أن يُخاطَب النبيُّ ﷺ بهذا الأسلوب القاسي ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ لو قال : « عبست » ، فيها شيء من الغضاضة على الرسول عليه الصلاة والسلام . لكنه قال : ﴿ عَبَسَ ﴾ تحاشيًا أن يواجه النبي ﷺ بهذا الخطاب .

وإلى هنا تنتهي هذه المذكرة من أصول التفسير . نسأل الله تعالى أن ينفع بها .

* * *

الفهـــرس

* * *